بسام شمس الدين

قواعد أخرى

الجزء الرابع

لوحة الغلاف للفنانة التشكيلية د. آمنة النصيري

للتواصل مع الكاتب عبر البريد الالكتروني:

bassamshmsaldn@gmail.com

رعد

أبقت الحياة على آخر طفل مميز في الشرق كله، نشأ في اليمن على مشارف وادي زلمان، بل هو أحد طفلين مميزين في الأرض نجيا من السلالة البشرية الأولى، أحدهما ذكر، والأخرى فتاة نشأت في جزيرة صقلية الإيطالية، عاشا بين عراة متوحشين بضع سنين، ثم بحثا عن بعضهما ليؤسسا السلالة الثانية التي ننحدر منها.

كان السؤال الذي يلح عليهما، لماذا جاءا محملين بالعقل رغم أن العقول البشرية أعطبت؟ كذلك كيف نجيا من الوباء والجفاف رغم أن الأرض بدت خاوية من البشر العاقلين؟ أسئلة عديدة تقودنا إلى حكاية صغيرة، عن فتى صغير، حبسته امرأة أبيه في قبو الملح الذي تحيط به أكوام من أكياس الرماد، وهي مواد لا تستطيع الشياطين اختراقها، بالضبط كما لا يستطيع البشر اختراق مواد حارقة كالنار أو بعض المواد الكيميائية أو السموم أو حتى الجدران أو الأسلاك الشائكة، لا نعرف شيئا عن تأثير هذه المواد بهذه الكائنات، نحن نكتب ما وجدناه في المخطوط الرابع الذي كتب على ما بقي من ورق الكرّاسات المدرسية، هذا يعني أن الزوجين شرعا بتأسيس القواعد الجديدة التي تحظر منع استخدام الورق المصنوع من لحاء الشجر، لأن ذلك يضر بالطبيعة وبمستقبل الكائنات التي تعيش على الكوكب، بطبيعة الحال، كان البشر يدركون أن قطع الأشجار يحدث خللا

في التوازن الطبيعي في دورة الحياة، لكنهم تجاهلوا علامات الأخطار التي تبعثها الطبيعة، ولم يتوقفوا عن نفث الأدخنة في الهواء وصنع الأسلحة واجتثاث الغابات، كانوا جشعين يجنون الأموال دون أن ينظروا إلى ما تفعله مصانعهم من تلوث في الأرض، لا بأس، سوف نتحدث عن ذلك لاحقا..

لنبدأ بالطفل الشرقي المميز الذي نشأ في بلد عتيق يدعى اليمن يقع في جنوب جزيرة العرب، خرج مثل جرو صغير في منزل محاط بذرات الملح والرماد، لم يصدر عنه أي بكاء أو انزعاج كما يفعل المواليد، بل بدا هادئا يحرك يديه وقدميه بمرح، عندما تناولته جدته فاطمة _التي قامت بدور القابلة_ رأت شفتيه تنفرجان، مسحت على وجهه الضئيل لتخفي ابتسامته خوفا من العيون الشريرة، قالت على الفور بصوت حاد:

"تبارك القدير، إنه صبي"

أضافت بعد لحظات:

"سيبكي بعد قليل حين أقطع حبله السري"

لكنه لم يبكِ حين فصلت عنه المشيمة، دهشت الجدة، وكتمت ما يدور في ذهنها، كانت تظن إن إثارة الموضوع سوف يصيب المولود بأضرار شديدة، فالجيران ينفسون على بعضهم، لاسيما النساء المحرومات من الإنجاب، خافت عليه من الأشخاص الذين يطمعون بالحصول على أي شيء جميل، ويتمنون زوال النعمة على الغير، بدت الجدة المسكينة تفكر في العناء الذي سيلاقيه الصبي في حياته، لأن الحياة عموما لا تدعو للامتنان، أما في هذا

البلد فإنها نضال مستمر للبقاء، ذلك أن الأهالي يحملون من سوء الطباع ما تعجز السماء والأرض عن حمله، بحيث لا يطيب لهم أن يروا شخصا بشوشا ضحوكا يعيش في أوساطهم، وإن ضحكوا يضحكون بتصنع في بعض المناسبات الاجتماعية والأعياد، لكنهم يضحكون كثيرا ساخرين من الغير، أخبرت الجدة أمه بعد خروج النساء بما يساورها من مخاوف، تنهدت الأم بإرهاق، ولم ترد، تلفتت الجدة بحذر بالرغم من خلو الحجرة وعادت لتهمس قائلة بضيق:

"ألا تكترثين بما حدث يا عالية؟"

أجابت المرأة المتعبة بصوت حاد:

"أماه، لا أهتم بأي شيء لاسيما هذه اللحظة"

لم تتحدثا عن الأمر ثانية، سار كل شيء بسلاسة، تعافت الأم، والأب بدأ يتاجر برأس مال ضئيل، فتح محلا لبيع الملح وحقق مكاسب صغيرة، شرع الفتى ينمو، أطلقوا عليه اسم رعد دون سبب، كانت مثل كل الأسماء التي تنتزع من الظواهر الكونية لتمنح للأطفال دون ثمن، ليكون اسمه مع اللقب رعد شمسان الكوكبان مثل هذه الأسماء الفخمة توحي بالقوة، كانت عائلتهم تحظى بالتقدير لأسباب غير اجتماعية، فقد ورثوا مساحة جيدة من الأرض في نجد مدر استغلت في زراعة القمح والشعير، في هذه البيئة القروية نشأ الصغير سنواته الأولى محفوفا بالاهتمام لأنه البِكْر، كان القرويون قد سمعوا خبر ابتسامه وعدم بكائه عند ميلاده، ضحكوا وعلقوا ساخرين زاعمين إن المسيح تكلم في المهد، لكنه لم يبتسم عند خروجه إلى

الدنيا، لاحظت عالية أن ابنها يتحرك بشكل غير طبيعي بعد أيام من ولادته، يدفع جسده إلى السقوط من منامته المتواضعة، لذا اضطرت أن تشده بالقماط، وأن تحيط منامته بالمساند القطنية أو الوسائد، غير أن العلامات التي تثبت تميزه ونشاطه كانت تكبر سنة تلو أخرى، في الرابعة من عمره، وفي منزل جده ناصر، دفعه أحد الفتيان عن سطح الطابق الثاني، صرخ الأطفال وركضوا هاربين، سرعان ما سمعت النساء خبر سقوطه المهلك، فانهارت أمه فاقدة وعيها، وهرعت خالاته باكيات متوقعات أن يجدن جثته المهشمة ممددة على الأرض، لكنهن التقين بالصبي خارج المنزل وهو يحمل لعبته الصغيرة المهشمة، نظر إليهن باكيا مطالبا بلعبة جديدة، لم يمسه سوء سوى خدش صغير على خادعه، وثمة نطفة دم طَفَت فوق الخدش، خطفنه إلى الداخل باكيات وضاحكات، خلعن ملابسه، تفحصن أعضاء جسده باحثات عن الأضرار، نظرن إلى بعضهن بعجب وتبادلن التهاني على سلامته، لكن أمه أصيبت بحمى شديدة بسبب الخوف، ظلت بضعة أيام عديدة طريحة الفراش، حتى صاحت شقيقتها اليافعة فوزية قائلة بسخط:

"ماذا دهاك؟ زوجك ينتظر في الخارج"

"رباه، هل تمزحين؟"

رمت الدثار الذي يغطيها جانبا، وقفزت إلى أمام المرآة، متوسلة من شقيقاتها أن يحشرن أغراضها في الحقيبة ريثما تصلح زينتها، ضحكن من حالها واضطرابها، وهربن صائحات:

"أردنا أن تكفي عن الأنين وحسب، لكنه سيأتي في الغد"

طاردتهن قليلا، ثم آبت غاضبة، قالت أمهن بانفعال:

"لا تخبرنه بما حدث، لا تخبرن أحدا"

لا يسمع الأب عما يدور، وإن سمع شيئا لا يبدو عليه الاهتمام، لا يكترث سوى بتجارته وأمواله المتراكمة، مرت السنون بتلك الوتيرة، طفل شقي يتصرف دون خوف، يتسم بالجلد الشديد، بوسعه أن يجري طوال اليوم دون أن يصاب بالتعب، يتفوق على أقرانه في كل شيء ماعدا الدراسة، كان مهملا وغبيا في فهم الدروس، وهنا بالوسع القول أنه لم يكن محاطا بأي شيء سحري يبقيه مميزا كما حدث لسعد بن سرحان، لكن الحياة أحيانا تهب بعض الأشخاص حظا قويا، في حين تجلب لآخرين تعاسة كبيرة، لكن الحظ دوما لا يكون شاملا، بحيث يكون المرء محظوظا في شيء ما، ومخفقا في أمور أخرى، هذا ما حدث مع الفتى، حاول أبوه أن يكون فخورا به دون جدوى، إنه تاجر "ملح" على كل حال، بوسع أي تسرب للماء إلى قبوه أن يرمي بتجارته في المجهول، رغم ذلك جلبت له الأموال القليلة التي كسبها مؤخرا من تجارة الملح تلك النظرة المتعالية المستهترة بكل شيء، دخل وزوجته في جدال انتهى بصراع مرير، كانت تجابهه بالقول إنه لا يعرف شيئا عن ابنه، وإذ يظل بعيدا عن المنزل طيلة أيام الأسبوع، فلا يفهم شيئا عن حسنات الصبي وعيوبه، يصر أن ابنه ليس مميزا في شيء، وأن علاماته في المدرسة ضعيفة ومتدنية للغاية، وسينتهي به الأمر إلى مرحلة الرسوب الكامل في الصفوف العليا، استمر شجارهما حتى الصف

الخامس، خلال هذا العام اكتشفت عالية أن زوجها اقترن قبل عام بامرأة صغيرة، ويعيشان معا في منزل مستأجر بالمدينة، وأن غيابه لم يكن لأجل التجارة وغيرها من الذرائع التي كان يسوقها لها، أخذت أغراضها ورحلت إلى بيت والدها في السبتية، ولم ترجع إلى الرجل الخائن حسب وصفها له.

جلب تاجر الملح امرأته الجديدة إلى القرية بعد أن أخفقت كل مساعيه في استعادة امرأته الأولى، كانت الأرض الزراعية تستدعي أن يكون هناك من يرعاها، ويشرف على أعمالها، اضطر الأب المشغول بالبيع في المدينة أن يعين له وكيلا يشرف على شئون الأرض، حتى اكتشف أن نصف الغلال التي يسلمها الفلاحون تذهب إلى مخزن الوكيل، انتقل إلى تعيين وكيل آخر استغله هو الآخر، أوكل رجلا ثالثا ورابعا دون جدوى، لذا ترك الفلاحين يسلمون إليه الغلال بأنفسهم، ولم يعد يثق بأي شخص، حتى ابنه الذي يخفق في دراسته أخذ يصب عليه كامل غضبه، امرأته الجديدة كذلك لم تتردد عن إيغار قلبه على رعد الذي لم يكن متملقا أو ذليلا، جعلت تردد على مسمع والده أن معظم الفتيان في مثل عمره صاروا يعملون في الحقول، وعليه أن يتجشم بعض الأعباء عله يقوم بعمل نافع في حياته، هكذا قدمت رأيها الصريح الذي لاقى هوى في نفس الأب الغاضب، وهكذا وفي خطوة مفاجئة نزع التاجر الحقول من أيدي الفلاحين، وألقاها على كاهل رعد الصغير، أفصح بسخرية أمام حشد من القرويين إنه يريد أن يختبر تميزه وجلده وقدراته التي يزعمون أنه يتحلى بها، ضحكوا بلا اكتراث، بعضهم أعلنوا إن هذا قرار حكيم رغم اعتقادهم أن الفتى سوف يخفق في مهمته، لكن لابد من إجراء الاختبار ليتأكدوا مما يقال، ببساطة، أصبح

رعد ووالده في خضم رهان غير معلن لإثبات أيهما أكثر صلابة وفهما للحياة، وهذا أمر غريب حدث في قرية نجد مدر، لم يسبق لأبٍ أن حاول إيقاف خطى ابنه الذي يسير نحو التميز والجلد، وقف القرويون متفرجين ليروا أي الطرفين يثبت أنه يملك قوة ورأيا ثاقبا في الحياة، لم يكن الفتى يدرك أن هناك رهان على فشله، وهذا كان في مصلحته، لأنه لو أدرك أنه يقف في وجه والده سوف يخاف ويضعف، صاروا يضحكون ملء أشداقهم منتظرين النتيجة بشغف، ما لبثوا أن اندهشوا حين أتقن رعد معظم الأعمال الزراعية في ذلك العمر، واعترفوا بتميزه. وأغضب ذلك الأب التاجر واتهم القرويين بالمبالغة والتجديف والمحاباة، ووصف الزراعة بأنها مهنة الجهلة والأميين الذين ليس بوسعهم أن يمارسوا غيرها، مؤكدا أن التجارة والصناعة هما مهنة المتعلمين والراقين من أبناء المجتمع. معترفا أن ابنه أخفق في دراسته، معلنا عن خيبة أمله أن ينتهي به الحال أن يكون فلاحا في ذلك العالم الذي يزدهر اقتصاديا وصناعيا، وفي كل لحظة يتم انتاج آلات متطورة ومصانع جديدة يشتغل فيها آلاف الفنيين الذين يتخرجون من المدارس الصناعية والمعاهد الفنية، وأن مستقبل هذا العالم اليوم يقوم على التصنيع والتجارة. استفز كلامه الفلاحين وأجاب أحدهم أن الزراعة هي التي تسد جوع البشر، وليس هذه المصانع المزعومة. ومشوا من أمامه غاضبين.

في صبيحة عرس بدور خالة رعد، أتى خاله مانع من السبتية بسيارة تابعة للجيش، وأخذه من منزل أبيه ليحضر العرس حسب رغبة العروس التي أصرت ألا يتخلف أحد أقاربها عن المناسبة، ذهب والده متنمرا إلى

الشرطة، وأبلغهم أن ابنه اختطف من منزله، أتت سيارة الشرطة في يوم الزفاف لتعتقل الخاطفين، أشار والده إلى صهره مانع طالبا من الجنود أن يعتقلوه، لكنه كان ضابطا مرموقا في الجيش يعرفه جميع رجال الشرطة، وقد تعاملوا معه بحذر ولطف، في النهاية، طلب ضابط الشرطة أن يحضر الفتى ليخبرهم عن حاله، فأتى ووقف أمام الضابط وقال ببراءة فتى صغير لا يدرك ما يجري: "أنا غير مختطف، وهذا هو منزل جدي ناصر، واليوم عرس خالتي زينب" إثر ذلك، وعد الخال الشرطة أن يعيد إلى منزل والده في اليوم التالي، فانصرفوا شاكرين، ومضى والده منكسرا غاضبا. بينما أخذه خاله إلى مكان يستخدمه الناس للقنص في المناسبات والأعياد، وقدم له سلاحا آليا، ودربه كيف يطلق النار على علامة بيضاء على شكل دائرة قطرها ثلاثين سنتيمتر رسمت بالطلاء عرض حائط صخري مقابل، كان خاله مصرا أن يصيب الدائرة بأي ثمن، كان إطلاق النار مخيفا في البداية، صوت انفجار الرصاصة، خشي أن ترتد إليه من الصخرة، ضحك خاله من قوله وخوفه، وأفصح له إنها لا يمكن أن ترتد إليهم عن مسافة خمسمائة متر، لأن آخر مدى تصل إليه هو ألف متر، وجعل يجري حسابا دقيقا للارتداد المؤثر، لم يفهم شيئا مما قيل، في النهاية أصاب طرف الدائرة بعد ثلاثين رمية، وهكذا عاد منتصرا مزهوا ليخبر الفتيان بإنجازه المثير، واستمتع في الزفاف أيما استمتاع، ولم يتسن له الرماية مرة أخرى أو الشعور بالمتعة، فبمجرد عودته قوبل مقابلة غير سارة من والده، وقضى ذلك العام في شقاء وعناء شديدين، إذ كلف بكثير من الأعمال الشاقة، اجتثاث الأعشاب الضارة من الحقول التي يملكونها بالوادي، تقليب التربة

بالمعول ، وريها بواسطة أنابيب بلاستيكية دون أن يساعده أحد، وفي المنزل كانت امرأة أبيه تتظاهر بالمرض، وتطلب منه أن يخضب العجين، ويغسل الملابس، ويطهو الوجبات، يرجع متعبا من المدرسة ليساعدها في إعداد وجبة الغداء، حين ينتهي لا يستطيع أن يأكل بسبب التعب، وبالكاد يكتب واجباته المدرسية، أو لا يستطيع، يشكو المعلمون إلى والده من إهماله، كان يتعمد أن يأتي ليسأل عن درجاته ومستواه التعليمي، ويتلذذ بتوبيخه أمام التلاميذ، وفي يوم حاول أن يضربه ليثبت أنه أب حازم وغير متهاون، هرب رعد قافزا فوق السور، حبذ أن ينال العقاب بعيدا عن عيون الآخرين، وهذا ما حدث، جلبه والده في الصباح التالي إلى المدرسة والعصا في يده، أصبح يمقت والده أكثر من أي شخص آخر، ويكره المنزل والمدرسة والمعلمين الذين يعجبهم هذا الحزم الأبوي، ويرددون على الدوام أن الابن يجب أن يطيع والده ومعلمه وربه، استطاع أن يجتاز العام الدراسي السابع بأدنى الدرجات ونال مرتبة مقبول. وظل الشقاء مستمرا حتى وقع حادث الجنون الكبير في العطلة الصيفية لذلك العام.

الحيوان الشرس

اعتاد التاجر أن يودع في مخزنه بالمدينة القليل من البضاعة، بينما يأخذ الكثير من أكياس الملح على شاحنته الكبيرة إلى قبو كبير في قرية نجد مدر، حيث بوسعه هناك أن يخفيها عن عيون موظفي الضرائب الذين يفرضون بعض المال على البضائع المخزونة ولو كانت ملحا، ونثر هذا الرجل الماكر كثيرا من الرماد حول القبو ليوحي بعدم أهميته، لكنه مؤخرا بعد أن أصيب بالإحباط، فكر في استخدامه سجنا لابنه المتجلد الذي لا يستسلم، كانوا في منتصف العطلة الصيفية، في شهر أغسطس بالتحديد، وهو موسم الأعراس والأمطار، وقد تناهى إليه أن زهور خالة رعد الصغرى والأخيرة سوف تزف في نهاية ذلك الأسبوع، لذا جاء عشية يوم الثلاثاء خائفا أن يتكرر ما حدث في المرة السابقة، كانت لديه مشاغل كثيرة، ويتحتم أن يعود إلى متجره في المدينة، لأجل ذلك طلب من امرأته أن تقوم بإخضاعه بأي وسيلة، حتى ينقضي يوم الزفاف وهو الخميس، أراد أن يثبت للقرويين أن امرأته السابقة زرعت في رأس الصبي كثيرا من الأفكار الحمقاء حول قدراته، كما أراد أن تزول أسطورة ما يسمى "الفتى المتميز" بأي ثمن، حتى لو اضطرت إلى سجنه في القبو المعتم، وهذا ما حدث.

استدعته امرأة أبيه إلى قرب القبو، وطلبت منه أن يجلب بعض أكياس الملح من الداخل، وحين توغل في القبو، أوصدت الباب عليه، ثم قذفت له قطعتي خبز من نافذة صغيرة قرب العتبة العليا، وطلبت منه أن يمكث

بهدوء حتى تقوم بتحريره عند المغيب، سارت إلى باحة القرية دون اكتراث، وهناك أعلنت إن الفتى للأسف أهمل الحقول وأخفق في دراسته وأغضب والده، وإنه الآن نزيل القبو حتى يصيح بصوت عالٍ إن أبيه على حق في توقعاته، وأنه فتى غير مميز في شيء، وأنه يطلب المغفرة، لكن الفتى لم يعترف بمعظم هذه التهم. عند المغيب لم تحضر امرأة أبيه الغاضبة لتحريره كما وعدت، فمكث متجلدا حتى اليوم التالي، ثم فجأة سمع هرجا وصراخا مرعبا في القرية، وخطر له أن حريقا أو أمرا ما أصاب أحد القرويين، مر مغيب آخر، وكاد الجوع أن يهلكه، ومن ثم فقد صبره وجلده، وصار يصرخ قارعا الباب الخشبي الغليظ دون أن يحضر أحد، قضى ساعات طويلة وسط ظلام حالك بدون غطاء أو فراش، أخيرا افترش أكياس الملح ونام وسط برد شديد، في اليوم الثالث، ظل يصرخ بصوت باكٍ، فأتى المجانين بما لهم من حاسة شم قوية، وحطموا باب القبو، وسحبوه إلى الخارج، هناك مزقوا ملابسه بشراسة، ولما خاطبهم محتجا، فروا منه دون أن يقولوا شيئا، ذهبوا وراء سبيلهم، ظل يراقبهم بعجب، أخذ يفكر فيما يدعو الأهالي إلى التخلي عن ملابسهم، سار متعثرا نحو المنزل واضعا يديه بين ساقيه، يوشك أن يسقط أرضا بفعل الجوع والظمأ، توقع أن تغضب امرأة أبيه حين تراه، ماذا بوسعه أن يفعل؟ حدث نفسه، لا يوجد أحد يهتم لأمره، أمه تعيش بعيدا عنه، وأبوه يصدق كل ما تقوله امرأته الخشنة، ولا يتردد عن ضربه حين تشكوه إليه، لحسن حظه لم تكن في الداخل، بدت الغرف دون نظام أو ترتيب، نوافذها وأبوابها محطمة، وجو المنزل يبدو مقفرا مكسوا بالغبار، استغل غياب ربة

المنزل، وتسلل إلى بيت النار باحثا عن شيء يأكله، وجد كل شيء محطما أيضا، الطحين مبعثر، سلة الكعك ممزقة، وقطع الكعك متناثرة هنا وهناك، أكلها بشغف، وشرب الماء من خزان حديدي ينتصب خلف المنزل لري نبات الفجل الذي تعشقه امرأة أبيه، وجد نبات الفجل مسحوقا، من بوسعه أن يسطو على مئونة العائلة ويسحق نبات الفجل؟! سأل نفسه باستغراب.

لبس ثيابا غير نظيفة على عجل، ثم حمل حقيبته، نظر بحسرة إلى ساعة الحائط المهشمة المستلقية تحت الجدار، وما لبث أن هرول ناحية مدرسته التي تقع خارج القرية في موضع وسيط بين القرى المجاورة، استطاع أن يتسلل متجاوزا القرويين العراة المنتشرين في المكان، حتى خرج من القرية، اقترب من المدرسة، انتابه الفرح حين لمح باب الفناء مفتوحا على غير المألوف، دخل متسللا متوقعا أن يعترض الحارس طريقه، وأن يأخذه إلى الإدارة للاستجواب عن سبب تأخره، فوجئ وهو يرى المعلمين عراة يركضون حول الفصول، البعض معلقون على أشجار الصنوبر المنتشرة في الباحة الخلفية للفناء، يأكلون أوراقها بشراهة، كان ذلك يبدو حقيقيا، ليس حلما يراه في منامه! رأى معلم الدين _ذلك الرجل المحتشم_ عاريا يقفز في الممر دون اكتراث، فجأة مضى يشم الهواء باحثا عن رائحة ما، التفت مسددا صوبه نظرة خاطفة، ثم ركض ناحيته صارخا، هرب الفتى خارج الفناء، سمع صراخهم ووقع خطاهم المتسارعة خلفه، صار ينشج بخوف رافعا يديه بخضوع، أوقعوه أرضا، وبدل أن يقتلوه كما توقع أن يفعلوا، مزقوا ثيابه مرة أخرى، وذهبوا وراء سبيلهم، رأى بعض أصدقائه الطلاب

يسيرون عراة بلا مبالاة، الكل يسيرون عراة، تلوح عليهم علامات العته والضياع، تملكه الانتشاء حين أحس أن الدراسة انتهت، بما تحمله من عناء وواجبات وعقوبات، شيئا ما حدث للأهالي أثناء غيابه، رمى الأسمال الممزقة التي بقيت على جسده، نظر إلى حقيبته مترددا، ثم أخذها وانطلق نحو الجبل القريب متخبطا دون أن يستر عريه أي شيء، أدرك رغم سنه الصغير إن عليه التظاهر بالجنون والابتعاد عن المجانين، مضى يطلق أصوات تشبه التجشؤ أو الفواق، مع ذلك لم يسلم من تطفل بعض التلاميذ الذين أحاطوا به، تفحصوا حقيبته بطمع، وحين رأوها لا تصلح أن تكون طعاما انصرفوا باحثين عما يؤكل، بدا ذلك هو هدف كل العراة، حتى هو مازال يشعر بالجوع، لم يشعر بحاجته للطعام كما هو حاله في ذلك اليوم، لكن أولويته كانت العثور على مكان آمن للمبيت، وصل إلى الجبل، وبحث عن كهف كبير أخبره عنه أحد الرعاة في وقت سابق، لم يجد هناك سوى تجويف صغير يقع تحت صخرة، له باب ضيق يفضي إلى فراغ واسع، وجد ذلك الحيز مظلما يحتاج إلى تنظيف وترميم، أجبره الجوع أن يخرج من مأواه الجديد، اتجه بصره بيأس ناحية المنحدرات الجافة، بدا الجبل قاحلا، خالٍ من الأشجار، وهذا يفسر خلوه من العُراة الذين يأكلون الأوراق واللحاء، كان شجر الصنوبر على فناء مدرسته مأكولا يكاد يكون عاريا من الورق، ماذا سيأكلون حين ينتهون من الأشجار؟ لم ير حيوانات أليفة في القرية، هل أكلوها؟ اقشعر بدنه حين فكر في ذلك، وجد عند مجرى للسيول شجيرات حُنكس ذات حبيبات صفراء صالحة للأكل، أخذ يلتقطها غير مبالٍ بالشوك ويرميها في ثغره الجاف، أكل كميه كبيرة

دون أن يشبع، أحس بالعطش الحاد وأن حرارة الشمس تكويه، مضى يسير على ظهر الجبل مبتعدا عن مأواه، كان يخشى أن تختفي الشمس قبل أن يجد شيئا يأكله أو يشربه، طارد بعض الجنادب والجراد دون جدوى، سرى تيار بارد من الهواء أصاب جلده بمزيد من الجفاف والارتعاد، بدأ الذعر يصيبه أيضا كلما مال قرص الشمس، فكر أن البقاء وحيدا في الجبل لا يقل خطورة عن العيش قرب المجانين، مد بصره في الأرجاء، مجرد جبال جامدة وهضاب وشعاب جافة ذات أشكال غريبة، أقبل الأصيل، دون أن يجد شيئا صالحا كطعام، فجأة سمع حنينا غاضبا يصدر من يمينه، التفت، رأى قرب صخرة صغيرة كلبا كبيرا مشتور الأذنين مكشرا أنيابه متحفزا للهجوم، مازالت السلسلة على عنقه، إنه "حتروش" كلب جارهم "مصلح"، كان حيوانا شرسا يحرس المحاصيل في الوادي، ولا أحد يجرؤ على الاقتراب من مأواه، باستثناء عرفات بن مصلح زميله في الصف الدراسي الذي كان يدعوه لمرافقته إلى الحقل، يقتربان من مأواه حاملين طبق الطعام الخاص به، يوشك الكلب أن يقطع سلسلته لفرط هياجه، مع مرور الوقت وتكرار الزيارات شرع الحيوان يخفف من حدة توتره، لكنه الآن لا يبدو مكترثا، مازال متنمرا مكشرا أسنانه، متأهبا لمهاجمته، عرف رعد أن الفرار سلوك مميت، اقترب بضع خطوات قائلا: "حتروش" ارتخت حدقتا عينا الحيوان حين سمع اسمه، رغم ذلك ظل مكشرا متحفزا، كان "رعد" يعرف أن موسيقى الصفير تسحر ألباب الكلاب، مازال يتذكر الصفير الذي كان يطلقه عرفات عندما يداعب كلبه الشرس، هل يجدي هذا نفعا؟ سأل نفسه بارتباك، ما لبث أن أطلق صفيرا موسيقيا من شفتيه،

انتبه الكلب وتلاشت تكشيرته، استغل الفتى هذا التغير المفاجئ، وانسل سائرا في طريقه وهو يطلق الصفير ليهدئ من خوفه أيضا، قال في سبيل التظاهر بالشجاعة وكأنه يكلم إنسانا عاقلا: "أحتاج إليك يا حتروش، اسمك يشبه أسماء العفاريت، لكن لا يهم، اتبعني إن شئت" ابتعد ناحية تل مرتفع، لم يجرؤ أن يتراجع نحو مأواه، أو يلتفت خلفه خوفا من الحيوان الضاري، شعر ببخار ساخن يسري في ظهره، وبانتصاب شعيرات رأسه، توقع أن يُهاجم من الخلف بين لحظة وأخرى، خيل إليه أنه يسمع صوت احتكاك السلسلة بالأرض، حين وصل قمة التل تنفس الصعداء، التفت للخلف، فأصدر الكلب حشرجة قوية منذرة، كان خلفه تفصلهما بضع خطوات، أخذ يمد خطواته مطلقا الصفير حتى لا يشعر الحيوان بخوفه، تراءى له منزل صغير قائم على ربوة قريبة تقع وسط مدرجات زراعية خضراء، شعر الفتى بالفرح غافلا عن الحيوان الضاري الذي يتبعه، لحسن الحظ إن هذا الكائن هو كلب حائر مصاب بجروح ظاهرة على جسده، لاحظ ذلك الآن، لمعت في رأسه خاطرة غريبة، بأن الحيوان يبدو خائفا من المجانين لا شك، وأنهم حاولوا سلخه حيا ليأكلوه، ولم يكن ليدعهم يقتربون منه لولا أن رأى صاحبه مصلح بين العراة، لعلهم جرحوه بالأحجار، وعندما هجموا عليه قطع سلسلته وفر مرعوبا، لذا لا يجرؤ أن يعود إلى القرية رغم إخلاصه لأصحابه، كما إنه لا يريد البقاء وحيدا على جبل معزول، ربما تظنون إن هذا لا يمكن أن يدور في أذهان الحيوانات المطاردة، وأنها لا تملك أية عواطف، لا أدري، هذا ما حدث، أطلق الفتى صيحة فرح حين رأى المنزل والحقول الخضراء، والكلب المدعو حتروش نبح

بصوت عالٍ أيضا، ظن الفتى السعيد أنه سوف يهلك قبل أن يصل إلى هناك، لذا أسرع بكل ما يملك من قوة، حتى دخل المنزل، أوصد الباب في وجه الحيوان الذي ركض خلفه مبقيا مسافة آمنة بينهما، كان بوسعه أن ينهشه بسهولة، لكنه لم يفعل، نفهم من هذا إن الخوف يجعل البشر يتصرفون بغباء، بحيث لا يستطيعون التفكير بشكل جيد، كان المنزل محطم النوافذ، إضافة إلى أن أصحابه المجانين كانوا يأكلون المحاصيل الخضراء في الحقول الخلفية، أدرك ذلك حينما هجم عليه ثلاثة رجال عراة دخلوا عبر النوافذ، كانوا أقوياء مثل الشياطين، سرعان ما طرحوه أرضا بضربة واحدة، جثموا فوقه صارخين بوحشية، أمسك شاب مجنون عنقه ليكسره، ملقيا في وجهه نظرة لم ينسها طيلة حياته، مجنون آخر شرع يلوي قدمه ليحطمها، أطلق صرخة ألم شديدة، وأغمي عليه للحظات وجيزة، استعاد وعيه حين تحررت قدماه من الضغط، ثم تحرر جسده كله، تلون جسده بدماء ليست دمائه، رأى المجنون الذي يمسك عنقه يسقط جانبا، سمع صوت حيوان غاضب أخذ يهاجمهم بسرعة خاطفة، كان صوت صليل السلسلة الحديدية مسموعا، ثم بشكل مفاجئ قفز الحيوان الأسود من النافذة المحطمة وهو ينبح بضراوة، مخلفا العراة الثلاثة غارقين في الدماء، بدت أعناقهم مفتوحة دامية، وأجسادهم ترجف كأنما أصيبوا بضربة برق، قبل بضع سنين شاهد أحد القرويين حين أصيب بصعق البرق، رآه من النافذة يرجف محتضرا قبل أن تأتي أمه صارخة برعب لتسحبه بعيدا عن النافذة، لأجل ذلك خطر له أن يسمي الكلب برق بسبب هجومه الخاطف، وليس بفعل الرجفة التي يحدثها

البرق، اسم حتروش يشبه أسماء العفاريت أو الشياطين، لم يعد لائقا له، فالأحوال تغيرت جذريا، وكذلك الأسماء والأفعال يجب أن تتغير، صار جليا أن اللغة نفسها صارت مهددة بالانقراض، لا أحد غيره بوسعه أن يتكلم، بوسعه أن يخاطب كلبه برق، هل يستطيع إدراك كلامه؟ إنه أنيس خطير وعنيف للغاية، قضى على ثلاثة رجال عراة بسرعة خاطفة، هذا أمر بعيد عن التصديق! كان هذا الحيوان ذات يوم مغلولا في القرية يحرس المحاصيل، سمع أنه ذات يوم قطع السلسلة، ونهش أحد اللصوص في مؤخرته، لم ير أو يسمع أن كلبا نهش أحدا في حنجرته! ماذا جرى له؟ عرف أن الكلب كان بوسعه أن يقضم عنقه بسهولة، لحسن الحظ أنه لم يفعل، حبذ أن يكون صديقا له، هل يجب أن يخشاه أو يطمئن إليه بعد ما حدث؟

نهض متعثرا بسبب الألم الذي أصابه نتيجة الضغط المفرط على قدمه، خرج من النافذة بحذر، سمع النباح يأتي من الحقول، تقدم بين النباتات، هاله أن يجد ست جثث أخرى متناثرة في طريقه، امرأة عارية وأطفالا عرايا متفاوتي الأعمار، أعناقهم منهوشة ممزقة، لمح الكلب يشرب من بركة ماء ملوثة ببعض الدماء، تكونت بفعل ينبوع صغير يخرج من حائط صخري عند مؤخرة ذلك الحقل، انكب على الماء وشرب غير مكترث بالتلوث والدماء التي خلفتها أسنان الحيوان الضاري، وحين ارتوى رفع رأسه وقال مخاطبا الكلب: "أنا رعد وأنت برق، أليس جيدا أن نستعير أسماءنا من السماء ونشكل تحالفا وثيقا؟ "

كان قصب الذرة الشامية مكومة في بعض الحقول، أوراقها مأكولة، وأكواز الذرة خالية من الحبوب، كذلك وجد بعض الفاصوليا الخضراء، وحقل ذرة ظل بعيدا عن العبث، أكل الفتى بعض الأكواز الطرية، حتى شعر بالشبع، لمح حفرة كبيرة قرب الحقول، فكر في دفن جثث المجانين، قبل أن تصبح جيفا تبعث روائح نتنة، ومن ثم تجلب النسور والحيوانات المفترسة كالضباع والنمور وأسود الجبال، وربما تجلب المجانين العراة أنفسهم حين يرون الطيور محلقة في الجو، سيأتون بأعداد كبيرة من القرى المجاورة، ومن ثم ينزعون منه الحقول ويعطبون ينبوع الماء، هداه عقله إلى ذلك، وإلى أن بقاءه قرب حقول خضراء وينبوع ماء يعوزه بعض النظام والتكتم، سحب الثلاثة الرجال الذين هاجموه، أخرجهم من النافذة واحدا تلو الآخر، وقادهم إلى قرب الحفرة، ثم سحب الجثث الأخرى المتناثرة في الخارج، كان الكلب يقتات على جسد أحد الأولاد، وقف مذهولا، تذكر أن برق صار حيوانا مفترسا، لا يعقل أن يشاركه في أكل ثمار الذرة، هناك أعمال كثيرة في انتظاره قبل أن يحل الظلام، أهمها هو التخلص من القتلى قبل أن تفوح روائحهم، إضافة إلى استكشاف ما يحتويه المنزل من مقومات العيش، لفت انتباهه شيء ما، رفع بصره للأعلى، رأى نسرا يحلق في السماء، أسرع حاملا مجرفة التراب التي عثر عليها قرب أحد الحقول، ذهب نحو الحفرة ليدفن الجثث، وجد الكلب أمام الأجساد الخامدة واقفا بمواجهته متنمرا مكشرا، كأنه يدافع عن فرائسه، أشار إلى الشِّعب في الأعلى، حيث حطت ثلاثة نسور منتظرة للوليمة، وقال يخاطب كلبه

بصوت حاد: "برق، انظر، هذه الطيور البغيضة سوف تجلب الضباع والعراة"

استمر واقفا يحرس الجثث، متأهبا للذود عنها بأنيابه الحادة، لم يفهم ما يشغل رفيقه الجديد، وهذا أمر طبيعي لم يستطع الفتى استيعابه، أضاف رعد بغيظ:

"سوف يقتلنا العراة يا برق"

ربض الكلب وكأن الأمر لا يعنيه، اضطر الفتى أن يجلس بيأس إلى جواره، نظر إلى الحيوان الكبير متأملا، تلوح بضع جروح على أطرافه ورأسه، عينه الشمال مغلقة قليلا بفعل ضربة أصابت عظام الجمجمة بمحاذاة الجفن، بينما حفر حديد السلسلة دائرة حول عنقه، لا تكاد تظهر وسط فروه الكثيف، لكنها تبدو ممتدة إلى جانبه، تعوقه عن السير، وأحيانا تعلق بالأشجار، فكر رعد، سرعان ما مد كفه محاولا الإمساك بها، أطلق الكلب صوتا غاضبا، فأعاد كفه إلى موضعها، واتجه خائبا إلى المنزل.

أخذ يجمع بعض الأشياء الصالحة للاستخدام، مذياع صغير، مصباح يدوي، خنجر مزين المقبض، حاد النصل، سلاح ناري آلي، دثار صوفي، ومعطف عسكري ثقيل، كما اختار من المشجب سترة قاتمة متسخة، وكوت رمادي يغطيه الغبار، وبنطال كاكي طويل اضطر أن يطوي أكمامه، كان هناك غرفة جانبية موصدة بقفل كبير، عرف بيسر إن ذلك هو المخزن، لأن سكان القرى لا يضعون الأقفال سوى على المستودعات أو المخازن الهامة، حمل حجرا ضخما وأوشك أن يحطم الرتاج، ثم انتبه إلى أمر ما،

أرجع يده من الهواء حين تذكر أن القفل تذكار جميل يجب أن يحتفظ به للأجيال القادمة، ليدركوا ما كان يصنعه آباؤهم البشر من أشياء نافعة، اعتزم ألا يستخدم أي شيء سوى عند الضرورة، باستثناء السلاح الناري الذي سيساعده في الذود عن نفسه، لن يستعمل بقية الأدوات لأن تلك الأشياء قابلة للزوال ولن تدوم طويلا، فالمذياع مثلا لا جدوى من استخدامه، لأن طاقة بطارياته سوف تنفد، كذلك المصباح اليدوي، فتش عن المفتاح في الكوات والزوايا المواربة، كان يدرك أن الناس يخفون مفاتيحهم الهامة في الأماكن غير المتوقعة، وجده أخيرا داخل حذاء تالف مرمي في الدهليز، في المخزن عثر على كمية كبيرة من الحبوب داخل براميل من الحديد، كتب عليها ألفاظ تدل على ما تحويه، قمح، شعير، فاصوليا، عدس، "بذور"، إضافة إلى أدوات زراعية كالمعاول والرفوش والمجارف، لفّات عديدة من أنابيب الري المطاطية، ألواح خشبية ومسامير، بضع اسطوانات ممتلئة بالغاز المنزلي، كراتين من التمور، بضع صفائح من السمن، أكياس من الطحين والبهارات المتنوعة والمكسرات كالجوز واللوز والزبيب، كراتين تحوي علب حليب سائل، كيس كبير من مسحوق الحليب المجفف، كيس أرز، وآخر سكر، لحما مجففا في وعاء ضخم، مئونة غذائية كاملة، مستلزمات منزلية أخرى، أطباق، صحون، كؤوس زجاجية، قدور كبيرة، كرتون صابون جسم، كيس صابون غسيل بالحجم العملاق، حتى علب الثقاب متوفرة في كيس كبير، قطع متنوعة من الأسلحة، صناديق ذخائر مخصصة لكل سلاح، جُعَب وأشرطة ممتلئة بالرصاص، منظار عسكري، قنابل، فُرُش، بطاطين، أشياء كثيرة من المستلزمات يطول

شرحها، وأخيرا صندوقا حديديا كبيرا مغلقا بقفل ضخم، بحث عن هذا المفتاح حتى رآه داخل جيب جلدي معلق على مشجب، حين فتح الصندوق وجد أربعة صناديق متوسطة الحجم، كانت مفاتيحها معلقة عليها، أحدها ممتلئ بالنقود الورقية، وآخر يحوي كوما كبيرا من الحلي الذهبية المتنوعة، وثالث في داخله وثائق ملكية الحقول وغيرها من عقود الزواج للعائلة، فكر الفتى أن يقرأ اسم هذه العائلة الشهيرة، ويطلع على أسرارها العائلية، وعقود بيعها وشرائها، لكنه نحى الفكرة جانبا، وانتقل إلى الصندوق الرابع والأخير ، وجده يحوي ثلاث رزم من الأوراق مكتوبة بخط اليد، وقصاصة ورق ظاهرة كتب عليها بخط نميم: "لا تقرؤون هذه القصص الثلاث حتى توافقوا أن تعيشوا سواء بسواء مع جميع الكائنات بدون مساكن أو قصور، وأن تبتعدوا عن فكرة الإيمان بأي إله أو شيطان أو فكرة مهما بدت لكم سامية، وألا تكرروا ما فعلناه في الأرض، إذا وجدتم المال والذهب فضعوه بعيدا عن أيديكم لأن لا أهمية له، أما كتب السحر، وكتب الدين فلا تفتحوها مطلقا، دعوها في صناديق مقفلة للفرجة وحسب، ارقصوا وامرحوا احتفالا بجمال الحياة، وهذا كل شيء، بوسعكم قراءة هذه القصص لتكتشفوا ما حدث سابقا في زمن الشياطين والعقل المؤمن الخبيث، أظن أن أول شخص سوف يعثر عليها يتحتم أن يكون شخصا قويا جلدا ليتحمل الكثير من العناء، أو ذكيا بما يكفي ليؤسس قواعد مختلفة، لا يجب على أي شخص يعثر على هذه القصة أن يتصفحها وهو بين الجدران أو مرتديا ثيابا، لأنه لن يستوعب شيئا من مغزاها، لن يحس بالمتعة حتى يطالعها في العراء تحت النجوم، هناك حيوان شرس سوف

يقف في طريقك متظاهرا أنه يذود عنك، سيدافع عنك إلى آخر لحظة من عمرك، وهو في ذلك يدافع عن نفسه، سيحاول أن يمنعك عن الاقتراب من النساء حتى لا تنشئ جيلا من العقول النشطة، سوف يرعبكم هذا الشيطان، إن شئتم التخلص منه، فإياكم أن تؤمنوا به، بوسعكم أن تمنعوه عنكم بواسطة تعويذة في الباب السابع من كتاب التعاويذ، ستجدون عددا من الدوائر السحرية، انقشوها على ورقة أو جلد حيوان، وعلقوها على أعناقكم، بخصوص الكتب الأخرى، فإنها لم تعد تعمل، ولا أهمية لها، في النهاية، ستجدون بعض كتب السحر تحت شجرة عملاقة مذكورة في المخطوط، احرقوها ثم ارموا تمائمكم بعيدا، وعيشوا وذريتكم بسلام"

ضحك رعد لأول مرة، ما هذا الكلام المجنون؟! لماذا يخاطبه بصيغة الجمع؟! سأل نفسه بعجب، ليس هناك أحد غيره سليم العقل في المنزل، وهو على كل حال يكره القراءة رغم فضوله الشديد لاستكشاف محتوى المخطوط، إنه ببساطة مشتت الذهن، يفكر في نفسه وما يجري من حوله، أعاد إقفال الصناديق، متعجبا من هذه المزحة السمجة، أحس بالفرح والقلق في آن، هو سعيد لأن لديه مؤن كافية ليعيش مدة طويلة في هناء ودعة، كما يشعر بالقلق أن يطرد من هذا المكان الخصب، يخشى أن يداهمه العراة المجانين المنتشرون حول الجبل، مازالوا يجوبون القرى والشعاب القريبة باحثين عما يؤكل، وهذا الكلب الأحمق يود أن يحتفظ بالجثث التي سوف تجذب الأنظار إلى المكان بواسطة النسور والروائح، أيكون هو الحيوان الأليف الذي تحدث عنه كاتب تلك السطور الركيكة؟

استبد الغضب بالفتى بفعل جهله وحيرته، لا يجرؤ أن يضيء المصباح اليدوي سوى في المخزن، لا ينوي أن يستعمله هذه الليلة، سيقوم ببعض الإجراءات اليائسة، سيغلق النوافذ المحطمة بألواح الخشب، ليمنع أي كائن من الوصول إلى مكانه، سيعيد ترتيب بيت النار ليطهي لنفسه بعض الوجبات الساخنة، سيفعل ذلك بتقشف شديد، كان الغروب يقترب، سد الفتى النوافذ بالألواح مستغلا بقايا الضوء، شرعت النسور تبتعد يائسة إلى أوكارها، مال إلى بيت النار، وبعد أن نظفه من الفوضى والغبار، طهي شيئا للأكل، ثم سار في العتمة باتجاه كلبه الذي يحرس الجثث، لم يستعمل المصباح حتى لا يلفت الأنظار، اقترب ماشيا باطمئنان وحذر، نبح الكلب بقوة، وهجم عليه بضراوة، فاغرا فاه على اتساعه، رماه أرضا، ووقف فوق صدره محاولا الوصول إلى عنقه، لكن الفتى أخذ غريزيا يحمي عنقه بذراعه صائحا بذعر:

" برق، أنا رعد، حتروش، ماذا جرى لك؟"

رفع الكلب رأسه ناثرا على وجه الفتى دفقا من اللعاب، ثم انسحب بتثاقل عائدا إلى حراسة وليمته، نهض رعد بجسد راجف، سار متأثرا نحو المنزل، ساقاه يصطكان كالأسنان، خلع ملابسه الغريبة التي ارتداها، واستلقى على فراش متهالك متدثرا بغطاء صوفي تفوح منه رائحة العفونة، فكر أن أنياب الكلب القاطعة كانت قريبة من عنقه، شعر بألم يدغدغ ساعده، وبسائل لزج يسيل منه، أضاء المصباح اليدوي فاحصا جسده، وجد أربعة خدوش عميقة وسط لحم معصمه، كان الدم يقطر منها، قام إلى الحمام المهمل، غسل الجروح، وجد على رف إحدى الغرف زجاجة عطر نسائي رخيص،

سكب رشة منه على الخدوش، اصطبر على الألم الذي انتابه، لف الموضع المجروح بقماش أبيض متمنيا ألا يصاب بالسعار أو داء الكلب أو أي مضاعفات أخرى، لقد رأى برق يأكل من إحدى الجثث، ويخشى أن ينقل إليه عدوى أو مرضا ما، ومن ثم يموت في ذلك المكان المعزول، لم يعد بحاجة إلى هذا الحيوان الأحمق الخطير، صار يملك قطعا من السلاح الناري، لحسن الحظ أن خاله مانع دربه على شحن السلاح والتصويب على الأهداف البعيدة، لم يدرك أن ذلك التصريح اللعين يوم زفاف خالته بدور، سوف يحيل حياته إلى جحيم، لقد قال الحقيقة: " أنا غير مختطف" لماذا غضب والده من قضائه يوما وحيدا في منزل جده ناصر بمعية أمه وأقاربها؟ إنها ألاعيب الحياة، تدير كل شيء من أجل غاية محدودة! حتى ليبدو أن ابتعاد والدته عنه بمثابة تدريب قاسٍ ليكون مؤهلا ليتحمل هذا الشقاء الذي يعانيه في تلك اللحظة، لقد حبسه والده في القبو لكي لا يحضر زفاف خالته ويقابل أمه، ولم يخرجه من القبو سوى المجانين العراة، هل بقاؤه في القبو أنقذه من الجنون؟ ما الغاية من خروجه إلى هذا المكان الموحش الذي يخلو من شخص عاقل يحاوره؟! لا يهم، لم يكن الناس قبل جنونهم يستخدمون عقولهم بشكل سليم حتى يتحسر عليهم، كانوا يفكرون بأمور كثيرة شريرة، ولا يختلفون شيئا عن المجانين العراة، هل حدث هذا محض المصادفة، أم أن الحياة صرفت له دروسا مجانية مرهقة ليجتاز هذا الامتحان العسير؟ والده أجبره على العمل في الحقول، وامرأته أرغمته على القيام بأعمال المنزل بدلا عنها، هل كانا يدركان أنه سوف يصبح وحيدا في منزل معزول تحيط به حقول خصبة يعوزها كثير

من العمل لتنتج الغلال؟ خاله دربه على السلاح الناري، وكأنه كان يدرك أنه في يوم من الأيام سيقابل رجالا مجانين عراة وكلبا شرسا يهدد حياته بالفناء و...

استيقظ عند شروق الشمس، فتح باب المنزل بحذر، وخرج عاريا حاملا سلاحا ناريا، مد بصره إلى جميع الجهات مراقبا حدود منطقته، رأى النسور على المنحدر، تتقافز في رقصات قصيرة حذرة، تتقدم ببطء نحو الجثث، يقودها نسر ضخم عجوز ذو خبرة وتصميم، زاد صخبها منذرة حارس الجيف بالابتعاد، نسور أخرى تتوافد مصوبة أقدامها للأسفل، ما إن تلامس الأرض حتى تخفق أجنحتها بمهابة غريبة، أصبح المنحدر غاصا بالطيور الكبيرة المهيبة، بيد أن الكلب الشرس ظل مكشرا معترضا طريقها، أضحت عيناه تلمعان بشكل مخيف، وترشقان الزائرين المزعجين بنظرات نارية، أدرك رعد أن ضجيج النسور ونباح الكلب سيلفتان الانتباه، لن يتراجع الطرفان بسهولة، جلب بعض اللحم المجفف، واقترب من ساحة الصراع متسللا، ظهر أخيرا مطلقا صفيرا مألوفا، وقال:

"برق، حصتك من اللحم"

هجم الكلب عليه بلا تردد، ألقى الفتى ساقيه للريح، وأوصد الباب خلفه، ظل يلهث منفعلا، شحن سلاحه الناري، وصعد السُلم الصغير الذي يقود إلى السطح، رأى الكلب يأكل اللحم المدخن، والنسور تتصارع على الجثث زاعقة بصوت مزعج، ليس بوسعه أن يمنعها عن الضجيج، فكر باغتمام، أدار بصره في أرجاء الجبل مراقبا المنحدرات، شعر بالضياع والحنق

الشديد، إنه محاصر في هذا المكان البغيض، رمق الكلب بنظرة مقت، مازال يأكل بلا مبالاة موليا ظهره ناحيته. نزل إلى المخزن، لف جسده بالجُعب وشريط طويل من الرصاص الأصفر، سيقاتل، هكذا قرر، الكلب يملك أنيابا قاطعه، وهو يملك سلاحا ناريا، خرج منحنيا مصوبا سلاحه، لم يجد الحيوان في ذلك الموضع، رأى بقايا العظام على التراب وحسب.

حرب السبتية

أوصد باب المنزل، واتجه إلى التل مغالبا حرقة ألم في صدره، كان البشر رغم قسوتهم يضفون على الحياة كثيرا من الحيوية والأنس، غدت البقاع كلها موحشة، عند أسفل التل شعر بشيء يتحرك خلفه، التفت بفزع، رأى الكلب، حملق إليه بخوف، امسك سلاحه دون شعور، كشّر الكلب محذرا، أعاد كفه إلى جانبه بيأس، وقف الحيوان مطلقا لهاثه المألوف كأن شيئا لم يحدث، تأمله بضيق، ماذا يريد منه؟ ألا يدعه وشأنه، لا يستطيع أن يزجره وينهاه عن رفقته، لن يفهم شيئا، هو مجرد كلب غبي، ليس شيطانا كما يدعي كاتب تلك الأوراق البغيضة، لو كان كذلك لأدرك أن البقاء قرب الجثث سيعرضهما للخطر، فكر بسخط، أطلق الكلب حنينا غاضبا من جواره، لم يكن هناك خطر في الجوار، التفت إليه بعجب، كان ينظر إليه متنمرا، هل يفهم ما يجول في نفسه؟ سأل نفسه بارتياب. قال أخيرا بتأثر:

"ليس لي أحد غيرك يا برق، أرجو أن تكون رفيقا جيدا"

حرك الكلب رأسه بأناة، وأطلق عواءً خافتا، وكأنه يوافقه الرأي، اقترب الفتى من التجويف دون رغبة، لقد تحرر من ذلك التعليم البائس الذي كانوا يقدمونه له بهدف الترقي في الصفوف وحسب، لم يشعر بأي فائدة تذكر، لم يحب المدرسة يوما، كانت الدروس مملة يغلب عليها الطابع الديني والتقليدي، حتى معلمو المواد العلمية كانوا يحدثونهم عن الصلاة واليوم الآخر أكثر من معلم الدين، مادة القراءة تعج بالأناشيد والدروس

المضجرة عن أصحاب وأقارب النبي، يطلبون منك أن تحفظ كل نشيد، والسور القرآنية يجب أن تُحفظ، التحفيظ أسوأ الأمور التي تواجه التلاميذ، ما يحفظ يتم نسيانه في العام المقبل، لم يدرك بما يكنه من حقد على التعليم سوى الآن، أخرج كتبه ودفاتره المدرسية من الحقيبة، ثم نزع الأوراق المكتوبة من الدفاتر، وطمس أسماء المواد عن أغلفتها، وأعادها إلى الحقيبة، قذفها في التجويف مزمعا أن يعود إلى دفاتره الفارغة لاحقا، بينما أشعل النار في الكتب والأوراق المكتوبة، تنهد بارتياح وهو يرى ألسنة اللهب ترتفع، شعر بخفة وراحة عجيبة في نفسه، القراءة أسوأ الأعمال على الإطلاق، لاسيما قراءة هذه الكتب التي تحترق، هكذا فكر وهو يحرق كتبه المدرسية، لكنه لاحظ هياج الكلب وغضبه، كان يتأمله بتنمر غريب، أنا أحرق كتبي وأوراقي! ماذا دهاه؟ سأل نفسه بعجب، هذا الحيوان الغريب الأطوار يكاد يفطر قلبه بتصرفاته المريبة، هل يطلق عليه النار؟ سأل نفسه، ثم انطلق شاقا طريقه سالكا الطريق الذي أتى منه من قبل، لا يدرك شيئا عما يريده من ذهابه إلى القرية، لديه هدف دون شك مختبئ في ذهنه، نبح الكلب فجأة، مهرولا بعيدا عنه، لم ير رعد شيئا، ركض خلفه مسرعا، ماذا هناك أيها الكلب المجنون؟ صاح بحنق. حين وصل إليه كان يقضم حنجرة امرأة عارية، عرفها في الحال، امرأة أبيه القاسية، صرف بصره عن جسدها المكشوف، رأى الحيوان يهرول ثانية هابطا صوب عدد آخر من العراة يصعدون بمثابرة، كان المنحدر يغص بالمجانين الذين يركضون شاخصين إلى الأعلى، شامين الهواء بجشع كأنما يجذبهم شيء ما، نهش الكلب ثلاثة رجال منهم، ثم ابتعد عاويا مترنحا، أصيبت قدمه بضربة

حجر سددها له رجل ضخم من العراة، عرف أنه من الهالكين ما لم يهرب أو يقوم بإبعادهم عنه، سوف ينهبون حقوله، ويفسدون المياه كما فعلوا في قريتهم، وقف مترددا للحظات، شحن سلاحه الناري، وقرر أن يزجرهم عن الصعود، سيهربون حين يسمعون صوت الرصاص، لا يحبذ أن يصيبهم، القتل أمر رهيب لا يجرؤ على فعله، إنهم بشر رغم أنهم مجرد عراة مجانين، وهذا يخيفه، إن إطلاق النار على حيوان يسير على أربع أيسر من قتل بشري يركض على قدمين، مع أن الفروق تلاشت بين البشر والحيوانات، صاروا سواء بسواء.. لا يهم، هل يصوب على أجسادهم؟ لا متسع للتفكير في هذا الشأن، دار ذلك في ذهنه بسرعة خاطفة، أطلق النار في الهواء محذرا، لكنهم لم يتراجعوا، صب الرصاص أمامهم دون جدوى، كانوا يسرعون إليه كالشياطين، اقتربت منه المجموعة الأولى من العراة بشكل خطير، أضحوا على بعد بضعة أمتار منه، كانوا يدمدمون بأصوات حيوانية غاضبة كأنها تخرج من صدورهم، أفرغ ما بقي من الرصاص في أجسادهم، سقط معظم المهاجمين على الأرض، أتى آخرون، اندفع ناحيته أربعة أشخاص، استدار لكي يفر، ما إن قطع بضع خطوات باتجاه رفيقه برق، حتى دفعه أحدهم بضربة واحدة من كفيه الخشنين، انتهى به المطاف طريحا على وجهه، ساعدت خفة وزنه ونحوله على تخفيف أضرار اصطدامه بالأرض عند سقوطه، لكنه غاب عن الوعي مدة من الزمن، أفاق بفعل نقرة حادة أصابت قمة خده الأيمن، فتح عينيه متألما، كل ما رآه هو أجنحه وأعناق طويلة ومخالب بارزة، طيور ضخمة، أو بالأحرى نسور تتطلع إلى جسده بجشع، بدت أعناقها الطويلة محنية باتجاهه

ومناقيرها متأهبة لالتهامه في ثوانٍ معدودات، سمع صخبها وهي تتصارع، أضخمها واقفا فوقه تكاد مخالبه تخترق جلد ظهره، وهو الذي نقره في وجهه ليتأكد من موته على ما يبدو، هب مفزوعا صارخا بصوت باكٍ مبرهنا على حياته، هربت الطيور هابطة أسفل المنحدر، كاشفة عن أربعة هياكل عظمية مازالت طرية لامعة مكشوطة اللحم حديثا، رأى الكلب برق رابضا في مكان قريب يتثاءب كأن الأمر لا يعنيه، فمه ملوث بالدم كالعادة، أخذ سلاحه المرمي على الأرض، واقترب من الحيوان قائلا:

"دعنا نذهب يا برق "

أحس باحتراق جلده العاري بفعل أشعة الشمس، قدّر أن الظهيرة توشك على الحلول، تابع طريقه وسط بقايا جثث العراة المنتشرة على الدرب، عشرات النسور في المكان، وليمة دسمة أتيح لهذه الطيور أن تنالها بعد نفوق معظم الحيوانات الأليفة، بوسع كل طائر أن ينفرد بجثة، بيد أنها تزدحم حول بضع جثث، ثم تنتقل إلى أخرى في ترتيب دقيق محكم، كأنها تسير وفق قواعد واضحة أو تقاليد عريقة، ذلك الازدحام والصخب والصراع على الجيف يبدو مثل طقس اجتماعي أكثر منه جشعا وجوعا، لمس الفتى بطرف سبابته موضع النقرة تحت عينه، ثمة خدش صغير مازال يؤلمه، شعر بخدوش أخرى حفرتها بمخالب النسر الجريء على ظهره، لا يستطيع أن يلمسها أو يراها، أعظم ضرر أصابه أتى من الضربة التي تلقاها من اليدين الخشنتين، لم تكن ضربة مقصودة، لقد اصطدمت به أصابع الرجل العاري الذي أراد أن يمسك به، فشعر أن سيارة مسرعة صدمت جسده، لا شك أنهم يملكون قوة عجيبة، نظر إلى كلبه برق بمزيد من

الارتياب والدهشة، يستطيع أن يجزم أن عدد العراة المسحوقين يربو عن مائة فرد، رجالا ونساء وأطفالا، جميعهم أعناقهم ممزقة، أكلت النسور ملامحهم، إنهم أهالي قريته دون شك، وجد والده مرميا في نهاية المنحدر، مازال وجهه سليما، طرد الطيور عنه، وقف يتأمله بتأثر، لم يحزن حقيقة، كان مجرد انفعال وغضب، اتجه إلى القرية يتبعه برق مثل ظله، نبح الكلب فجأة وهرول في زقاق صغير، تبعه رعد قائلا بتذمر: "ماذا دهاك؟ أنت تسير بعيدا، لا يوجد سوى المسجد" بدا المعبد مفتوحا خاويا ملوثا بفضلات العراة، المصاحف ممزقة ملقاة على الأرض، كذلك المجلدات الدينية لكبار فقهاء المذاهب الإسلامية، إضافة إلى صحيحي البُخاري ومسلم، أحس بشيء من الأسف والرهبة والحرج أيضا، إنه في بيت الله المقدس عاري الجسد، سد أنفه من الروائح الكريهة، رأى الكلب يأكل الفضلات، ويلعق البسط والسجاجيد الملوثة كأنه يروم أن ينظفها، في البداية، فكر أن يطرد الحيوان من المعبد كما كان الناس يفعلون، فكر أن يزيل القذارة ويرفع المصاحف الكريمة إلى الرفوف، تراجع ضاحكا على نفسه بيأس، ماذا يغني ذلك؟ أي قيمة يجلبها انتشال هذه الكتب من القذارة؟ لم يعد هناك مؤمنون في القرية، حتى الرب لا أثر له في بيته الشريف الذي غدا قذرا أكثر من أي مكان آخر، ثلاثة مساجد هنا، معظمها بنيت على نفقة جمعية خيرية أو ما شابه، الأكبر حجما يقع على مدخل القرية، تم تشييده قبل سنوات على نفقة فاعل خير، من أجل صلوات الجُمَع والأعياد، المسجد القديم يرتاده قليل من كبار السن، والغالبية انقسموا بين المسجدين، حبذوا أن يستمتعوا بمنظر الثريات والزخارف والمحاريب الحديثة والمنابر

المهيبة، أما المدرسة التي شيدت بعيدا عن القرية منذ ثلاثين عاما، فقد أمست متهالكة، لم ترمم أو يتم توسعتها، صفوفها مكتظة بالتلاميذ، لا يهم، كل شيء صار هدرا، المدارس والمعابد، قال مخاطبا الكلب بتهكم: "أنت حيوان مؤمن حقا، ليحفظك الله يا مولانا برق" أتى الكلب هازا ذيله، أخذ يتمسح بساقية بتودد لأول مرة كأنما راقه الإطراء، تجاهله، وخرج محبطا، دار بين المنازل باحثا عن ناجين، لم يجد هدفا حقيقيا يرجوه من هذا الأمر، بدا السكون مرعبا، شعر للوهلة الأولى أن العيش هنا أضحى محالا، مازالت أنفاس السكان وأصواتهم تحيط بالمساكن، كأنما تركوا أطيافهم وخيالاتهم خلفهم ورحلوا، أمست الأشجار مأكولة عارية تماما من الأوراق كأنما حل فصل الخريف، بدت المنازل من الداخل في حال من الفوضى، غبار الطحين وبقايا من الحبوب تغطي الفرش والسجاجيد والأرضيات، يبدو أن العراة صبوا جنونهم على الأثاث والمقتنيات باحثين عما يأكلونه، حتى أحالوا مساكنهم إلى ركام متناثر من الأدوات والمقتنيات الخاصة، الجدران تضررت كذلك، النوافذ والأبواب محطمة مشرعة للريح والغبار والحشرات والزواحف، العناكب نشرت خيوطها في الزوايا، الخفافيش تنام متدلية على أخشاب السقوف، تعجب رعد أن تشيخ المنازل في يومين وحسب، كان يدرك إن البيوت حين تهجر تتسلل إليها الكائنات الصغيرة والزواحف بسرعة لتنخرها من أساساتها وسقوفها، فتصبح ملكا للسوس والفئران والبوم وشجيرات التين الشوكي، غير أن ما يراه من المحال أن يجري في يومين! لا يوجد في البيوت شيء غير تالف، أي طعام سوف يتعفن في ذلك الجو المقفر، وابتلاعه يعني تسمما غذائيا، قرأ شيئا كهذا في مادة

العلوم، الفئران الصغيرة تأكل كل الأطعمة المتعفنة دون أن تصاب بسوء، كذلك الأهالي العراة اتسعت شهيتهم بعد أن فقدوا عقولهم، أكلوا كل شيء، سطوا على المخازن، التهموا الغلال المخزونة، ابتلعوا الطحين وكل شيء سليم أو متعفن من الطعام، حين فرغوا وضعوا فضلاتهم في كل مكان دون خجل، كما يبدو أنهم أكلوا الحيوانات والجيف وأوراق الشجر والنباتات، ثم إن أولئك الشرهين شموا رائحة الجثث في الجبل أو شاهدوا النسور تحوم هناك، ولولا الكلب كانوا سطوا على حقوله ونهبوا مخزن المؤن، ندم أنه لم يجلب شيئا من الغذاء والماء، لعله خاف أن يهاجمه العراة وينتزعون منه الطعام، أو يتعقبون آثاره حتى يكتشفون مأواه الجديد.

دفعه الجوع أن ينتبه إلى الدكان الوحيد في القرية، وجده موصدا بقفل حديدي كبير، دخل المنزل المجاور باحثا عن المفاتيح، رأى محتوياته موزعة على الأرضيات، بحيث يصعب على المرء أن يجد موضعا يضع فيه قدميه، عاد غاضبا إلى الباب المقفل، وضرب القفل بحجر ثقيل، ودخل إلى الدكان، جلس على كرسي العم ناصر صاحب الدكان، تصور مقدار فزعه وغضبه فيما لو رآه جالسا على مقعده يأكل البسكويت، فتح علبة تونا وقدمها للكلب، شمها وحسب، فكر الفتى أن الحيوان ملأ معدته من لحوم الأهالي قبل النسور، يجب أن يتخلص من هذا الكلب المزعج، بزغت في رأسه خطة تبدو شيطانية، تردد قبل أن يفتح درج النقود ويأخذ رزمة من المال يبدو أن العم ناصر - قبل أن يجن - ربطها ليبتاع بضاعة من المدينة، كما اختطف قطعة صابون النسيم من الرف، ورمق الحيوان متبسما بمكر،

خرج من الدكان متجها إلى مصب الوادي حيث حوض الماء، أحس بتوق شديد لزيارة أمه وجده ناصر وأخواله، لديه فسحة من الحرية والفراغ، لا يجوز أن يذهب بهذا العري، سيبحث عن شيء لائق أو غير لائقٍ من الثياب ليستر جسده، لا يهم، يستطيع أن يعيش في بيت جده، ويدع الكلب المزعج يعود إلى الجبل أو يذهب حيث يشاء، لم يعد بحاجة إلى مؤانسته، ليس مجنونا ليأخذه معه، لن يتوقعوا حضوره على كل حال، سوف يندهشون وينزعجون حين يرونه قادما، وربما يصرخون في وجهه طالبين منه العودة إلى منزل أبيه على الفور، لأنهم يخشون أن يتورطوا بالمشاكل مع والده الغشوم، سيخبرهم أن أهالي قرية نجد مدر أصيبوا بالجنون أثناء احتجازه في القبو، لن يصدقوا حين يسمعون أن سكان القرية يسيرون عراة، وأن كلبه الشرس قضم أعناقهم، لا يهم، سيأخذهم إلى هنا ليتأكدوا أن الأهالي هلكوا في الجبل، حين وصل إلى مصب الوادي وجد أحواض الماء مدمرة، والبئر مردوم بالأحجار، كان الفلاحون فيما مضى يحجزون ماء العين في الأحواض، بحيث يسقون زرعهم حين تكون المياه دافقة، أما حين تشح فإنهم يرسلونها إلى منازلهم عبر مواسير من الحديد، ويكتفون بذلك، الآن صارت المواسير محطمة أيضا، حطم المجانين المكان في خضم تنافسهم وصراعهم للحصول على الماء، الوادي الأخضر صار مجردا من الزرع، برزت أعقاب الذرة مقطوعة خالية من الأوراق والسنابل، وضع رعد أنبوب الماء البلاستيكي في مكانه السابق عند فوهة العين، وابتنى صفا من الأحجار حول الحوض، شرب الكلب مستخدما لسانه الطويل، وانتحى جانبا، لحسن الحظ، سكب الأنبوب في الحوض قليلا من الماء بما يكفي ليغسل

جسده، أصبح الماء أسود تغطيه رغوة بيضاء من الصابون، مضى إلى القرية منقبا عن شيء يلبسه، دخل منزل فلاح كان يعول عدد كبيرا من الفتيان، ظل ينقب بين الأثاث المتناثر المكوم وسط الزوايا والردهات، استطاع أن ينتشل قميصا وبنطالا ممزقين من الأطراف، لم يكترث مادامت مؤخرته لا تظهر، سار متحمسا إلى منزلهم، قفز فوق الركام باحثا عن مفاتيح سيارة والده الواقفة على الفناء، كان الكلب الخبيث يقفز خلفه، دار في الغرف وسط الفوضى والحيوان يتعقبه، خرج إلى الفناء شاعرا بالخيبة، اقترب من السيارة، متمنيا أن يجد المفتاح مثبتا على المقود، ألقى نظرة، لم يجد شيئا بالداخل، فكر أن يحطم الزجاج، انحنى ليأخذ حجرا، رأى المفتاح ملقى على الأرض في موضع قريب، شعر بفرح غامر، نبح الكلب ودار حوله بحماس، فتح باب السيارة، ومكث يفكر باغتمام، قرية أخواله بعيدة، وهو مضطر ليقود السيارة لأول مرة في حياته، كلما ركب سيارة يظل يراقب ما يفعله السائقون، لأجل ذلك ظل يساوره إحساس كبير أن بوسعه أن يقود سيارة معتمدا على ما رآه من تصرفاتهم، الآن أتيح له أن يجرب حظه في القيادة، أدار المفتاح بارتباك، أصدرت السيارة صوتا متقطعا، ثم انطفأت، ضغط على الدواسة الثالثة، وأعاد التشغيل، اشتغلت السيارة، راح يفكر في الخطوة التالية، نبح الكلب وظل يتحرك بهياج حول المركبة، لم يكترث له، ترك الزجاج موصدا، أمسك عصا ناقل السرعة، يريد أن يعود للخلف، قفزت السيارة للأمام، ضغط على الفرامل في الوقت المناسب، ظل ينقل العصا من ترس إلى آخر، حتى تحركت للوراء، أفلح في الاستدارة، ثم تقدم خارج الفناء غير آبه بمرآة الشق الأيمن

التي تحطمت على عمود البوابة، تمكن أن يقودها خارج القرية بسلام، يستطيع أن يقطع أكثر من عشرة كيلو متر للوصول إلى قرية السبتية، فكر في ذلك بعزم، لكنه شعر بالارتباك، بصعوبة الاستجابة حين يتحتم عليه أن ينقل السرعة بواسطة العصا، قدماه ثقيلتان على الدواسات، ويداه مشدودتان على المقود، عقله يعمل بتركيز شديد ما سبب له بعض الصداع، يحدق في الطريق معملا كل حواسه، قطع نصف المسافة دون مشاكل، وصل إلى جبل مرتفع يتوسطه طريق ترابي حلزوني وعر، توقف أسفل التل مشجعا نفسه على الصعود، فكر فيما ينبغي أن يتخذه من إجراء قبل أن يصعد، تذكر أن خاله رفع عصا صغيرة بطول شبر تقع على يمين العصا الكبيرة، دفع العصا الصغيرة للأعلى بصعوبة، يجب أن ينقل عصا السرعة، فكر إلى أي ترس ينقلها، أخيرا نقلها للمستوى الأدنى، ثم تقدم مناورا الحفر والأحجار البارزة، كان كل شيء يسير على ما يرام، حتى بلغ ممرا ضيقا يطل على انحدار صغير يقود إلى هوة رهيبة، سمع نباحا قويا، وجه بصره إلى المرآة بسرعة خاطفة، رأى كلبه برق يركض مسرعا خلف السيارة مثل صاروخ حراري، ارتبك بشدة، وضغط على دواسة البنزين دون وعي، مالت السيارة عن الطريق وتدحرجت على المنحدر، سقط الفتى من النافذة ليقع على فروع شجرة نابتة على حافة المرتفع الصخري، بينما اصطدمت السيارة بالفروع العليا وسبحت في الهواء، ركب رعد على فرع واقف في الهواء سرعان ما انثنى للأسفل، موشكا على الانفصال عن الشجرة، تمسك بفرع آخر قريب منه، وأخذ يصرخ طالبا النجدة، توقف عن الصراخ حين أدرك ألا أحد يسمعه، حين نظر أسفل

الهاوية، تقيأ البسكويت والعصير الذي أكله في دكان العم ناصر، كانت الفروع تتحرك، والريح تعصف بجسده، مد يده ليجذب بعض الفروع الصغيرة المجاورة، فسمع طقطقة خبيثة صدرت عنها، كف عن المحاولة، كلما فكر أنه في الهواء أو مال بصره نحو الأسفل، شعر بشيء من الدوار والغثيان، حبذ أن ينظر للأعلى، صارت الريح تهزه وتهدد استقراره على الفرع المائل المهزوز، سمع نباحا، تشاءم منه وصاح بملء الصوت:

"برق، هناك قرية في الجوار، أرجوك، اطلب المساعدة من القرويين"

ظهر رأس الحيوان في الأعلى، تفصلهما مترات، رأى كل منهما الآخر، نبح الكلب، صاح الفتى متوسلا:

"أنقذني يا برق، اذهب"

نبح الكلب، واختفى بعض الوقت، ثم عاد وهو يمسك بين أسنانه حبلا سميكا من النايلون، أدلاه إلى الأسفل، لكنه وقع بعيدا عن رعد الذي أصيب بالدهشة، صار يفكر كيف استطاع هذا الحيوان أن يدرك أن الحبل هو الأداة المناسبة لإنقاذه، بوسعه أن يتشبث بالفروع ويخاطر حتى يمسك به، وبالرغم من ذلك لا يستطيع أن يجزم إن كان الحبل مثبتا بشكل جيد، محال أن يصعد بواسطة حبل يمسكه كلب بين أسنانه، لكنه لا يملك أي خيار آخر، أخذ رعد يرمي يده إلى الفروع الأعلى، بعضها أصابتها السيارة عند سقوطها، وأمست ضعيفة، وقف على الفروع والأغصان المتضررة، مد كفه إلى الحبل، وجده مشدودا، هل يجازف بالركون إلى هذا الشيء؟ ربطه على فرع صلب، وتسلق مستعينا بالفروع

المحطمة والحبل المشدود حتى أمسك بحافة المرتفع، تابع الإمساك بالحبل، حتى وصل سالما إلى سطح المنحدر ثم إلى الطريق، استلقى على الأرض باكيا مرتجفا من الفرح والتأثر، التفت إلى كلبه الذي وقف على قائمتيه الخلفيتين فاتحا فكيه مدليا لسانه مطلقا اللهاث، قال بصوت متلعثم مفعما بالعرفان والخجل:

"آسف يا برق، لقد كنت أنانيا، لن أتركك مرة أخرى"

ظل يلهث ويلتقط أنفاسه بعض الوقت، جلس ماسحا دموعه متأملا كلبه، لمح طرف الحبل ملقى قربه، أردف زافرا بعجب:

"يعتريني الشك أن شيطانا يتلبس جسدك، لا يهم، أنت صديق مخلص"

أخذا يسيران على الجبل، لاحت قرية تقف على الطريق، منازلها كابية اللون، فكر رعد في المدة اللازمة التي تعوز الكلب ليجلب الحبل من القرية، قطع أفكاره صوت عواء كلب يبدو كما لو كان يتعرض للأذى، ظهر الكلب العاوي من المنعطف هاربا يطارده رجل عاري يركض بسرعة مخيفة، حين أمسكه كسر عنقه منهيا عواءه وصخبه، ثم رماه جانبا بشكل مفاجئ، وهاجمهما بشراسة مطلقا صوتا حادا، استقبل برق الرجل العاري الذي كان يبدو متأهبا للقتال، سقطا متقلبين على طريق السيارات، كل منهما متشبث بالآخر، استمرا يتقاتلان بعض الوقت حتى توقفا أخيرا، كان الرجل العاري جاثما فوق الكلب، ذعر رعد حين رأى الدم يسيل على وجه برق، ما لبث الحيوان أن انسل من تحت الرجل العاري مزهوا بانتصاره، احتاج الفتى لحظات قلائل ليكتشف بقلق أن الجنون وصل إلى ذلك الجبل

الشامخ الذي يحمل السبتية فوق إحدى هضابه، نبح الحيوان مهرولا باتجاه القرية، ركض الفتى وراءه خائفا أن يظل وحيدا، ومن ثم يصير هدفا سهلا للمخلوقات العارية، أطلق صفيره دون جدوى، ظهر المجانين راكضين على المنحدر القريب، رأى الكلب يطير إلى أعناقهم، ويطرحهم أرضا بسرعة خاطفة، بدا الأمر مشابها للقفزات الخيالية التي تحدث في الأحلام، توغلا في الجبل، أضحت السبتية قريبة، لاح العراة يهيمون في الشعاب المجاورة يطاردون الحيوانات، دخلوا بسلام إلى قرية كبيرة مربعة الشكل تقع فوق هضبة صغيرة، منازلها جميلة نوعا ما، لم يعترضهم أحد، اتجه للتو صوب منزل جده شاردا مغموما، كان يظن إن القرى الأخرى لم تصب بالجنون، بدت القرية خاوية من السكان، هادئة بشكل غريب، سار متحققا وسط الغرف المفتوحة، صعد إلى الطابق الثاني، لا أحد في المنزل، رأى صور العائلة محطمة الإطارات والزجاج، فوضى عارمة، وفضلات المجانين تملأ المكان، سد أنفه، ارتقى إلى السطح، حيث خزان مياه الشرب، كان محرزا بشكل جيد، فتح صنبور الماء، وشرب حتى ارتوى مستخدما راحتي يديه كوعاء، ترك الكلب يشرب بهذه الطريقة البدائية، ألقى نظرة إلى الخارج عبر السطوح، وقع بصره على سيارة خاله طارق التابعة للجيش واقفة على الباحة، إضافة إلى أربع سيارات أخرى مملوكة للأهالي، إحداها رافور رصاصية حديثة الموديل تلمع تحت ضوء الشمس، يملكها ابن زعيم القرية توفيق الجابر، رآها في المرة السابقة حين زار القرية، تأوه إعجابا وشغفا، وحسد صاحبها عليها، تمنى أن يملك مثلها، الآن أضحى مالكا لكل شيء مادي في المنطقة، لا قيمة الآن لأي شيء سوى الطعام والشراب

والسلاح، إن يستطيع توفير طعامه وشرابه يعد نفسه محظوظا، وإن تمكن من النجاة يكون بطلا، سلاحه والجعب وشريط الرصاص فقدها حين سقطت سيارة والده في الهاوية، لن يلمس السيارة الرصاصية دون أن يجيد القيادة، لا يدري أين بوسعه الحصول على وقود في حال نفد منه، هذا اليوم سيبيت في القرية ليطلع على حال أمه وجده وأقاربه وقريباته، هكذا عقد العزم، كان يخالجه إحساس مريع بشأنهم، غيابهم والفوضى التي يراها في منزلهم توحي بسوء لا يحبذ أن يفكر فيه، نزل من السطوح، قام بجولة فاحصة في الغرف، وجد مصباحا يدويا بين أكوام الأثاث، تردد قرب باب المخزن الذي لم يكن يجرؤ على الاقتراب منه، وجده مغلقا بالمزلاج فقط، تسلل الكلب خلفه إلى عتمة المخزن، لمعت عيناه بشكل لافت، ذعر الفتى حين رآه، صاح ممسكا على صدره زافرا الهواء من صدره:

"أووو، أخفتني يا برق، ظننتك في الخارج تحرس المنزل من العراة"

استدار الحيوان وخرج، تبعه بعد قليل حاملا سلاحا آليا وشريطا من الرصاص، عثر أيضا على قارورة عسل وبعض المكسرات والتمر تخص جده ناصر الذي كان يتناول شيئا منها في وقت مبكر من الصباح لتساعد جسده الهرم على مقاومة الأمراض، أخفاها في زاوية المخزن الذي قرر أن يتخذه مأوى له، لأنه المكان الوحيد الذي يخلو من القذارة والغبار، أوصد الباب بالمزلاج، ثم اقتحم المنازل المجاورة، وجد بعض المئونة في مخازن الفلاحين الموصدة، نقلها إلى مخزن جده بفرح، كما عثر على مفتاح سيارة الرافور في منزل زعيم القرية، التصقت به ثلاثة أزرار مستديرة لم يعرف الغرض منهما للوهلة الأولى، اقترب من السيارة الجميلة ليفتحها، لكن

المفتاح لم يستطع أن يدخل في ثقب الباب، فطن أنه للتشغيل وحسب، تأمل الأزرار الثلاثة بحيرة، رأى على أحدهما رمز قفل موصد إلى جانبه كلمة close، والآخر قفلا مفتوحا عليه كلمة open، اكتفى بذلك، تبسم حين فهم الغرض من الزرين، بوسع التعليم أن يكون مجديا في مثل هذه الظروف، ضغط زر الفتح، أصدرت السيارة صوتا، فتح الباب، لم يجد عصا السرعة الطويلة، وجد مكانها مقبضا على قاعدة صغيرة مستطيلة تحوي على بضع رموز متدرجة من أعلى إلى أسفل، قام بتشغيل السيارة بيسر، فتح الباب الأوسط ليصعد كلبه برق، جعل يسحب المقبض إلى كل رمز بالتوالي ويجرب تأثير ذلك على السيارة، في حين يضغط على دواستي البنزين والفرامل برفق، ما لبث أن اكتشف زر الحركة للأمام وزر الرجوع للوراء، أخذ يدور في الباحة مدربا نفسه على القيادة الحُرة، يروح للأمام ويؤوب للوراء محاولا الوصول إلى مرحلة القيادة السهلة، كانت الباحة متسعة ومستوية مربعة الشكل، نسي جوعه ومضى يتسلى بقيادة تلك المركبة الخفيفة، نبح كلبه بشكل مفاجئ، مصوبا بصره ناحية سطوح المنازل، كان العراة واقفين ينظرون إلى الباحة، أخذ الكلب يتحرك بهياج محاولا المروق، زجره رعد قائلا بهلع:

"توقف يا برق، إن عددهم كبير جدا، سيمزقوننا إلى أشلاء"

فتح الحيوان فكيه مبرزا أنيابه القاطعة، وانقض على رفيقه ليمزق عنقه، قفز الفتى إلى الخارج بغضب، صاح العراة بصوت حيواني فظيع حين رأوه، نزلوا عبر الجدران كالسحالي، كانت سرعتهم عجيبة، فتح الباب للكلب، وقفز إلى أمام عجلة القيادة، أدار السيارة، وقادها بسرعة جنونية في

الباحة، اصطدم ببعض المهاجمين، قفز آخرون فوق السيارة، حتى انثنى سطحها، أخذ يناور، أمسك القنبلة في يمينه ليلقيها عليهم، سقطت الأحجار على السيارة، بحيث تناثر الزجاج الأمامي والجانبي، شعر بوخز خفيف على بشرة جسده، لم يحس حينها بأي ألم، ضغط على دواسة البنزين مسرعا محاولا الابتعاد عن الأحجار، فجأة رآها بوضوح قادمة لمهاجمته، امرأة في العقد الثالث من عمرها، عرفها رغم شعرها المنكوش وملامحها المكفهرة، انعطف بشكل مفاجئ ليتفاداها، قذفته السيارة من النافذة وانقلبت عابرة فوق جسده حتى كادت أن تسحقه، نجا بأعجوبة، أصيب بكدمات في رأسه، وشظايا زجاج جرحته في مواضع عديدة، أقبلوا ناحيته صارخين، فك صاعق الأمان المعدني للقنبلة ورماها إليهم بيأس، دوى الانفجار عاليا، ناثرا جثثهم على أرضية الباحة، هرب من تبقى منهم مذعورين، واختفوا، زحف رعد مقتربا من المرأة العارية المحتضرة، رأى الدم يخرج من رأسها المفتوح مكونا بركة صغيرة من الدم، عانقها بحرارة، قائلا بصوت باكٍ:

"أمي، هذا أنا رعد، هل تسمعيني؟"

لم ترد عليه، أخذ ينتحب ويلقي نفسه فوق صدرها المكشوف واضعا رأسه بين نهديها المتهدلين اللذين تغذى منهما في يوم ما، وظل يصيح بصوت حزين:

" لم أقصد أن أؤذيك، لا أعرف لماذا قدر لنا أن نلتقي في مثل هذا الظرف اللعين؟"

جذبه الكلب بقسوة، جرّه في الباحة العريضة إلى أمام أحد المباني، عرف ما يرمي إليه الكلب، كان المنزل يطل على خارج القرية، قال:

" أريد سلاحي يا برق"

عاد الكلب بضع مرات ساحبا حزام سلاحه وشريط رصاصه وقنابله، وقف على السطوح يراقب العراة الذين شرعوا يجمعون صفوفهم للهجوم على الباحة من جميع الجهات كأنهم رغم جنونهم يشعرون أن في قريتهم دخيلان خطيران يهددان استقرارهم، كان برق قد خنق ثلاثين من العراة، لكنهم هنا كانوا أكثر عددا وتنظيما، ويملكون أساليب مراوغة جديدة في القتال، لعل الهرب والتخطيط لهجوم كاسح من الأمور التي لا يفهمها المجانين الذين قاتلاهم من قبل، قال الفتى بحيرة:

" لقد انقسموا إلى مجموعات! ماذا يريدون منّا؟ يجب أن نتصرف يا برق"

اضطر أن يعود إلى سطح دار جده، وجد مجموعة المجانين يزحفون ناحية المنازل الجاثمة في تلك الناحية، يسيرون متسللين بحذر ولؤم كأنهم يدركون جيدا ما يخططون له، كان يملك سبع قنابل في جعبته، لا يريد رميها إلا وقت الحاجة القصوى، ارتكز على حافة السطح، واضعا ماسورة بندقيته على صف بارز من الطوب، وأطلق النار عليهم، تفرقوا مذعورين بسبب المفاجأة، ثم هجموا بقوة على جدار المنزل، رآهم يتسلقون الجدار صارخين بسخط، صب عليهم رشقات من الرصاص، ثم هرب، قطع الباحة راكضا كالأرنب المطارد، لحسن حظه أن لياقته البدنية كانت عالية، وأنه مذ عامين كان أكثر أصدقائه جريا في المدرسة، أوصد باب المنزل الآخر خلفه،

عمل بائس قام به دون وعي، لأن بوسعهم أن يصعدوا عبر الجدران، رغم ذلك، استطاع أن يزود سلاحه بالرصاص، وصعد إلى السطح متأهبا للقتال، وجد صديقه برق في مأزق شديد، محاطا بأكثر من عشرين رجلا عاريا مجنونا يهاجمونه بالطوب والحجارة، يهبطون ويأتون بها من الأرض، ويقتلعون الطوب من حاجز السطح، ويرمونها بقوة ناحيته، وهو يزوغ ويهرب منها مرعوبا، لم تكن تنقصهم القوة وروح التكافل لتمزيقهما إلى أشلاء، فتح عليهم النار بشكل مفاجئ سريع، رشهم كما ترش الحشرات بالمبيد السام، تشجع كلبه المتعب، وارتد يهاجم ويقضم الأعناق، تداعى العراة، ما لبث الفتى أن قذف قنبلة إلى الباحة، وأخرى إلى الجهة الأخرى، ثم أطلق ما تبقى من الرصاص على المجانين الذين يتسلقون الجدران، وثالثة رماها بعيدا صوب عراة قادمين للنجدة، تفجيرات رهيبة، وحريق هائل شبّ في أكوام جافة من الحطب والقصب مما يستعمله المزارعون كوقود لمواقدهم وتناويرهم الطينية، اختفى المجانين مطلقين السعال، هربوا من الدخان المتصاعد، أو ذهبوا ليستجمعوا قواهم المبعثرة، ويخططون لهجوم آخر لا يبقي ولا يذر، ألقى الفتى الجثث عن السطح بانفعال، رأى كلبه يسير على قدم عرجاء مصابة، عاويا بألم، أصيب في مواضع عديدة من جسده، بدا في عوز شديد للراحة والعلاج، أتى المغيب، خشي أن تنطفئ النيران، انسل إلى الخارج، كان مخزون القرويين من الحطب والخشب مكوما حول القرية، صب الزيت وأحرقها جميعا، ارتفع لهب عظيم مضيئا الجبل بضوء مبهر، صاروا يركضون بعيدا عن النار غاضبين لا يجرؤون على الاقتراب، نفث الحريق الهائل كثيرا من الأدخنة

التي جعلتهم يتوارون، أخذ غفوة على السطح مستغلا نباهة كلبه الجريح والنيران المتأججة التي خمدت بعد منتصف الليل، لكن العراة لحسن الحظ ظلوا متوارين عن الأنظار، في وقت من الصباح فز خائفا، ونزل عن السطح على عجل، مخاطبا كلبه برق:

"يجب أن نغادر قريتهم اللعينة قبل طلوع الشمس"

بحث الفتى في أرجاء منزل جده دون أن يعثر على ما يبحث عنه، انتبه إلى ملابس مبعثرة في زوايا إحدى الغرف، أخذ يتفحصها بعناية، انتهى إلى معطف يخص خاله مانع رآه يوم تلك الزيارة البغيضة، أخذ يقلبه بين يديه ويتحسس جيوبه بتهور، أخيرا عثر على مفتاح السيارة، شعر بالفرح، جروح كلبه الغائرة بحاجة إلى تطهير وتعقيم قبل أن تلتهب، يريد مغادرة القرية بأقصى سرعة، قبل أن يلتهمه المجانين حيا، يحبذ أن تنقلب به السيارة إلى أسفل الجبل على أن يموت بأيدي أولئك المعتوهين، قفزا إلى السيارة، وقادها رعد بهدوء مبتعدا عن القرية، صار يملك ثقة أكثر من ذي قبل، سيارة الجيش حديثة أيضا رغم أنها أقدم موديلا من سيارة الرافور، كان برق يئن إلى جواره، إنه حيوان مسكين رغم ظهوره بمظهر الكائن الخارق، هكذا فكر الفتى وهو يتصفحه بشفقة، لا يستطيع أن يسرع حتى لا يثير غبارا أو صوتا خلفه، لا يود أن يلفت انتباه العراة إلى هروبهم، لكن رغم حرصه على الهدوء والسرّية سمع أصواتهم الصاخبة خلف السيارة، عكست له المرآة صور عشرات المجانين يهرولون خلفه، ضغط على دواسة البنزين، وطار بالسيارة التي كانت مؤهلة للسير السريع في الطرق الوعرة، يعوزه فقط المهارة والجرأة والوثوق في قدرته على عدم الوقوع بالأخطاء،

اقترب أحدهم من نافذته صارخا مكشرا عن أسنانه الكبيرة، رآه بوضوح وعرفه، إنه خاله مانع، فغر فاه مندهشا، لعله رآه بين المهاجمين دون أن يستطيع تمييز ملامحه، كان القتال حينها محتدما، والأحجار والرصاص تطير في الهواء، لقد اقترب منه موجها له رسالة خاصة واضحة، سينتقم لا محالة من الفتى الذي صرع أخته في الباحة، هل يريد خاله الثأر منه حقا؟ دار هذا في ذهنه بسرعة، سالت الدموع على خديه، وانفجر صائحا بصوت صاخب:

"أنا أكثر جزعا منك أيها المعتوه، إنها أمي الحبيبة"

قاد السيارة بسرعة وسط ذلك الطريق الوعر، كان العراة يركضون بسرعة الغزلان البرية، تشبثوا بالسيارة من كل جانب، أحس بأقدامهم على سطحها، شرعت المركبة تتمايل مترنحة، قفز خاله مانع فوق حجرة المحركات، وضع وجهه المكفهر على الزجاج صارخا في وجهه بقسوة كأنه يطلب منه التوقف حتى يقومان بتسوية الأمر، حجب جسده الرؤية عن رعد، عرف أن إيقاف السيارة يعني تسليم نفسه للمجانين الذين سيمزقونه إلى شرائح صغيرة، كما إن الاستمرار في قيادة السيارة _وثمة أشخاص عالقون عليها_ قد يجعلها تتحطم أو تنقلب أو تتعطل، والنتيجة واحدة في كلا الحالتين، لمح رأس أحد العراة متدليا على نافذته، أخذ يشم الهواء متطلعا داخل السيارة بفضول، ألقى الفتى المؤن التي نهبوها من مخزن جده إلى الأرض دون أن يخفف من سرعته، قفز معظم المجانين نحوها بجشع، بقي القليل منهم يدقون سطح السيارة بأقدامهم بتحدٍ وعناد، ظل خاله مانع يثير ضجيجا وفوضى شديدة فوق حجرة المحركات،

هل يحاول أن يجبره على التوقف؟ ماذا يريد منه؟ سأل نفسه بعجب، لم تطاوعه نفسه أن يصرعه برصاصة غادرة، لا يريد أن يؤذي أحدا من العراة، ليتهم يدعوه وشأنه وحسب، رمى قنبلة إلى الخارج، انفجرت بشكل مفاجئ، قفز العراة عن السيارة، وتوقفوا ليروا ما حدث، ضغط دواسة البنزين مبتعدا، ركضوا خلفه، قذف قنبلة أخرى وقعت بينهم، طارت بعض الأجساد، وترنحت أخرى، ولم يلحق بالسيارة أي أحد منهم هذه المرة.

سار بأمان وهدوء، كان ذلك الجزء من الطريق هو الأسهل لحسن الحظ، عبر بالسيارة من ذلك الممر الضيّق هابطا نحو قريته، لم يجد أي صعوبة في قيادتها على الطريق، لأن ما قاساه في السبتية جعل من كل شيء هيّن للغاية.. في المنزل المعزول، فتح حجرة الإسعافات الأولية، المعلقة على زاوية المخزن، أخرج بعض الشاش والمطهرات والعطب، بالكاد رضخ الكلب للعلاج، قدم له قطع من اللحم المجفف، وأكل هو شيئا، ثم غرق في النوم.

ضيوف الحظائر

وجد نفسه وكلبه جالسين في منزل خال من أي وسائل الترفيه، هناك مؤن ستكفيهم للعيش بضع شهور، عين ماء تسيل في الفراغ، أحواض محطمة كانت واسعة تروي الزرع والمواشي، وحقول باتت عارية تحتلها الشجيرات غير المجدية، ببساطة، أمسى المكان مزريا رغم أن بوسعه أن يكون جميلا فيما لو تلقى بعض العناية والاهتمام، لقد زار أقاربه، انتهى من هذا الغم الذي كان يشغله، غدا خاليا فارغا من الأهداف، مر اليوم التالي بشكل رتيب، أكلا الطعام، قاما بجولة صغيرة في الجوار، بحثا عن صيد، أرنب أو طير، لم يجدا شيئا، صار هناك القليل من العصافير تظهر بعد غياب طويل، لا يستطيع المرء أن يعيش دون الكائنات الأخرى حتى الضارة منها كالثعابين والعقارب أو الضواري، أما الحيوانات الأليفة فإنها غدت ضرورية للتخلص من المواد العضوية التي تخلفها المزارع والحقول، كالأعلاف والقصب وأعقاب الذرة والسنابل الخاوية من الحبوب، وجد مستودعا قرب الزرائب ممتلئ بالعلف والقصب والتِبْن، أين بوسع الفلاحين أن يذهبوا بهذه البقايا إذا لم تأكلها الأبقار والغنم؟ حظيرة الأغنام محاطة بسياج من الخشب، إضافة إلى سياج خشبي آخر أقوى من الأول تنتشر فيه بقايا مخلفات الأبقار، كان السياجان محطمين، وثمة عظام كثيرة تنتشر حول الزرائب، عرف رعد إن أصحاب المنزل حطموا السياجين حين أصيبوا بالجنون، ولعلهم قتلوا الحيوانات، وأكلوها، أو إن الحيوانات المفترسة هي الفاعلة، دار في أرجاء المكان مثل شخص خبير يقوم بفك

الأحاجي والألغاز، لا توجد ضباع كثيرة في المنطقة، الحيوانات المفترسة لا تقتل كل هذا العدد من الحيوانات، بل تأخذ حاجتها من اللحم وترحل، قرائن عديدة تثبت إن العراة حطموا السياجين واقترفوا هذا الفعل الشنيع، هذا يفسر اختفاء الحيوانات والمواشي والطيور، لا يتذكر أنه رأى دجاجة أو ماشية في القرى المجاورة. فطن أن هناك حيوانات أليفة نجت من المجزرة بالتأكيد، لعلها هربت إلى الهضاب والتلال البعيدة، هو الشخص الوحيد الذي نجا من الجنون، يستطيع أن يدع المكان مخضرا مثمرا كما كان، ومن ثم يعيد ترتيب وتنظيف الغرف، وبناء أحواض الري، يجب أن يقوم بتوصيل أنابيب الماء الحديدية إلى الخزان البلاستيكي الجاثم على السطح، ومنه إلى الحمام وبيت النار، فكر الفتى بذلك.

شرع يكنس الأرضيات، وينظف الفرش والسجاجيد، رتب الغرف، غسل بلاط الحمام، أزال المخلفات المتراكمة على المرحاض، تخلص من الأشياء المحطمة والتالفة في بيت النار، نقل إليه الأواني والقدور الجديدة والمواد الغذائية من المخزن، ترك للكلب مكانا قريبا منه معتقدا إن هذا الأمر الاستثنائي ما كان ليحدث لو أن الناس مازالوا يحتفظون بعقولهم، أما بناء الأحواض، وعملية توصيل الأنابيب إلى المنزل فقد استمرت ثلاثة أيام متوالية، استئصال القصب والشجيرات الضارة وتنظيف الحقول وتجهيزها للفلاحة استغرقت ستة أيام، زفر بارتياح، استلقى تحت ظل شجرة مشمش وارفة الظل تقف عند آخر الحقول، كل شيء بات جاهزا تقريبا، الأحواض تفيض بمياه الري، بقي بضع شهور إلى موسم البذر، لا يعرف كيف استطاع أن يتنبأ بهذا التاريخ، لكنه اشتغل في الزراعة من قبل،

ورافق فلاحين خبراء بالفصول والمواسم، لكل فصل وموسم علامات تظهر في الجو، ثمة تغيرات في مواقيت الشروق والغروب، الرياح، مساحة الظلال التي تكونها بعض المعالم في المنطقة كالصخور أو الأشجار، وكذلك ظهور بعض الحشرات أو الطيور كالهدهد، لا بأس، بقي أمامه أهم خطوة في هذا الجانب، وهي أن يحرث الأرض مرتين، المرة الأولى يجب أن تكون بعد شهر بحيث يقلب التربة ويعرضها لأشعة الشمس، والثانية بعد ثلاثة شهور ليضع البذور، شعر الفتى بشيء يسير على ساعده المكشوف، رفع ساعده إلى أمام عينيه، رأى نملة تدب بمثابرة وعجل، أمسكها بطرف أنمليه وراح يتأملها بعجب، نظر إلى كلبه المستلقي جواره وضحك قائلا: "برق، أخيرا أرى نملة، انظر إليها، كأنها سمعتني أحدث نفسي عن موسم البذر، فأتت لتطلب حصتها من الحبوب، لا تعلم المسكينة إن الموسم مازال بعيدا، وأن ثمة مشكلة.."

طرح النملة أرضا برفق، واستلقى متنهدا بضيق، لقد تذكر إنه لا يملك بقرة أو ثورا ليحرث مدرجات الحقول، أكثر من خمسة عشر حقلا مستطيلا متوسط الحجم، محال أن يحرثها دون حيوان، هز رأسه بيقين، هل بوسعه الحصول على حيوان من تلك التي يظن أنها شردت في الهضاب القريبة؟ يخشى أن يكون العراة قد سبقوه إليها، أو الضباع أو غيرها من الحيوانات المفترسة؟ لا يهم، مازالت محض خيال، وهو لا يملك أي دليل على فرارها، سيكون محظوظا إن وجد ثورا أو بقرة مازالا على قيد الحياة.

بما أنه نام باكرا في ذلك المساء، فقد نهض مبكرا جدا، ليصنع له فطورا ولكلبه برق قبل أن ينطلقا في مهمة البحث عن الحيوانات الفارة من

الزريبة، بعد أن تناولا الطعام، أخذا العدة اللازمة للقبض على المواشي الهاربة، شقا طريقهما باتجاه الهضاب الشمالية التي تبدو جرداء خالية من المساكن، كان الصباح ساكنا متفتحا قبل الشروق، بعض شجيرات الرا الجافة انتشرت على الدرب الخالي من الحياة، براعمها البيضاء بدت ذابلة كأنما توقفت عن النمو والتفتح، لاحت شجرة دَوْم مثمرة مختبئة خلف ربوة صغيرة، تنط عليها مجموعة هائلة من عصافير تزقزق بصوت هادر، اندفع الفتى نحوها بانفعال وتهور قائلا:

"عصافير كثيرة يا برق"

طارت العصافير مثل غمامة صغيرة محلقة حتى توارت خلف التلال، تأوه الفتى بامتعاض، فكر فيما يجعل العصافير تفر بعيدا! لم ير هذا العدد من العصافير منذ أن خرج من القبو، نظر بجشع إلى الثمار الصفراء الصغيرة معلقة على الفروع، الصغار يعشقون هذه الثمار البرية مثل العصافير، كان يوفر نقوده ليبتاعها من فناء المدرسة، يبيعها بعض طلاب القرى المجاورة حيث تنتشر بكثافة في شعابهم ووديانهم، هي الآن متاحة ومتوفرة، تحول أشواك حادة دون الحصول عليها، وضع يديه على ساق الشجرة متأهبا للتسلق، تراجع في اللحظة الأخيرة لجملة من الأسباب، شوك، بطن ممتلئة، مهمة لم تنجز، جسد عاري، وعصافير جائعة، فكر ببساطة إن العصافير سوف تعود إلى ثمارها، لم يترك العراة أي شيء للطيور والحيوانات، أكلوا الأخضر واليابس في كل القرى والوديان، لقد أنقذتها أجنحتها من أفواههم النهمة، فأتت إلى منطقة يجهل المجانين طريقها، ابتعد متنازلا عن الثمار، فرح حين آبت العصافير إلى الشجرة، اقترب من التلال التي اندست قرب

مجاري السيول القادمة من المرتفعات العليا، المكان معشوشب هناك، يغص بأشجار الدوم، ظهر لمعان جدول صغير من الماء تحت أشعة الشمس، انفرجت أساريره حين لمح حيوانات ترعى بأمان في الشِعب، فكر كيف يمسك بحيوانين في منحدر مكشوف، اقتربا من الحيوانات بخطى خفيفة هادئة، الحبل معقود في يديه، تأهب ليرميه على رأس ثور يافع، شرع قرناه بالتشكل على نحو خطير، رفع رأسه عن العشب الجاف، أطلق خوارا منذرا، وابتعد هاربا، هربت الحيوانات، حتى الأغنام، هرولت خلفها وهرول برق أيضا، حاول أن يلتف حولها ليعيدها، لكنها تشتت في الشعب، احتار الفتى في أمره، لم يعد يعرف أي حيوان يطارده، عاد الكلب لاهثا، سارا يبحثان عن الثور والأبقار في الأرجاء، غابت خلف التل، ذهبا خلفها يطوفان ويحدقان في الشعاب، أتى الغروب، مالا إلى منخفض لطيف من الأرض، أراحا جسديهما المنهكين، أكلا شيئا، مكثا صامتين في الظلام، سينهضان في وقت مبكر للبحث والمطاردة، لن يعودا دون ثور يحرث الأرض، أو بقرة تدر الحليب وتأكل العلف، فكر بروية، يلزمه بعض الصبر والحكمة، يتفهم سبب فرار الحيوانات، الحصول على حيوان ليس سهلا كما كان يظن، لقد ذاقت طعم العيش الحر في العراء، في السابق سكنت داخل حجرات بشعة ضيقة قرب فضلاتها وبولها، رأت أبناء جنسها يُذبحون ويسلخون، ويؤكلون، أما وقد أصبح البشر مجانين ينهشون لحوم الحيوانات وهي مازالت حيّة، فإن لا فرق بينهم وبين الضباع، تنهد مخاطبا كلبه بيقين: لو كنت ثورا يا برق لفضلت الهروب والعيش طليقا.

نهضا عند الفجر، بحثا في التلال والهضاب القريبة، تملصت منهم الحيوانات، وجد رعد فرصة وحيدة مع بقرة كبيرة، كانت قريبة جدا منه، رمى عقدة الحبل باتجاه رأسها، لم يكن سريعا كفاية، أخطأ قرنيها، ابتعدت البقرة، بدا برق غير مخلصا في عمله، متلكئا عن المطاردة، يفتقد إلى مهارته المألوفة، ظل الفتى يصرخ عليه طوال الوقت:

"برق، اذهب من الجهة الأخرى لكي تعيد الحيوانات"

يظهر من مكان غير متوقع منكسا رأسه بخيبة أمل حقيقية، يغضب رعد..

"ماذا دهاك؟ أين مهاراتك؟ لقد كنت تتصدى للعراة وتطيح بهم أرضا، ألا تريد أن يكون بمعيتنا حيوانات أليفة نطعمها وتطعمنا!"

عرف إن عليه أن يقيم تمرينا ليده وأصابعه، قضى باقي يومه يرمي عقدة الحبل على غصن ناتئ من شجرة تين بري، فعل ذلك عشرات ومئات المرات حتى لم يعد بمقدوره أن يرفع يده من التعب، رغم ذلك، كانت رمياته الأخيرة سديدة، لم يخطئ بأي رمية، استيقظ صبيحة اليوم الثالث متحفزا، قرر إنه اليوم الأخير، سيعود سواء أصاب أو أخطأ، رأى أن يلجأ إلى الحيلة، خطرت له خطة غريبة قد تساعده على الاقتراب من الحيوانات بما يكفي ليرمي الحبل من مسافة قصيرة، أخفى جسده وأطرافه بفروع شجر الخنس ذات الأوراق الكبيرة، وطلب من كلبه أن يمكث بعيدا ريثما يقترب من الحيوانات، رآها سارحة في تل مجاور، بعضها ظاهر والبعض الآخر متوارٍ خلف التل كما يظن، أخذ يقترب على شكل شجيرة، الحبل في يده اليمنى جاهزا للرمي، وفي اليد الأخرى يمسك كيسا من النايلون أو

الخيش لكي يحشر رأس الحيوان فيه لحظة القبض عليه، كانت هذه الطريقة مجربة يقوم بها الأهالي لتهدئة الثيران الضخمة الهائجة حين يقررون نقلها إلى السوق أو إلى أي مكان آخر، دنا من بقرة ضرتها ممتلئة بالحليب، قربها عجل صغير حديث الولادة، عرف أنها ستقاوم بفعل الغريزة ذودا عن صغيرها، رفعت البقرة رأسها عن العشب بدافع غريزي، نصبت أذنيها في الهواء، التفتت نحو الشجيرة الجامدة، تأملتها بعض الوقت، في النهاية أرخت أذنيها ونكست رأسها نحو العشب، حين رفعت رأسها ثانية كان الحبل في عنقها، سددت للشجيرة الخبيثة ضربة وحيدة بقرنيها قبل أن يحشر رأسها وعينيها وسط كيس معتم، لم تشعر بنفسها إلا وهي مربوطة على ساق شجرة، ظلت هادئة بسبب الكيس ناهيك أن عجلها ظل إلى جانبها، عاد الفتى متنكرا إلى التل بضع مرات، استطاع أن يمسك الثور الصغير اليافع، إضافة إلى كبش وشاة، كان جشعه يزداد رغم تعرضه لإصابات موجعة من قرون الحيوانات، لكن المغيب اقترب، تخلص من فروع الشجرة، ومسح على أعناق الحيوانات المرتعشة قائلا: "أنا اسمي رعد، لا تخشي شيئا يا حيواناتي الجميلة" ربط البقرة إلى ذيل الثور في حبل واحد، والكبش والشاة في حبل آخر، وقادها عائدا نحو منزله وهو يغني إحدى أغاني الفلاحين القديمة.

السياج

ظل برق مهتاجا، فكر الفتى إن الحيوانات تشعر بالغيرة والحسد مثل البشر، صار الكلب يتقاعس عن حماية المكان، عند موعد تقديم العلف لها يطلق النباح، وتومض عيناه بخبث، أمست تجفل كلما اقترب من السياج، تعجب رعد، طالما عرف إن المواشي تحس بالاطمئنان أكثر حين تحرسها الكلاب، احتاج سريعا إلى خدمات الثور والبقرة، نزل إلى القرية المهجورة، أخذ ينقب في مستودعات الفلاحين باحثا عن محراث سليم، وجد قطع متناثرة من محراث يعوزها بعض الشد والترميم، أدمج القطع وشدها بالحبال، غرد خلف الثور اليافع والبقرة الكبيرة، كانا ثنائيا رائعا، يبدوان منسجمين متشابهين في كثير من الصفات كاللون والتقاسيم، خمن رعد إن البقرة والثور قريبان ، هي أمه دون شك، سالت الدموع من عينيه، غرد خلف الحيوانين اللذين يقلبان التربة بهمة ونشاط، منشدا بعض العبارات على شكل موال مما ينشده الفلاحون في موسم الحرث:

أنا وحيد مثل راية وحيدة

غريب مثل حالة غريبة

لا عقول لا مساكن

لا ورق لا معادن

أهلي وقومي مجانين

الأرض صارت غريبة

وأنا وحيد أحرث الحقل

الناس حولي ملايين

صاروا عرايا مجانين

كان شعوره غريبا، حزن وانتشاء، أن تصبح الوحيد الذي يستطيع أن يفكر ويخطط هو أمر يشبه الصعود على عرش مملكة متداعية خاوية، أو العيش وسط أرض تحيط بها قطعان من الحيوانات المتوحشة، بعد أن فرغ من تقليب الحقل، جلس تحت ظل شجرة، أخذ يطعم ثوره وبقرته التي رفضت أن تعمل بعيدا عن صغيرها، ما أجبره أن يجلبه معها، ظل العجل طليقا يقفز خلف أمه كما يفعل الصغار، مفسدا التربة، صبر الفتى على قفزاته وعبثه، فقد كان طفلا ذات يوم يقفز ويلعب دون أن يعير أحدا اهتماما، أثناء تفكيره انتصب الكلب برق بتحفز مفاجئ، أطلق بعض النباح، ثم قفز راكضا باتجاه الزرائب، عرف إن شيئا ما يحدث، وإن أنسب موضع يختبئ فيه الثور والبقرة هو هذا الحقل القاصي الذي يحرثه، سيربط العجل الصغير قرب أمه، ويطبق أفواهها حتى لا تصدر خوارا، ربط الثور على شجرة، والبقرة على شجرة أخرى حتى لا يستغل الحيوان الفحل غيابه، ويعلو ظهرها بغرض التزاوج، أخذ سلاحه الذي لا يفارقه، وسلك خلف الكلب، كان الأخير يهاجم بضعة رجال عراة اقتحموا الزريبة، وفتكوا بالكبش والشاة الحبلى، صرعهم بالرصاص، شعر بالأسف على حيواناته الميتة، كره العراة من صميمه، ظل الكلب ينبح رانيا صوب

المنحدر، وحينا يرفع بصره نحو أعلى الشِعب، رأى رؤوس العراة تطل خلف الصخور الصغيرة الرابضة بالأعلى، كذلك لاح عشرات منهم أسفل المنحدر البعيد، لقد اكتشفوا مكانه مرة أخرى، فكر في سبب محتمل يجعل العراة يكشفون التل، لا جثث متعفنة أو نسور، كيف اهتدوا إلى مأواه إذا؟ وقف مشدوها يفكر إن كان بوسعه هزيمتهم، يبدو أنهم جاءوا عازمين على احتلال المكان، يملكون غلبة العدد والقوة المفرطة، وهو يملك سلاح العقل، وبضع قطع من السلاح الناري، لكنهم ليسوا مجانين تماما كما يبدو، لا شك أنهم يملكون ملكات عقلية من نوع ما، هل تبعوه وراقبوا موضعه حين غادر السبتية قبل أسابيع معدودة؟ ينبغي أن يبعدهم قبل أن يلتحموا في قتال غير متكافئ، لمعت في رأسه فكرة خبيثة، إنهم لسبب ما يخشون النار، يكرهون الأدخنة السوداء، في مستودع جانبي صغير عثر على بضع إطارات فارغة يبدو أن أطفال المنزل جلبوها من القرية، نظر إلى أعلى التل بقلق، أولئك العراة في الأعلى سيفسدون خطته، يبدو أن الأوغاد يفكرون بشكل جيد! يأتون لمهاجمته من بضع جهات! نظر إلى كلبه برق، وأشار إلى الأعلى قائلا باغتمام:

"برق، لا تدعهم يهبطون إلى المنزل، يحفظك الله"

فوجئ بالكلب ينبح راكضا بسرعة وحماس صاعدا نحو التل، بينما أخذ سلاحه المميت، إضافة إلى قنينة زيت، علبة ثقاب، وإطارا فارغا دحرجه أمامه، نزل إلى الأسفل لاستقبال العراة، انتظر حتى شرعوا يصعدون الشعب المائل، صب الزيت في الإطار، وأشعل فيه النار ودحرجه صوب المجانين، كان مرعوبا للغاية، تعثر الإطار، حيث اصطدم بصخرة صغيرة،

انبطح وسط الشعب زاحفا قليلا قبل أن يتوقف، لكن النار لم تخمد، رمى قنبلة بكل قوته، سقطت أمامهم، تفرقوا في كل اتجاه، نثر عليهم أكثر من خمسين رصاصة من سلاحه الآلي، أسقط عليهم قنبلة ثانية، لم يروا أحدا، عادوا أدراجهم هاربين، عرف أنهم سوف يعودون بعد يوم أو أيام، لا يريد أن يعيش في قلق دائم، سينفد ما لديه من سلاح، رجع إلى التل الذي يعلو المنزل حيث هجم برق على العراة، رآه جاثما تقطر الدماء من فمه كالعادة، بالقرب منه تناثرت بضع جثث منهوشة الأعناق، جلب الفتى عدة الحفر والمنظار العسكري، جعل يحدق في التلال البعيدة والقريبة، بدت الأمور ساكنة، أخذ يحفر بالجوار حفرة واسعة، شعر بكثير من التعب، بالكاد استطاع أن يسحب الجثث، ويلقيها في الحفرة، استوقفته الجثة الأخيرة، تأملها بتمحيص، رجل كهل، إنه جده ناصر، انفجر باكيا، كان الرجل المسن يحبه، كان يعتزم أن يخوض ووالده صراعا مريرا لاستعادته وتبنيه، ها هو الآن يأتي إليه محاربا، ويموت بأسنان كلب خبيث، ثم يدفن على رأس تل معزول في قبر جماعي! نزلا من التل، عرف رعد أنه لم يعد بوسعه النوم مطمئن البال، لن يكف العراة عن هجومهم، هكذا يشعر، إنهم مجانين يبحثون عن الغذاء، لن يخشوا من قنابله وإطاراته المحترقة، يخشى أن يهجموا على التل في ظلام الليل، لن يستطيع التعامل مع المهاجمين الذين يرون في العتمة، سبق أن رآهم في السبتية يركضون وسط العتمة كالأرانب، كانت عيونهم تلمع كعيون القطط البرية، صعد إلى السطح، حاملا أربع قطع متوسطة الطول من الخشب، ثبتها وسط صفائح فارغة ملأها بالتراب، وأخفاها تحت أقمشة وطرابيل سميكة، تاركا لها بابا

حتى غدت تشبه الخيمة، جلب فراشه وعدة القتال ومنظاره الليلي، ومكث للمراقبة، شعر بالإرهاق والنعاس، قال يخاطب برق بتضرع:

"حفظك الله يا برق، احترس على المواشي ومحيط المنزل، أنا منهك للغاية"

قفز الكلب لتنفيذ مهمته في الحراسة، تعجب الفتى عن حماس كلبه حين يقول له "حفظك الله" ، هل يؤمن كلبه بالدعاء؟ و.. انطفأ في نوم عميق، استمر نائما حتى الضحى، شعر بالحمى، زحف إلى حجرة الأدوية الصغيرة في المخزن، أكل شيئا دون شهية، وسحب علبة كتب عليها خافض للحرارة، شرب ملعقة بمقدار 5 مل، مكث معتلا مدة يومين، في اليوم الثالث، أحس بالعافية، خرج نشيطا، أطعم الثور والبقرة، كان الثور يخور في زريبة الكباش الفارغة، كان يخرج ذكره الطويل ويصدر صوتا مبحوحا هادرا ماطا عنقه في الفراغ صوب التلال البعيدة، بدا مهتاجا بشدة، حين اقترب منه ليضع عليه أداة الحرث، استقبله بقرنيه الحادين حتى قذفه خارج الزريبة، وقع لحسن الحظ فوق أكياس التبن التي شرع يخرجها من المستودع ليحرقها في وجوه المجانين في حال هاجموا المكان، انسحب مترنحا ممسكا على وركيه، فهم أن الحيوان الوديع لسبب ما غاضب، لعله جائع، في اليومين السابقين غفل عنه بسبب مرضه، قدّم له بحذر المزيد من الحشائش والتبن، نظر الثور إليها بجشع، ثم تنحى عنها بحرن، هناك شيء آخر غير الجوع، فكر الفتى، ترك الحيوان وشأنه، مضى يوزع أكياس التبن الجاف القابل للاشتعال حول التل، كان يدرك أن الحرب قادمة، وأن العراة يعدون العدة للانقضاض عليه على حين غرة، لن يستسلم، أو يفر من التل بأي حال، النار خط دفاعه الوحيد، فكر بصنع حواجز مانعة

حول التل، سيقطع فروع بعض الأشجار الشوكية التي تغص بها التلال، مثل أشجار الطلح والدوم، أخذ الفأس والسلم الحديدي وانتقل بين الأشجار قاطعا الفروع اليابسة أو العليلة، جمع كمية كبيرة منها، صار يكومها حول التل على شكل سياج مانع، لن يستطيع العراة أن يدوسوا على الشوك، من يقفز سيتصدى له الكلب ويقضم عنقه، كان هذا تفكيرا منطقيا، أمضى اليوم كله وهو يحيط التل بهذه الموانع التي يعرفها الناس، إنه بحاجة إلى عدد ضخم من الفروع، اهتدى إلى التلال القريبة الممتلئة بالتين الشوكي، وهي فروع سهلة القطع، لذا جلب كمية كبيرة منها، يعوزه بضعة أيام من العمل المجهد المتواصل لصنع مانع ضخم، آب عند الغروب منهكا، وضع حمولته من التين الشوكي في المانع الذي لم يكتمل، وسار ليرمي نفسه على فراشه، مكث قليلا، ثم أشعل فانوس الجاز المشع، غسل يديه، بحث عن الإبرة، راح يخرج الشوك، فجأة سمع النباح، خرج ليرى ما يجري شاهرا سلاحه، رأى أطياف حيوانات تتقدم، سدد إليها ضوء المصباح اليدوي القوي، إنها أبقار، حاول الكلب أن يتصدى لها، صاح الفتى قائلا برجاء:

"اتركها يا برق"

نبح الكلب بقوة كأنه لا يقبل هذا التجاوز، تابع رعد بصوت هادئ:

"حفظك الله"

عوى الكلب بسخط، وتراجع كالمغلوب على أمره، في حين تقدم الفتى وفتح باب الزريبة، وتنحى جانبا، أتت الأبقار ودخلت، ثلاث إناث يافعات، أخذن

يدرن بدلال حول الثور الذي أوشك أن يفقد صوابه من الهياج، اعتلا الأولى والثانية والثالثة، ثم انزوى مرتعشا عاجزا عن مواصلة التزاوج، استغل رعد الفرصة، وأخذ يصطاد البقرات المترنحات الواحدة تلو الأخرى بواسطة الحبال، ويقودهن إلى الزريبة الأخرى، قدم لهن شيئا من الحشيش الجاف من قبيل الضيافة، وأقفل الباب، وعاد مسرورا إلى فراشه ليزيل ما بقي من شوك في باطن يديه وقدميه..

قضى خمسة أيام أخرى في تحصين التل بسياج من الشوك وفروع الأشجار، أرجأ جميع الأعمال في سبيل هذه الغاية، أصبح التل كله محاطا بحائط منيع، وكذلك الحقول، بحيث يعجز أي شخص عن اقتحام المكان بسهولة، كما وضع التبن القابل للاشتعال في مواضع عديدة لمزيد من إضاءة المكان عند أي خطر حتى يكون بوسعه رؤية الغزاة والمهاجمين ويقدر حجمهم، نام الفتى قرير العين في تلك الليلة والليالي الأخرى أيضا، حرث الأرض وسكب البذور وغمرها بالماء، شرعت النبتات تبزغ من التربة كالأجنة، بعد شهرين ارتفع الزرع شبرين عن الأرض، وحظي بعناية جيدة، حين أتى العراة متسللين بأعداد كبيرة جدا، كان الفتى يغط في نوم عميق، يشخر بسبب التعب، أقبلوا على دفعات مهتاجة كالأمواج، حتى وقفوا مجبرين يحاولون القفز عن المانع، رأوا برق في الجانب الآخر، أمطروه بعشرات الأحجار، ولى هاربا، ينبح بشدة، نهض الفتى، وقف على السطح، أضاء مصباحه اليدوي، لم يستطع الرؤية كما يجب، لكنه عرف أصوات المجانين الصاخبة، تسلل إلى خارج الحاجز، حيث أول ربوة، أشعل التبن الجاف، رأى المنحدر مليئا بالعراة، رآهم يجلبون أخشابا من القرية، فهم

أنهم يريدون أن يصنعوا جسرا ليعبروا فوق أكوام الشوك بسلام، يا لهم من ماكرين! قال لنفسه بفجيعة، إنهم أدهى مما يتوقع المرء! يجب أن يفعل شيئا قبل أن يقفزوا إلى الداخل، لم يرتدعوا من الرصاص الذي شرع يصبه على أجسادهم، بدوا قريبين مصرين على اقتحام المكان، لمح خاله مانع أمام الحشد المجنون، لقد فقد إحدى عينيه بحيث تبدو مغلقة بوضوح، أصيب بشظية قنبلة يوم زار السبتية. كان يشير إلى الداخل مطوحا يده في الفراغ كأنه يلقي عليهم أمر الاقتحام، أخذ رعد مشعلا، سار بمحاذاة الحائط الحصين الذي يوشك أن يتداعى بعد لحظات، ليس غبيا كما يظنون، لقد حسب حساب هذه اللحظة، ومن ثم صنع قوسا من خشب اليراع، وبرى سهاما كثيرة حادة من فروع شجر المعس، صعد على سطح المنزل، ربط على قمة سهامه خرقا صغيرة غمسها بالزيت، أشعلها للتو، وقذفها على قمم الربوات التي سكب عليها التبن والمساند القطنية والإطارات، اشتعلت تلك المواد سريعا، وأصبح الجو مضيئا، وبعد لحظات غطت الأدخنة السوداء التل والمناطق المحيطة، سعل الفتى، ونزل ليختبئ في المخزن، لم يدرك ما يجرى في الخارج، خشي أن يستمر العراة في جهودهم في اقتحام التل دون أن يهتموا بالنيران والأدخنة، لا يستطيع أن يقف على السطح أو يرى شيئا مما يجري خلف السياج، كانت فكرة غبية، هكذا فكر رعد بيأس، متوقعا أن يسمع صراخ المجانين خلف المنزل، شحن سلاحه بالرصاص، لن يدعهم يمسكون به حيا، سيطلق النار على نفسه، مضى الوقت طويلا بطيئا، مر شطر كبير من الليل، شرعت النيران تخبو، صفا الجو، سمع صوت كلبه ينبح بصوت ضعيف، تذكر أمره، هب مسرعا

إليه، حين رآه فزع من شكله، كان مغطى بسخام الأدخنة، ازداد سواده، سمح له بالدخول قائلا باضطراب:

"أوه، نسيتك يا برق، يا لي من أحمق"

سأل بعد قليل بقلق:

"هل ذهبوا؟"

عوى الكلب بصوت صغير، قدم له رعد كمية مضاعفة من اللحم المدخن، وخرج للاستطلاع، دار حول السياج مضيئا المصباح اليدوي، لا أثر لأي شيء بالخارج، عاد بنشاط لينام، في الصباح مرق إلى خارج التل عبر مخرج سري صنعه بين الشوك والفروع، دار حول السياج ليرى الأضرار الذي تعرض لها، والثغرات التي غدت ضعيفة فيه، كان هناك خشب كثير جمعه المجانين انتزعوه من مستودعات القرويين وسقوف منازلهم، أخذ ثوره اليافع، وربط الخشب إلى جسد الحيوان القوي بواسطة الحبال المتينة، مضى الثور يسحبها إلى الداخل عبر المخرج السري، مضت بضع شهور دون أن يعودوا، وأقبل موسم الحصاد، بدت الحقول يانعة الزرع، القمح والذرة والشعير والفول، أخذ يحصدها بالطريقة التقليدية، بواسطة المنجل، ظل مدة شهر كامل في حصاد الغلال، محصول وفير، امتلأت الغرف بأكياس الحبوب المتنوعة، أخذ يشم رائحة الخطر، في اليوم السابق خيل له أن هناك عيونا تلمع وسط العتمة، رآها عبر منظاره الليلي في المساء، عزز الربوات بالمزيد من التبن، لقد استخلص كميات كبيرة منه عندما فصل الحبوب عن سنابلها، كوَّم القصب والعلف حول الزرائب، زود الحيوانات

بكميات كبيرة من الغذاء، غدت سمينة، تتكاثر، تنضم بين فينة وأخرى مواشٍ وكباش أخرى بسبب ازدياد الجفاف في الشعاب المجاورة، تجذبها إلى المكان الخضرة والأعشاب الخضراء والماء، كان كل شيء يسير على ما يرام، أمست الحيوانات ترعى داخل التل، وهو يرافقها ويستمتع بمشاهدتها تأكل، يقترب منها، ويربت على ظهورها دون أن تفر منه كما كانت تفعل فيما مضى، كانت تلك أمتع أوقاته التي يقضيها في النهار، صارت هجمات العراة نادرة ومتقطعة وبأعداد لا تثير الفزع في نفسه، أزال جزءا من السياج، خرج إلى التلال القريبة، صار بمنظاره يراقب الطرقات والشعاب، ويصطاد الأرانب والماعز الجبلي، وعيناه تراقبان كل شيء حول التل، ثم يعود ليصنع طعاما شهيا له ولكلبه برق.

سنبلة

أصبح في عمر يصير فيه الشباب متقدين بالنزوة الجنسية، يريدون أن يتسلقوا الجدران باحثين عن أنثى ليطفئوا في جسدها نيران شهواتهم المستعرة، هذا هو أمر فطري، بعد أن هدأت الأحوال في التل بزغت أكثر أفكاره تشوشا وصفاء، راح يفكر في النساء، لم يعد هناك الكثير من وجوههن ليتخيله، يريد أنثى من أي جنس بشري أو حيواني، ليفرغ فيها حيواناته المنوية التي تؤلمه وتحرقه، يظن البعض أنه لولا سطوة هذه المياه البيضاء اللزجة وقوة تأثيرها والمتعة التي ترافق خروجها، ما استطاعت الحياة أن تشق طريقها إلى الوجود، هذه الرغبة هي وقود الحياة، لعل الهدف الأول الذي تسعى الكائنات الحية لتحقيقه هو الحفاظ على البقاء، والهدف الآخر هو إشباع رغباتها الفطرية، الهدف الأول يصنعه الكائن الحي بواسطة عضلاته ومداركه إن وجدت، أما الهدف الثاني فتقوده غريزته الجسدية التي تنبثق من جميع خلاياه، لا يعرف أحد حدودها ومقدار نفوذها وطغيانها، لكنها طاقة جبارة دون شك توازي طاقة الحياة ذاتها، أما في ظل تلك الظروف القاسية، فإن رعد وجد نفسه مضطربا للغاية، شعر أن هناك شيء جوهري هام ينقصه، كان يظن أن الهدوء والاستقرار اللذين اكتنفا التل سوف يجعلاه يستمتع بالعيش، غير أن ذهنه لم يتوقف عن التفكير، وجسده لا يكف عن الهياج، حين تداهمه تلك الرغبة الخبيئة في صميمه يصبح أكثر توترا وضيقا، عرف كيف يسكب حيواناته المنوية بمساعدة راحته التي يطليها بالفازلين، أجبره شبقه أن يخرج إلى التلال

متجولا باحثا عن شيء ما مجهول، وجد أتانا متوسطة العمر في حالة نزوة طارئة، اعتلاها دون شعور، وقادها إلى التل، صنع لها زريبة منفردة، وجلب لها طعاما خاصا، أمضى بعض الوقت يمارس عمله الشاذ حتى أحس أنه لا يحظى بالإشباع الذي ينشده، غدت تلك الممارسة مع تكرارها مصدر عذاب ومعاناة، هجر زريبة الأتان التي هي الأخرى كانت في حال هياج دائم، تجاهل نهيقها وضربات قدميها على أرضية الزريبة، وخاطب برق ذات يوم قائلا بانفعال:

"عجبا يا برق، لِمَ لا تبحث لك عن أنثى جميلة قبل أن يفني العراة مجتمع الكلاب أم أنك خصي؟"

قفز الكلب من مكانه للأمام منفعلا مكشرا أسنانه، نبح هازا ذيله ماشيا الهوينى، التفت إلى صاحبه ونبح ثانية بقوة، فهم رعد أن برق يتحداه أن يجازف بالتخلي عن التل ليبحث لنفسه عن أنثى، قال بصوت حاد:

"لا أخشى الرحيل عن التل، انتظرني لأحصن السياج"

أخذ عدته المألوفة، حقيبة ظهر بها بعض الطعام، سلاح آلي وجعب الرصاص وحبل طويل لاصطياد الحيوانات، أوصد منزله وزود المواشي بالعلف والأعقاب الجافة، أعاد دمج السياج بالفروع والشوك، هداه عقله الخبيث أن يربط صاعق قنبلة إلى طرف حبل طويل مده على الجزء الأضعف من السياج، وترك تحت الصاعق على الأرض بعض التبن الجاف المبلل بالبنزين، أي كائن حي سيجذب الحبل سينفك الصاعق، ومن ثم تسقط القنبلة وتنفجر على التبن، مخلفة حريقا هائلا يلتهم السياج

الضخم كله، وتغمر الأدخنة التل وتصل إلى الجبل، لن يبق رجلا مجنونا في المكان، سيفرون أو يقتلون، لم يعودوا يشكلون خطرا كبيرا بعد أن شيَّد السياج، عرف سابقا أن حاستهم في الشم قوية، وأن النيران والأدخنة ترعبهم ويخافون منها لسبب ما، يبدو أنها تصيب أغشيتهم الأنفية بالتلف، خرج من الممر السري خلف كلبه الذي ينتظره بالجوار، وجد سيارة الجيش في الموقف الخاص حيث تركها، لم يحركها منذ ثلاثة أعوام، رأى الصدأ على هيكلها الخارجي، مياه المطر توشك أن تعطب حديدها، تفقد خزان الوقود، وجده شبه فارغ، تبخر ما بقي فيه من بنزين بفعل الحرارة، اتجه إلى مخزن العم ناصر صاحب الدكان الوحيد بالقرية، يظن أنه عثر على برميل بنزين في المرة الماضية، كان الرجل يخزن الوقود، ويبيعه بثمن مضاعف في حالات الطوارئ كالمرض أو الولادة، شفط حوالي أربعين لترا في دبتين بلاستيكيتين، وأفرغهما في خزان السيارة، أدار مفتاح التشغيل، صدر صوت ضعيف انقطع سريعا، كرر المحاولة مرات عديدة دون فائدة، انتبه إلى أن العم ناصر كان يتعذر عليه تشغيل سيارته القديمة لاسيما حين ينقطع مدة من الزمن عن تشغيلها، كان القرويون يأتون للمساعدة ويصرخون بانفعال: "نامت البطارية ثانية، ألا يمكنك أن تشغلها نصف ساعة كل يوم؟" يرد متعللا متحاشيا إغضابهم: "ابني لا شك عبث بها، السيارة مثل المرأة لا يجب أن يعتليها سوى شخص واحد" لا يفهمون ما يعنيه بهذه المقارنة الغريبة، فقط يعرفون أنه يبخل عن إهدار بعض البنزين، رغم ذلك يجلبون سيارة أخرى بطريقة ما، يفتحون مقدمتها، ويربطون سلكا طويلا من قطبي بطاريتها، ويصلونه بقطبي البطارية النائمة

حسب وصفهم، فتستيقظ وتبدأ بالعمل، أما حين لا يجدون سيارة، فإنهم يدفعون السيارة العاطلة من الأمام أو الخلف صوب طريق هابط بحيث تتدحرج بسرعة، ويكون على الشخص الذي يجلس على مقعد السائق أن يدوس على الفرامل والبنزين بقوة، وكثيرا ما يفلح هذا الأسلوب في تشغيل الدائرة الكهربائية للمحرك، لجأ رعد إلى هذا الخيار الأخير الذي لا يملك سواه، اشتغلت السيارة في أول محاولة، قفز الكلب إلى جانبه، شق طريقه نحو مدينة إب، بعيدا عن السبتية والأرياف المحيطة بها، متمنيا ألا يفطن العراة إلى سفره، في الطريق عثر على مجموعة منهم خلف جبل السبتية قرب شجرة عارية من الأوراق، غدت أجسادهم ضعيفة بسبب الجوع، حتى تراءت أضلاعهم ناتئة بارزة ملتصقة بجلودهم، تضاءلت أعدادهم في العامين الأخيرين، توقف ليتأملهم، واضعا يده على مقبض سلاحه المشحون متأهبا لأي هجوم، رأى خاله مانع بين أولئك العراة المتعبين، عرفه ببساطة شديدة، كانوا قريبين من الطريق، حين رأوه اضطربوا وكشروا بضعف، تواروا خلف بعضهم خائفين، تحفز برق للهجوم عليهم، خاطبه الفتى بغضب:

"لا تفعل بحق الله والشيطان "

تلكأ الكلب، ظل مهتاجا يحاول القفز عبر الزجاج المحطم، حتى أعقب رعد بصوت عاتب:

" حفظك الله يا برق، كن مطيعا، ألا ترى حالهم البائس؟! "

بدا الفتى مغتما حقا، ما لبث أن ابتعد عنهم شارد الذهن، هل يملكون بعض المكر ليدركوا أن ابتعاده وكلبه يعني أن الفرصة سانحة لمهاجمة منزله وحقوله؟ سأل نفسه. لم يشأ أن يروه، يخشى أن يتجهوا صوب التل، ويصابوا بمكروه عند السياج، هذا كل شيء، أما هو لن يظل محجوزا في مكان واحد قرب الحيوانات دون أنثى، الثور لديه بقرات، يعيش أحلى أيامه لولا تدخلاته في شئونه، يعزله عنهن في المساء ظنا منه أن ذلك يصب في مصلحة البقرات والثور، لقد كانوا يعيشون في العراء دون مشاكل، يبدو أن عقل الإنسان إذا لم يستخدمه بشكل جيد يجعله متسلطا، يقف ضد فطرة الحياة وغرائزها، ليس هناك ما هو أكثر عدوا للحياة من التقاليد أو القواعد الثابتة، حين يصر الإنسان على التمسك بعاداته ومبادئه رغم التغير المشين الذي يصيب حياة الناس بما في ذلك حياته الخاصة، بمعنى إذا وجد المرء التعاسة تحيط بحياته يتحتم أن يزيل كل مبادئه وتقاليده، قبل ذلك يقبل بالاعتراف أنه ملوث العقل إلى حد التعفن، حين كان القرويون يملكون عقولا كانوا يعزلون الحيوانات عن بعضها، بل ويعزلون النساء عن الرجال، يجبرون أنفسهم على ذلك، مخالفين فطرة الحياة، الآن النساء والرجال أضحوا معتوهين عرايا يعيشون في العراء، يتزاوجون كالبهائم، من الغريب والمضحك أن يظل متمسكا بعادة عزل الثور عن البقرات في زريبته! تغيرت الحياة، وعليه أن يواكب تغيرها أو يفسدها دون أن يشعر، في لحظة تفكير غريبة اكتشف أن المنازل لا تكتمل دون الإناث، حياته بلا طعم أو نكهة، بحيث فقدت هدفها ومعناها، سيبحث عن أي أنثى بشرية أو حتى عارية مجنونة، ومن ثم يعود ليحرر حيواناته من

العزلة، أخذ يقود سيارته مسرعا هابطا من نقيل سمارة، يحدوه اللهف والاشتياق إلى اصطياد أنثى يقضي معها لحظات ممتعة في التل، يحبذ أن تكون مثله قادرة على الكلام والتعبير عما يجول في نفسها، وإن لم يجد سيقبل بأنثى عارية، هكذا قرر في سريرته، كادت سيارته أن تميل عن الطريق أكثر من مرة، كانت هناك قرى واقفة على طريقه، ونساء ورجالا عراة يهاجمون سيارته بضراوة، يخرجون من بين الأحراش والشعاب صارخين كأن كائنا غريبا ظهر عليهم، يضطر أن يسرع بسيارته خائفا أن يمسكوا به، يمنع كلبه عن النباح أو التصدي لهم واضعا راحته على فمه موحيا بالهدوء قائلا برجاء: "إن شئت أن نحصل على الإناث يجب أن نسير بصمت، ليحفظنا الله" لا يستقيم الحال إلا بهاتين الكلمتين الأخيرتين، يسير في طريقٍ ملتوٍ خطير، حين يرى منارات عالية يعرف أنها تخص المساجد المنتشرة في بطون الجبال وأطرافها، يتوقع أن يهاجم من العراة المنتشرين في ضواحي القرى وشعابها وأحراشها، يسيل اللعاب من فمه حين يلمح أثداء النساء العاريات تتأرجح وأردافهن ترتج أثناء الهجوم، مع ذلك لا يغفل عن خطر المهاجمات، لقد رسم خطة في باله باقتناص أنثى منفردة عن القطيع، أي أنثى، لن يتوقف عن السير حتى يعثر على هذه الأنثى حتى لو وصل إلى البحر، هكذا اعتزم أن يفعل، في مدينة الدليل الصغيرة، صار الطريق مستويا، واخضرار الأرض في ازدياد، قفز كلبه بفرح، مساكن كثيرة خاوية يقسمها الخط الأسفلتي إلى نصفين، سار مسرعا واثقا من مهارته في القيادة، يمسك المقود بيد واحدة أحيانا، السيارات واقفة على جوانب المحلات التجارية المنهوبة والمحطمة، لم يسبق أن رأى مركبة أو وسيلة نقل

متحركة في الطرقات، هو الوحيد، لذا يقود في مسار فارغ متخليا عن حذره، كان وادي السحول أخضر رغم أن معظم حقوله مأكولة، هياكل حيوانات منتشرة هنا وهناك، نبح كلبه برق فجأة وقفز من النافذة، مال جانبا وتوقف بعصبية، نزل حاملا سلاحه الناري متأهبا لأي مواجهة محتملة مع العراة، أطل على منحدر مليء بالزبالة والمخلفات التي كان الناس يستغنون عنها، رأى برق يدور حول أنثى شابة نحيلة صفراء اللون، أخذ يغازلها كما تفعل الكلاب، يحتك بجسدها، يمشي أمامها متبخترا واثقا، يمط جسده متثائبا كاشفا عن فكيه القويين، يعرف أن عروض القوة من مغازلات الحب عند إناث الكلاب، في الظروف العادية يتزاوج الكلب الأقوى وغالبية الإناث، أما في هذا الظرف فإنه الكلب الوحيد، وهي الأنثى الوحيدة، هتف الفتى بحماس:

"برق، وجدت أنثاك أيها الخبيث، هيا، أسرع، يا لك من محظوظ"

فتح الباب الأوسط للعاشقين الجديدين، أطلق صفيرا ليشجع الأنثى المترددة على الصعود، تبعت رفيقها القوي ماشية بحذر، صعدت أخيرا بعد أن قذف لها الفتى قطعة لحم مدخن، مضى في طريقه متلفتا حوله بعزم، تظهر عليه الغيرة من رفيقه الذي استنشق رائحة أنثاه قبل أن يراها، أما البشر فلا يملكون سوى حاسة البصر ، أصيب باليأس، لكنه لم يفكر بالعودة، توقف حذاء جدول ماء دافق يسيل عبر مجرى جبلي، أخذ سلاحه وطعامه ولحما مدخنا، طفق يبحث عن موضع مظلل موارب ليتناول غداءه، ويشرب بعض الماء، جلس تحت ظل صخرة معقوفة تقع على جانب المجرى، رمى للعاشقين اللذين يتأملانه بطمع قطعتين من اللحم

المجفف، قفزت الأنثى الهزيلة واستولت عليهما، حاول برق أن يستعيد نصيبه منها، لكنها أبعدتها جانبا بدلال، تراجع بتسامح كما يليق بعاشق، في تلك الأثناء، صدرت حركة من الجوار، صرخة صراع غير متكافئ بين طرفين، كالمعتاد دون كلام، شهر سلاحه ونهض متسللا، رأى في الأعلى رجلا عاريا ضخما يحشر عضوه في مؤخرة أنثى لم تتجل ملامحها، كانت تصرخ وتصارع للتخلص من عضلاته القوية، أوشك أن يطلق النار، خشي أن يأتي العراة من الجوار، أشار إلى برق أن يهجم على المغتصب، بدت أنثاه الصفراء متوارية خلفه خوفا، أخيرا واتته الفرصة ليثبت لها قوته، انقض على الرجل العاري وألقاه أرضا غارزا أنيابه في عنقه، بسرعة شديدة نزع حنجرته وأمسكها في فمه للحظات، ثم رماها جانبا، كان شكله مرعبا والدم يخضب فكيه ويقطر منه، ما لبث أن انقض على الفتاة العارية المذعورة التي عجزت عن النهوض، وأمسك مؤخر عنقها، صاح الفتى بصوت رافع:

"لا يا برق، دع أنثاي وشأنها"

لم يتوقف الكلب الغاضب الشرس، ظل ممسكا بالفتاة المنبطحة على بطنها، راح يكافح للوصول إلى حنجرتها، وهي تصرخ بصوت أعلى من ذي قبل، شهر الفتى سلاحه، واقترب من الأنثى الصفراء المرتعشة قرب ساقيه، داس على جسدها بقوة مصوبا فوهة سلاحه إلى رأسها صارخا بقسوة:

"توقف عن أنثاي أو أفجر رأس أنثاك"

عوت الأنثى بألم، قفز برق مهاجما صديقه الذي غدا شابا يافعا مفتول العضلات ذو جسد خشن وقلب قوي، استقبله الأخير بذراعين صلبين،

تدحرجا على الأرض وكلاهما ممسك بالآخر، الشاب الصغير يحاول أن يكسر عنق كلبه، والأخير يوشك أن ينزع حنجرته، أثناء الشقلبة خيل له أن الإناث لاذت بالفرار لاسيما أنثاه، قال يخاطب كلبه:

" برق، توقف حالا، أظن أن أنثاك وأنثاي غادرتا المكان"

لم ينتظر الكلب أن يتوسل إليه أو يقول له "حفظك الله" التي يحب سماعها، بل قفز باحثا عن أنثاه بين الأحراش القريبة، تفرقا شرقا وغربا حول المجرى، عثر رعد على الأنثى الصفراء تسير في طريق جانبي مبتعدة عن المكان، بدت مذعورة بوضوح تلف ذيلها الرشيق بين ساقيها، سلك طريقا جانبيا مسرعا حتى ظهر أمامها، هربت، أطلق صفيرا هادئا، أخرج قطعة مغرية من اللحم عرضها في يده، توقفت، رمى لها قطعة صغيرة، تبعته طمعا بالطعام، الكلب كذلك عثر على الفتاة المعتوهة العارية، اعترض طريقها مكشرا عن أنيابه، أرغمها على الفرار باتجاه المجرى، التقوا جميعا قرب الجدول، توقف الكلب متجها صوب أنثاه، لعق كل منهما الآخر، تبادلا الكثير من الملاطفات التي لا يستطيع البشر احتمالها، في حين لاذت الفتاة بالشاب اليافع هاربة من الحيوان الشرس، احتواها بذراعيه، تأمل قسماتها وتفاصيل جسدها، تبدو صغيرة السن، لها ثديان ضئيلان، قوام رشيق، عينان مخاتلتان، وجه طفولي، ترسبت على جلدها طبقة كبيرة من الأوساخ، إن تزول عنها حينها يكون بوسعنا القول أنها جميلة ذات بشرة نقية، ظهر الرضا على ملامح رعد، أخرج بعض المكسرات، قدمها إليها، نظرت إليه ببلاهة دون أن تفعل شيئا، حاولت التملص والابتعاد، أمسكها بتوتر، قدم لها لحما مملحا، تناولته بلهفة وأكلت، بدت مخمصة ضامرة

البطن والخصر، وركاها عاليان، عجزها مضموم مثل كفل فرس جموح، شبك أصابعه في يدها، وجذبها خلفه، كلما قاومت قدم لها لحما مدخنا سرعان ما تأكله بشراهة، أجفلت حين رأت السيارة، بالكاد استطاع أن يسحبها إلى المقعد الأمامي، حين تحركوا أصدرت الفتاة صيحة فزع شديدة، أخذ يقدم لها كل شيء قابل للأكل في مخلاته، حتى اتخمت بالطعام، صعدوا الجبل دون مشاكل، في الطريق المؤدية إلى السبتية انتشرت جثث العراة في الطرقات، البعض منهم مازالوا يتنفسون ويتحركون بضعف شديد، وقفت بعض النسور في انتظار موتهم، البعض الآخر تزدحم فوق الأجساد النافقة، أوقف رعد السيارة وسط الطريق، ترجل عنها ملقيا نصف التفاتة إلى الخلف قائلا بضيق:

"برق، هلا تحترس على أنثاي ريثما أعود؟"

أعقب باهتمام:

"حفظك الله، دع أنثاك للحظات وحسب، حاول أن تراقبها من أجلي"

قفزت الطيور مبتعدة عن طريقه، اقترب من الأشخاص المتعبين، غدوا مثل هياكل عظمية مازال الجلد يغلفها، رأى جلد خاله مانع مبقعا ببثور ينز منها الصديد، سد أنفه متأففا بذهول، كانت الروائح الكريهة تملأ الأرجاء، اقترب من جسد آخر مازال حيا يزحف مثل سحلية مهشمة، رأى البقع الداكنة والصديد على جلده، التفت مذهولا إلى السيارة كأنه يبحث عن شخص ما يخبره عما يدور في ذهنه، لمح الأنثى الصفراء تقفز من النافذة وتهرول صوب الجثث، اندفع مسرعا، وركلها بعنف صارخا:

"لا تلمسوا الجثث"

عوت بألم، ووقعت على الأرض، هرع برق بتوتر، وطرح صاحبه أرضا، أطبق فكيه على فخذه، واستمر متشبثا بجسده، صرخ الشاب على كلبه بألم:

"اتركني يا برق، هناك وباء خبيث، لا تدعها تلمس الجثث"

"حفظك الله، دعني"

كان الكلب غاضبا جدا، لم تنفع عبارة "حفظك الله" في تهدئة روعه، اندفعت الفتاة العارية بحمية، وسددت له ضربة قوية بحجر وقعت على رأسه، رفع رأسه إليها، كشر عن أسنانه الحادة، واقترب منها يشع من عينيه بريق مخيف، صاح الشاب برجاء:

"دعها وشأنها بحق جميع الشياطين والآلهات "

ارتقت الفتاة سطح السيارة بسرعة شديدة، بقي الكلب يدور حولها محاولا الارتقاء إليها مصدرا صوتا وحشيا، اعتلا في قفزة مفاجئة حجرة المحركات، وأوشك أن يثب إلى سطح السيارة ليمزق الفتاة العارية المرعوبة، أتى صوت الشاب الحاد الذي شتت انتباهه:

"هيه، برق، انظر إليّ، لقد هربت أنثاك"

خفت بريق عيني الحيوان بشكل مفاجئ، وهز رأسه كأنما لم يفهم ما يعنيه، مكث قليلا في حيرة، ثم قفز إلى الأرض، وأخذ يجري كالمجنون، مديرا عينيه في المكان باحثا عنها حتى اختفى، أخرج الشاب معقما من مخلاته

ولفة شاش وعطب، وسكب السائل الأزرق فوق جروحه، ابتعدت الفتاة العارية عن الطريق هي الأخرى كأنها تنوي الهروب، توقفت فجأة حين رأت الكلب عائدا تبدو عليه الخيبة والسخط، تأملته حين قفز إلى موضعه في المقعد الأوسط، في تلك الأثناء، نهض الشاب مترنحا متجها إلى السيارة، نظر إليها بغيظ، وصرخ مشيرا إليها بيده قبل أن يوصد الباب خلفه بحنق:

" هيا، ارحلي، ماذا تنتظرين؟ أنت حرَّة"

أعقب ناظرا إلى كلبه عبر المرآة الخلفية:

"أتمنى ألا تكون مسعورا"

قاد السيارة مبتعدا بلا اكتراث، راقب الفتاة العارية بالمرآة، مازالت واقفة دون حراك تراقب السيارة، تمنى أن تؤوب إلى منطقتها، لا يستبعد أن يأتي أولئك العراة باحثين عنها مزمعين الانتقام من المختطف، سيلمسون الجثث ويعودون حاملين معهم العدوى، كان قبل قليل منتشيا بالحصول على أنثى، لكن رحلته انتهت نهاية سيئة، من المحتمل أن يصاب بالسعار أو الوباء، علاوة على خسارته لأنثاه التي تخلى عنها في مكان غير بعيد من التل، لقد فعل هذا مكرها، يكاد الحزن يفطر روحه على الفتاة التي أنقذته من كلبه المجنون معرضة نفسها للخطر، يا له من حظ تعيس، طفق يقود السيارة بعصبية، شاعرا بفتور وإحباط لا يوصفان، بينما هو يفكر، تجلت يدان صغيرتان تقبضان على باب السيارة، دخلت الفتاة العارية عبر النافذة، فانفرجت أساريره بشكل غير مسبوق، ضحك بصوت عال، في

حين نبح الكلب بصوت صاخب مكشرا عن أسنانه دون أن يجرؤ على الهجوم.

وصلوا إلى التل أخيرا، انسل برق صوب الحقول، في حين زحف رعد صوب المنزل مترنحا في مشيته، تملكه عجب شديد من انسياق الفتاة العارية خلفه، لا ريب أنها تعرضت لأذى شديد في أرضها، هل هي ممتنة لأنه أنقذها من ذلك المغتصب اللعين؟ لا يدري، دلف إلى الداخل، أشار إليها أن تتبعه، ابتعدت عن المدخل، دارت في المكان، طاردت الحيوانات، أغضبت الكلب برق الحانق من فرار أنثاه، هاجمها معتزما أن يقضم عنقها، أطلقت ساقيها للريح، تسلقت جدار المنزل، هرولت عبر باب السلالم حتى اندست قربه، اقتحم برق الحجرة مهتاجا بجرأة غير مألوفة، وجدها محتمية في موضع لا يستطيع أن يبلغه، انتظر للحظات، ثم غادر مرتجفا من الغيظ، رائحتها المنفرة جعلت جو المنزل مقززا يبعث على الغثيان، مع ذلك شعر الشاب بالإثارة حين التصق عريها القبيح بجسده، انتصب ذكره ثم ذبل سريعا، رائحتها المقيتة جعلته ينهض إلى المخزن، جلب بضع قطع من الصابون والمناشف والليف المناسبة للاستحمام، وضع قدرا كبيرا من الماء على نار الموقد، انتظر نصف ساعة حتى صعد البخار ساخنا، بالكاد استطاع أن يحمله إلى الحمام، أضاف كمية من الماء البارد، ثم جذب الفتاة التي قاومت بشدة مثل طفلة لا تحب الاستحمام، لم تقبل حتى رأته يدخل القدر الواسع، دعاها بالدخول، اقتربت بحذر، أخذ يصب عليها الماء الدافئ، وضع في شعرها الملبد معجون الشامبو، فرك خصلاتها دون أن تظهر رغوة، حاول بضع مرات، حتى ظهرت الرغوة أخيرا، رغم ذلك تكسرت

نصف أسنان المشط وهو يحاول أن يمرره بين خصلاتها المتماسكة الملبدة بالأوساخ، جعلها تغمض عينيها حتى لا تصاب بالالتهاب، خرج من القدر خائفا أن تتأذى جروحه، انتقل إلى جسدها، فركها من أعلى بالليف، أخذت تتلوى حين فرك نهديها الواثبين وأسفل بطنها المستوية، كانت عانتها كثة مثل لحى الرجال المحافظين الذين عاشوا قبل حادث الجنون، بالكاد جلاها بالموسى لشدة تماسكها، أزال شعر إبطيها بعسر أيضا، كان يدغدغها، يند عن ثغرها ما يشبه الانزعاج أو الابتسام، انحنى على ساقيها وقدميها مثل أم متفانية، خرجت بصورة بهية من القدر مثل خروج جنيه ذهبي من حجرة تفتيش لمياه الصرف الصحي، الماء أمسى عكرا مسودا كالقطران، ظهر بياض بشرتها وجمالها المدفون، بالرغم من ذلك مازال ينوي أن يغسلها حتى يصير لون الماء طبيعيا بعد الاستحمام، جففها بالمناشف المتهالكة، قرب شفتيه من ثغرها المفتوح، تركته يتناول شفتيها، أغثته روائح فمها، وضع شيئا من معجون الأسنان في الفرشاة، أدناه من أسنانها الصفراء، طالبا منها أن تبقي ثغرها مفتوحا، امتصت المعجون وابتلعته دون اكتراث، هز رأسه بامتعاض، بالكاد استطاع أن يفرك أسنانها من الخارج بالفرشاة، امتصت المعجون، كذلك العلكة التي ناولها إياها، مضغتها وابتلعتها بسرعة، أدنى شفتيه من شفتيها، امتصها، بدت رائحتها مقبولة نوعا ما، داعب نهديها، حين وضع أنامله على عانتها، فرت منه بشيء يشبه الدلال، إنها أنثى، مازالت رغبتها الجسدية تعمل على نحو طبيعي، تعرف بالغريزة ما يبثه جسده من إشارات جنسية، ليست بحاجة إلى التفكير في ذلك، إنه مثلها لا يرتدي شيئا، عضوه منتصب يذوب

باستمرار، تنقل عيناه إليها رسائل الشبق التي يفهمها جسدها، تأملت عضوه بفضول، انتظرته قرب الباب، تريد أن تخرج إلى العراء الذي اعتادت أن تسكنه، فكر رعد إن هذا غير ممكن، إنه جريح، يخشى على جرحه من التلوث، عقله يشير إليه أن يبيت داخل المنزل، لأن الجو بارد في الخارج، لا يعرف أين بوسعها أن تبيت، يخشى أن يفترسها برق حين يشعر بأي إزعاج منها، رافقها إلى الباب، ظلت واقفة تتحرك بالجوار، لا تجرؤ على الابتعاد أكثر من ذلك، لا ريب أنها تخشى أن يهاجمها الكلب، فكر بذلك، جلب فراشين عتيقين، رمى أحدهما إلى الخارج، أشار إليها أن تقترب، أطلق صوتا مبحوحا يشبه النباح، موحيا إلى الخطر الذي يهددها، ظهر عليها الذعر، اقتربت، مكثت قرب المدخل دون حراك، ما لبث أن شعر بالجوع، ذهب إلى بيت النار، صنع عجينة كعك الذرة مضيفا لها بعض الخميرة، انتظر أن تتخمر بعض الوقت، قطع العجين إلى قطع صغيرة، وطلاها بالحليب واضعا عليها بعض الزبيب واللوز والفستق، ثم أدخلها الفرن، كما غلا بعض الشاي، في الوقت المناسب، حمل الوجبة والشاي إلى عتبة الباب، خطفت كوبها الزجاجي الحار دون حذر، وتركته يتهشم على الأرض، أكلت الكثير من الكعك حتى برزت بطنها المخمصة، استندت إلى الجدار مترنحة كالحبلى، تجشأت بصوت فظ، ثم صدرت عن معدتها قرقرة معوية حادة، بعد لحظات، ظهرت على وجهها تكشيرة ألم، عرف ما يعتريها، ليست معتادة على هذا النوع من الطعام، طعامها المألوف هو توليفة متنوعة من أوراق الشجر أو اللحم النيئ أو بعض الثمار البرية، لذا أصيبت بالمغص وعسر الهضم، رآها تتأهب لقضاء حاجتها على الأرض، سحبها من معصمها

صوب الحمّام، لم تستطع المقاومة بسبب الألم، وضع قدميها على المكان المناسب بالمرحاض، أمضى أياما كثيرة وهو يدربها على الجلوس فوق المرحاض، حتى أضحت تقضي حاجتها على أي جزء في الحمام، ظلت تنقصها اللياقة والآداب مثل أي بهيمة، لكنها ظلت مرتبطة بالمكان، تأتي وتذهب إلى المنزل، في الغالب تنتظر قرب المدخل، لا تجازف بالدخول إلا إذا سحبها رعد مرغمة، تظل تلوب طامعة في اقتراب الذكر الوحيد في التل، في الليلة الأولى والليالي الثلاثين التالية جلسا متباعدين، ينامان مهتاجين لا تفصل بينهما سوى عتبة الباب، جرّب أن يقترب من جسدها المهيأ للتزاوج، لكن الألم لم يسمح له أن يقوم بتلك الخطوة التي يلزمها الحركة والولوج، كان الجرح يصطدم بجسدها الثائر المجنون الذي لا يكف عن الحركة، تصرفت بوحشية مع جسده، أرادت أن يلج في جسدها سريعا، لم تأبه بصراخ ألمه، أو بالأحرى لا تدرك ما ينتابه، صارت تجذبه بقسوة حتى أوشكت أن تزهق روحه، لم تتوقف سوى حين سمعت نباح الكلب برق يصدر من الجوار.

كان الأخير يأتي مكشرا أسنانه كلما سمع أصوات ألم صاحبه وصراخ الفتاة العارية المهتاجة، ظل رعد يناديه ويحرص أن يكون إلى جانبه معظم الوقت، اعتنى بتطهير جروحه كل يوم، ثم يلفها بشاش جديد، مع انتهاء الشهر، شفيت جروحه، وشرع والفتاة يدخلان في بعضهما بقوة، ويتأوهان باستمتاع، أضحى برق يحاول منعهما من الالتقاء، حتى عندما لا يصدران صوتا يكشر عن أنيابه متحفزا للهجوم، ينفصلان عن بعضهما خائفين مرتعشين، يصيح الشاب بصوت محتد ضارع: "دعنا وشأننا بحق

الشيطان، ماذا دهاك؟" يبتعد الكلب أو يبقى سيان، لأنهما يكونان ذابلين وغير قادرين على المتابعة، يكون الرعب ساكنا في روحيهما لاسيما الفتاة، كانت تلك لحظات عصيبة تدفع الشاب إلى حافة الجنون، أكثر من مرة يصوب السلاح، ويطلق النار على الكلب المتنمر، تصيبه الطلقات النارية في أماكن متفرقة من جسده، في بعض الأحيان، يهرب برق مسرعا، وفي أحايين أخرى يبتعد بخطوات بطيئة بلا اكتراث، وفي كلا الحالين، لا تظهر في جسده آثارا لجروح أو دماء، لا تلوح على جسده أية ثقوب، يصيبه هذا بالذعر والعجب، يعاوده الارتياب في هذا الكلب الغريب، أهو شيطان أم ملاك؟ لماذا لا يريده أن يقيم علاقة مع أنثاه؟ هل يصاب بالغيرة من دخول الفتاة العارية إلى حياة رفيقه الدائم؟ أم تراه يحقد عليه مذ ركل أنثاه بقسوة؟ دارت في رأسه كثير من التساؤلات، اضطر أن يوصد باب المنزل في وجهه، ويقضي وأنثاه معظم الوقت على سطح المنزل، يتعاشران ويراقبان ما يجري في الخارج، ثم ينامان، هو يخلد على فرش من الأسفنج البالي متدثرا بغطاء صوفي ثقيل، وهي ترتمي على لوح خشبي دون دثار.

أطلق عليها اسم سنبلة لأنها كانت نوعا ما تشبه فتاة تحمل هذا الاسم عاشت ذات يوم في قريته، استمر يناديها بهذا الاسم مدركا أنها لن ترد عليه، أحيانا كانت تلتفت إليه دون أن يظهر أي تعبير على ملامحها، تعلمت القليل من الأشياء في الفترة التي قضياها معا، تذهب إلى المرحاض، تنام على السطح قرب رعد، تستجيب إليه حين يأخذها برفق ليغسلها أو عندما يحذرها من برق، بدأ جسدها بالامتلاء، وتكيفت معدتها مع الطعام البشري، لكن علاقتهما الجسدية فترت، لاحظ أن دورتها الشهرية لا تأتي،

وهو أمر لا يعرف عنه الكثير، كان أحيانا في طفولته يسمع نساء القرية يتحدثن عن هذا الأمر الذي لا يفهم عنه شيئا، أما حين وصل إلى الصف السابع، فقد صرن يحذرن من الحديث أمامه عن هذه الأمور، صار يفكر إن كان بوسع سنبله أن تحمل منه أو لا، إن وضعت طفلا لا يدري هل ينمو عقله وتتفتح مداركه وأحاسيسه البشرية أم يرث جنون أمه وخرسها؟ كان يصبو أن تضع أطفالا يساعدونه في عمل الحقول، أو يتحدثون إليه قبل أن تضيع منه اللغة أو يصاب بالخرس بسبب صمته الطويل، أو حتى يقومون بدفنه بعد موته على الأقل، تذكر أنه لم ير أطفالا في السبتية أو في أي مكان يعيش فيه العراة المجانين، سأل نفسه عما يجعلهم مصابين بالعقم، أم لعل حياتهم الفوضوية المجنونة لا تؤهلهم للإنجاب، وتحكم عليهم أن ينقرضوا دون أسف! كيف نجا هو من كارثة الجنون؟! ماذا جرى للناس أثناء احتجازه في القبو؟ سؤالان يطاردانه منذ سنوات، قرر بيأس أن يتجاهل التفكير بأمرهما! لأن سؤالا مُلحا ثالثا يطل في رأسه، هل ما يجري له أمر حقيقي أم حلم لا يفتأ أن يصحو منه قريبا؟

تأمل آثار جروحه، قرص جسده ليتأكد أنه يتألم على خلاف ما يدور في الأحلام التي لا يشعر الرائي فيها سوى بالفزع، تفرس حوله، كل شيء بدا واضحا مرسوما بعناية كما صنعته الطبيعة، الأمر الذي لا يبدو طبيعيا هو أن تفر منه الفتاة العارية التي كانت بمنتهى الشبق، خشي أن يكون جسدها متكيفا على اللقاء في موسم واحد مثل المواشي والكلاب، حاول أن يغتصبها دون جدوى، كانت قوية مثل شيطان، بحيث تملصت منه بيسر، لجأ إلى حيل كثيرة ليستدرجها إلى علاقات سريعة، نجح في بعضها وأخفق

في أخرى، أضحى يتبعها مثل ظلها، حتى غفل عن موسم تقليب التربة والبذر، في حين ظل برق يراقبهما بحذر.

في يوم بعد مرور عشرة شهور، أطلق برق ضجة مزعجة من النباح القوي غير المألوف في تلك الفترة، كانت الشمس بازغة في الأفق تنبئ عن يوم رتيب مثل غيره من الأيام السابقة التي مرت على التل، نهضت سنبلة بتحفز، أخذت تشم الهواء مصيخة للأجواء، ما لبثت أن هرولت ونزلت على الجدار مثل سحلية جبلية، أخذ رعد سلاحه وتبعها مسرعا ليرى ما دهاها، توقف مندهشا على حافة السطح، رآها تتجه صوب عشرات العراة يقفون خارج السياج منتشرين بشكل فوضوي، ما لبثوا أن أطلقوا صوتا صاخبا حين رأوها، تحركوا في جلبة غير مفهومة حولها، لكنهم بدوا سعداء أو هكذا بدا الأمر، البعض منهم اقتربوا من الفتحة السرية، كان الكلب يكاد يقفز من أعلى السياج مطلقا النباح، في تلك الأثناء، دخل بعضهم، فانقض عليهم برق وقضم أعناقهم، فأحجم البقية عن الدخول حين شموا دماء رفاقهم، أخذوا يقذفون الأحجار ناحية الكلب الشرس، أفاق رعد من جموده، لم يعبأ باقتحامهم السياج وقذفهم الأحجار، ولا بشيء آخر من هذا القبيل، ظل يتابع بنظره سنبلة، بالكاد كان يعرفها بين العراة الذين يتشابهون باللون، صاح بصوت حاد: "سنبلة، عودي."

لم تلتفت ناحيته، كانت تتحرك بحيوية بين أولئك المجانين، رأى فجأة أحدهم ضخم الجسد يتقدم منها، وينكحها في مؤخرتها، رآه يقوم بتلك الحركات التي تتطلبها المعاشرة العجولة، لم تفر منه كما كانت تفعل حين

يقترب منها، شعر رعد بالغيظ والغيرة، كاد أن يبكي بصوت عالٍ، صاح بصوت مختنق:

"سنبلة، هل يروق لك العراة أيتها البغيضة؟"

صوب سلاحه إليهم، وأطلق النار، أصاب ذلك الرجل العاري في رأسه، ابتعدت سنبلة مذعورة، عادت لتنحني على القتيل وتتحرك حوله مصدرة أصوات صاخبة، نظرت إلى رعد بشكل حاد، وأطلقت صيحة مريعة، وهجمت عبر الفتحة، ارتفعت الصيحات، وهجموا خلفها، تحاشاها الكلب، وهاجم العراة الآخرين، البعض منهم شقوا طريقهم نحو المنزل، تتقدمهم سنبلة، عرف رعد أنهم سيمزقونه إربا، رمى قنبلة، انفجرت في الأسفل بصوت له دوي مرعب، أصيبوا بجروح بليغة، أطلق النار عليهم قبل أن يفيقوا من دهشتهم ورعبهم، هربوا خلف المنزل، هاجمهم برق، كان خائفا ومغتاظا ومجروح القلب، بعض الجروح في القلب تولد حقدا لا يستطيع أحد إطفائه سوى بالدماء، صارت الطلقات تخرج من سلاحه الآلي لتقع على أجسادهم دون أن تخطئ، نزل ليراهم محصودين، أكثر من خمسين رجلا، هربت سنبلة مثل الضبي البري، تفاداها رغم غيرته، كان لئيما يضغط على الزناد دون أن يدقق في فحص الوجوه، لكنه عرفها بيسر، لم تطاوعه نفسه أن يصيبها بعيار ناري، انتقل إلى شخص آخر، لقد أدرك أن حياتها لم تعد تعني له شيئا، كما أن موتها لن يشفي غليله، موتها وحياتها سيان. كانت هي الناجية الوحيدة من هذه المجزرة، رآها تتفرس في جسد القتيل الذي نكحها خارج السياج، شعر أنها حزينة بشكل لا يوصف، ما

لبثت أن نظرت إلى رعد لآخر مرة، وأطلقت صيحتها الأخيرة، وابتعدت بسرعة شديدة مخلفة ورائها فراغا كبيرا في المكان.

هدوء رتيب في التل، الغرف مليئة بالحبوب، لمن يزرع ويحصد، شعر بالسأم، ماذا يفعل؟ ينام معظم الوقت، يأكل ويعود للراحة، بدأ جسده يفتر ويترهل، افتقد إلى المغامرة، اشتاق إلى فتاته سنبلة، سيبحث عنها، أو عن أخرى تبعد عنه شبح العزلة، ليس بوسعه البقاء برفقة الحيوانات في التل، أخذ سلاحه الناري وما تبقى من الرصاص، نزل إلى سيارته يتبعه برق، ملأها بما تبقى من البنزين في مخزن العم ناصر، شغلها بالطريقة التقليدية وهي التدحرج والضغط على الدواسات، اتجه في طريقه نحو المحافظة الخضراء، على طريق السبتية رأى هياكل عظمية كثيرة للعراة، حتى على طرقات نقيل جبل سُمَارة، كانت هناك جثث متناثرة حول القرى وعند أطراف الأحراش المحاذية للطريق الأسفلتي، عرف أن الوباء أخذهم وجفف أجسادهم بسرعة، كان يقود بتوتر شديد، منظر الهياكل كان يخيفه رغم أن العراة الأحياء كانوا يشكلون خطرا كبيرا على حياته، بدت الهياكل قديمة، ما يعني أن الوباء حصدهم في آن واحد، وصل إلى نهاية الجبل، نزل إلى السهل، حيث وادي السحول، استمر يسير حتى بلغ الموضع الذي وجد أنثاه هناك، مازال المجرى يسيل متدفقا كما كان رغم الجفاف، نظر إلى كلبه باستفهام، قال يخاطبه بضيق:

"ساعدني يا برق على العثور على المساكن القريبة من هذا المجرى" كانت الغيرة تنهش قلبه، كان يظن أن سنبلة باتت مرتبطة به روحيا، لكنها تعرف شخصا آخر في قطيعها الحيواني، سار برق في طريق جانبي وهو خلفه لا

يحيد عن السير، ظهرت بيوت قليلة مفتوحة محطمة النوافذ عرض ربوة خضراء مكسوة بالشجيرات، بدت الأشجار حول القرية سليمة البراعم والأوراق، ما يعني أن العراة لم يأتوا إلى هذا المكان منذ أسابيع، سأل نفسه إن كانت سنبلة قد عاشت في هذه القرية الصغيرة، دار في المنازل التي تبدو مهجورة، تصفح مقتنيات السكان المحطمة والسليمة، مازالت بعض الصور معلقة على الجدران وسط إطارات خشبية، يحميها زجاج أبيض بات يغطيه الغبار، في أحد المنازل رأى صورة فتاة صغيرة وفتى صغير ورجل كبير، كانت الفتاة تشبه سنبله نوعا ما، ترتدي فستان أبيض منفوش، كما لاحظ أن الشاب الذي كان يقترب منها ويشمها بتودد يشبه هذا الفتى، فتح الإطار، أخرج الصورة، ونظر إلى خلفها، كتب هناك ألفاظ قليلة: "التوأم علي وسامية، ووالدهما ناجي"، صعق من المفاجأة، شعر بالأسف، إذ ظن أن ذلك الشاب هو حبيب الفتاة. عاد للتو إلى سيارته، وقال يخاطب كلبه برق بانفعال: "سنبلة غاضبة لأني قتلت شقيقها، لا تدرك أني قتلت أقاربي أيضا" ساروا في طريقهم باتجاه المدينة مستعينين بالأسهم واللافتات المنتصبة على جانبي الطريق .

لم يلمح أي هياكل أو عراة أحياء بعد، تفحص الأحراش المحيطة باحثا عنهم دون جدوى، ثمة طيور تصدح بالوادي ما ينم عن خلوه من المجانين، صعد باتجاه هضبة واسعة يكسوها غطاء نباتي طبيعي كثيف كأنما فرشت بالسجاد الأخضر ، يردد الناس باستمرار إن النبي الخَضِر سكن في هذا المكان، بحيث تلاقي حظا جيدا من الأمطار الموسمية التي تهطل باستمرار على هذا الهضبة ومحيطها طوال الصيف، أخيرا لمح شرذمة من

العراة يتحركون في دغل بعيد، دخل المدينة، عمارات ضخمة وسيارات مركونة في كل مكان، الكثير منها _لاسيما حافلات النقل _ مكدسة وسط الطريق، بعضها اصطدمت بالبعض الآخر، كأن أصحابها أصيبوا بالجنون أثناء قيادتها، سكون تام يغشى الشوارع والأحياء، عرج على محطة بنزين، ركن سيارته فيها، أخذ أنبوب الضخ ليتزود بالوقود، لم يكن يعمل، رماه جانبا بضجر، رمق سيارة بيضاء نوع بورش فخمة قرب ماكينة الوقود، تفحصها، استطاع أن يفتحها، رأى مفتاح التشغيل في موضعه، نظر إلى سيارة الجيش التي يقودها بازدراء، ركب برق إلى جواره، أدار البورش الحديثة بيسر، كانت تسير بهدوء، تعمل أوتوماتيكيا، أعيق بسيارات وحافلات سدّت الطريق، تركا السيارة هناك، وسارا في الشارع الذي ترتفع على جانبيه بنايات عالية من بضعة طوابق، بنوك، مراكز تجارية، مؤسسات، مبان سكنية، فنادق، دخل بنك الكريمي، رزم ضخمة من العملات المحلية والأجنبية مبعثرة في الداخل، ملايين الريالات والدولارات واليوروات، ركلها بقدمه بلا اهتمام، هذا البلد صار مقفرا، يستطيع أن يدعي أنه بات يملك كل شيء في المدينة، فكر بضيق، ماذا يرجو منها؟ لم يعد لأي شيء قيمة باستثناء الطعام والماء، دخل إلى مركز تجاري ضخم، ماركات الساعات، الألماز، الذهب، البذلات الايطالية والأمريكية، الأحذية، والعطور الفرنسية، ضحك بمرارة حين دار في ذهنه أنه لا يستطيع أن يأخذ شيئا من الألماس والذهب، أمسك حفنة من الماس اللامعة، حبات زرقاء داكنة وأخرى بيضاء شفافة، بعضها بحجم بيض الحمام، طوحها بعيدا لتتناثر فوق أرضيات لامعة، حمل كومة من الذهب، تصفحها قليلا، ثم

رماها تحت قدميه وداسها بحنق، مع ذلك، شعر بشيء من التهيب والقلق، ماذا لو عادت عقول العراة بطريقة ما! ومن ثم يأتي مالك محل المجوهرات ويراه وهو يرمي مقتنياته الثمينة ويدوسها؟ سوف يقطعه إلى أشلاء دون شك، رأى صور مأكولات مرسومة على لوحات فلكس كبيرة على جدران محل كبير، عرف أن ذلك محلا للوجبات السريعة، هرول باتجاهه طامعا بالحصول على شيء يأكله، وجد كل شيء منهوبا محطما، بدا المكان مهجورا منذ بضعة أعوام، لم يظن أن يلاقي طعاما صالحا للأكل، صادف في مخزن السوبر ماركت كراتين مكدسة فوق بعضها، علب تونا، لا شك أنها منتهية الصلاحية، تناول علبا عديدة، فتح إحداها بواسطة مفك العلب، شم نكهة غريبة جعلها الجوع طيبة، فتح بضع علب، قدمها للكلب الذي شرع يبتلعها دون تردد، ابتلع قطعة دون روية، ابتلع ثانية وثالثة، فتح الكثير من العلب، البطون الجائعة تطحن المعفن والآسن دون أن تبالي، تجشأ بصوت عالٍ، ليس هناك من ينزعج من تجشؤه العالي، فليفعل ما يشاء، هكذا فكر، ميزة أن تعيش وحيدا ألا أحد يقف في وجهك ليلقنك الآداب، خرج وبرق من المركز الضخم، قاد سيارة لاندروفر متجها نحو الشوارع الداخلية، أمسى متخما يفكر أن يسير إلى مكان أفضل، لا يعرف أي مكان مميز بوسعه أن يبلغه، بدا مشوشا، يدرك أن هناك متنزهات طبيعية، لماذا يريد هذه المتنزهات؟ لا يعرف، مجرد أمنية ساورته منذ أمد طويل ويود أن يحققها الآن، طالما سمع عن طبيعة المحافظة الخضراء، لكنها في الحقيقة مدينة قبيحة، أبنية إسمنتية عشوائية تم تشييدها دون ترتيب مسبق، بنيت فوق الحقول واتسعت بشكل جنوني على الوادي القريب، لم يتسن له زيارة

متنفس جميل سوى مرة واحدة برفقة والديه، كان صغيرا بحيث لا يذكر سوى القليل عن زيارته، ذهبوا إلى منتزه طبيعي رائع، يوجد مسبح دافئ للأطفال، وآخر للكبار أيضا، ما اسم هذا المكان؟ ظل يفكر دون أن تسعفه ذاكرته، بالمصادفة قرأ لافتة عليها اسم جبل ربي، المنتزه الوطني، صاح بفرح: "هذا هو" انعطف بالسيارة إلى الطريق الذي أشار إليه السهم، كانت ثمة سيارات كثيرة متوقفة أمامه، ناور حتى وصل إلى طريق مسدود بالسيارات أسفل الجبل، أوقف السيارة، نزل ليمشي على رصيف صغير صاعد، تبعه برق دون تردد، طريق ملتوي، انعطافات متلاحقة مكتظة بالسيارات الحديثة التي مازالت المفاتيح عليها، معظمها محطمة النوافذ اصطدمت بسابقتها، ارتقى إلى حيث المنتزه، تذكر الباحة الكبيرة، والمبنى الكبير، أطل على السهل في الأسفل ملقيا نظرة، رأى العراة بين الأحراش يأكلون من الأشجار والشجيرات، مقرفصين كالقرود، نبح الكلب، زجره الشاب محذرا وقاده نحو البناء، لن يعرفوا شيئا عنه إذا لم يصدر أي صوت، لا يستطيعون أن يشموا رائحته من الأسفل، ألف ومائتين متر تفصلهم عنه، لم يهتم، اضطر في الفترة الأخيرة _لاسيما بعد فرار سنبلة_ أن يدع الأوساخ باقية على جسده حتى يتفادى حساسية أنوفهم الشمّامة، تعمد أن يسير عاريا قذرا تفوح رائحته في الأرجاء، أمسى لا يختلف عنهم في شيء، بفضل ذلك دخل المدينة، ووصل إلى رأس المتنزه بسلام، فكر أن اغتساله بات حتميا، هناك آلاف المركبات في المدينة، بوسعه أن يأخذ أجمل مركبة ويغادر سريعا، دخل صالة المبنى الواسعة، قادته الإشارات إلى المسبح، وقف أمام مسبح الأطفال هنيهة يستمتع بذكراه القديمة، اتجه إلى

محل لبيع أدوات الاستحمام، خطف صابون جسم وشامبو شعر دون تدقيق، سار على عجل إلى المسبح، وجده ممتلئا بالماء البارد الذي تغطيه رواسب قديمة وغبار حتى صار يبدو راكدا تطفو عليه طبقة خضراء من الطحالب، وضع عدته، قفز في الماء قرب سلم الصعود، شهق من البرودة، سوف يشم العراة رائحته، لكن هذا لا يهم، سيهرب بالسيارة، دار هذا في ذهنه، قال بصوت آمر مخاطبا كلبه: "احترس يا برق، لا تذهب بعيدا" اغتسل مستخدما كل الشامبو والصابون الذي أخذه، ساعة من الزمن حتى تحول سطح المسبح إلى راسب أبيض من الرغوة، خرج وجفف نفسه بمناشف قديمة معلقة على المشاجب، ارتدى حزام الجعب وتناول سلاحه، وجلس على مقعد بالصالة تحت شعاع من الشمس ينفذ من الزجاج، فجأة سمع صوت طائرة محلقة أو شيئا يهدر في السماء، لم يصدق أذنيه، خرج سريعا إلى حافة الجبل، رأى طائرة محلقة فوق الوادي، بقي مندهشا للحظات، كان العراة يصرخون في الأسفل، صرخ بدوره دون وعي، نبح الكلب بضراوة دون أن يزجره، ظل يصرخ دون جدوى، هناك أشخاص نجوا من الجنون، وقائد هذه الطائرة هو أحدهم، فكر بأمل كبير، ما لبث أن توقف عن الصراخ بيأس، وطلب من كلبه أن يتوقف ، صارت الطائرة عند أطراف الوادي، مزقه الندم، انتبه إلى سلاحه، أطلق النار خلف الطائرة البعيدة في محاولة عبثية للفت انتباه الطيار، ثم رمى القنبلة الوحيدة التي بحوزته إلى الأسفل، دوى انفجار هائل، وثار دخان كثيف تصاعد في موقع الانفجار، لفت هذا انتباه العراة، صرخوا وشرعوا يتجهون صوب الجبل صاعدين المنحدر كالسحالي، لم يكترث لأمرهم، راقب الطائرة

الصغيرة التي استمرت في التحليق بعيدا، ثم رآها فجأة تنحرف يمينا وتأخذ دورة كاملة، أخذ يلوح بالمنشفة الحمراء بفرح، اتجهت ناحيته، ثم استدارت إلى جهة اليسار بحيث شاهد شخص الطيّار، فتاة يافعة ترتدي قبعة ظريفة، رفعت يدها باندهاش، أشار لها أن تهبط، دارت دورتين حول المتنزه، بدت خائفة منه، طوح سلاحه بعيدا في الفراغ، حين ذلك مالت باتجاه الباحة، هبطت على الساحة الطويلة الفارغة، استمرت الطائرة تنزلق حتى توقفت على بعد ثلاثة أمتار من الجدار، قفز فرحا باتجاهها، تبعه كلبه وهو ينبح بحماس، نزلت فتاة بيضاء، لعبت الريح في شعرها الأسود، لاح طويلا على شكل ذيل فرس انجليزية، كانت تمسك بندقية غريبة تشبه أسلحة القنص، ترتدي بنطال جينز أزرق وسترة بيضاء ذات خطوط داكنة متقاطعة تشبه خطوط الطول والعرض على مجسم الكرة الأرضية، ظهرت إلى جانبها كلبة بيضاء رشيقة، نبحت بقوة، قابلها برق بنباح شديد، طلبت منه أن يتوقف بلغة غريبة وإشارة حادة من يدها، وقف متجمدا، صاحت ثانية مشيرة إلى برق بنزق: "stop your dog too" فهم هذه الجملة، صاح على برق أن يتوقف، ظل رافعا يديه إلى سواء كتفيه، لكنها استمرت مصوبة سلاحها إليهما بشكل جاد، رأى إصبعها ترتعش على الزناد، عرف إنها لا تمزح، قال برجاء: أرجوك أيتها الفتاة، لا تطلقي النار، لا أستطيع أن أتكلم الانجليزية للأسف.

قالت بلغة عربية مكسرة: أنت رجل عاري، انظر إلى نفسك.

نظر إلى جسده، كان مكشوفا فعلا، شعر بالاضطراب، وضع المنشفة على فرجه بسرعة، قائلا بارتباك:

"آسف، إنها مجرد خدعة، سوف يقتلني العراة إن لبست شيئا من الثياب، إنهم قادمون الآن.."

أشار لها أن تأتي، اقترب من الحافة، هرعت خلفه غاضبة طالبة منه أن يتوقف، أشار لها أن تقترب قائلا بخوف:

"انظري، إنهم يصعدون الجبل كالسحالي"

خافت أن يخدعها، ويدفعها للأسفل، هكذا بدت مترددة، فهم ما يدور في ذهنها، ابتعد عن الحافة مفسحا لها الطريق لكي تنظر، اقتربت قائلة بسخط:

"ماذا هناك؟"

رأتهم يصعدون بسرعة كبيرة صوب المتنزه، كانت أصواتهم تأتي من الجهة الأخرى أيضا، أسرعت إلى طائرتها، كان الحيوانان يركضان في أرجاء الساحة وينبحان، أفصحت بأنها لم تكن مهيأة للإقلاع بتلك الوضعية، لم يفهمها، أخرجت حبلا، وطلبت منه أن يساعدها في تغيير وضعية الطائرة، ربط الحبل إلى حلقة كانت في مقدمتها، في حين قامت بتشغيلها، وأخذت تديرها بحذر وهو يشدها حتى صار رأسها باتجاه الحافة المفتوحة على الفراغ، ظهر العراة صاعدين من الحافة الشاهقة مطلقين صخبا، تحركت الطائرة، تعلق رعد ممسكا بمقبض الباب، أخذت الفتاة تقذفه بأدوات حادة، صاح عليها مشيرا إلى الأمام:

"احذري.. المجانين.."

تركته وشأنه واهتمت بالإقلاع، اصطدمت بالعراة الذين حاولوا إيقافها، أوقعتهم أسفل الحافة وحلقت في الهواء، تشبث أحدهم بالقاعدة أسفل الطائرة، ضرب الشاب كف لرجل المعتوه بالخنجر، هوى المجنون إلى الأسفل صارخا، ، وكادت الريح أن تقذف رعد بعيدا، فتح الباب وهو يرتعش في رعب، وجلس قربها على مقعد ناعم، بدت الفتاة منهارة تبكي بمرارة مرددة بانفعال:

"ليزا، ليزا، كلبتي"

لاذ بالصمت قليلا مفكرا، ثم قال بصوت خافت:

"سوف يحميها كلبي برق"

صاحت بسخط:

"اخرس، أنت السبب في كل ما حصل، أنا لا أعرفك"

"أنا إنسان مثلك"

قالها، خطرت في رأسه أسئلة كثيرة، حبذ أن يدعها تهدأ، ظلا يسبحان في الهواء، تأملها، فتاة جميلة طرية مثل قطعة جبن، أناملها على المقود رقيقة ناحلة، شفتاها طريتان مزمومتان بغضب مثل حبة فراولة حمراء، انحسرت سترتها عن صدر ناضج شهي، شرع عضوه يتحرك، مد راحته وحشره بين فخذيه، التفتت إليه صارخة:

"لماذا تنظر إلي هكذا؟"

أجاب بصوت خفيض:

"آسف، لم أظن أن أجد أحدا يتحدث إليّ ثانية، لدي كلام كثير"

"أنا كذلك، لكن عريك يزعجني حتى أني أفكر أن ألقي بك عن الطائرة"

أعقبت بعد لحظات من الصمت:

"أخبرني في أي بلد نحن؟"

"أنت في اليمن، إنه بلد عتيق"

" لا يهم، أنا أجيد قراءة لغة هذا البلد القديمة والحديثة، أليست مصادفة أن آتي إلى هنا بطائرة مسروقة؟ لقد اجتزت بلدانا كثيرة، لكن العراة هنا يبدون متوحشين للغاية، والعاقل الوحيد الذي وجدته يبدو عاريا كالأبله بحيث فجر قنبلة أثارت العراة لكي يدعوني للهبوط، لا أعرف أن تقاليدكم تسمح لكم باستقبال الفتيات بالقنابل بدلا عن الورود"

ضحك مكرها رغم كلامها اللاذع، أجاب:

"ماذا تتوقعين أن أفعل لألفت انتباهك؟ لقد عشت أعواما سيئة للغاية، مزق العراة ملابسي وهاجموني في منزلي، قتلت أمي وأقاربي في سبيل الحفاظ على حياتي، القصة طويلة سأخبرك عنها لاحقا"

"لا تقل شيئا، لقد أصابتنا اللعنة، أنا أيضا قتلت حبيبي، كان يتصرف بغرابة، أتى عاريا إلى مطبخي دون أن يتكلم، مزق ثيابي وأراد أن يعاشرني بقوة، فطعنته في عنقه بمقص الخضار..."

أردفت بحزن:

"لا بأس، دعك من هذا، أخشى أن ينفد الوقود من الطائرة، أحتاج إلى الكيروسين بأسرع وقت ممكن"

صاح بحماس:

"لا أعرف، هناك في قريتي برميل كيروسين في مخزن العم ناصر، كان يبيعه بسعر باهظ للقرويين من أجل الفوانيس"

"لا، أيها الأبله، إنه نوع خاص من الكيروسين يحوي على نسبة عالية من الكربون، أخبرني عن أقرب مطار إلينا"

" في تعز"

"كم مسافة تفصلنا عنه؟"

"سبعين كيلو مترا كما أظن"

صاحت بانقباض:

"لا جدوى، ألا تسمع جهاز الإنذار؟ يجب أن نهبط، الوقود يوشك أن ينفد"

كانت ثمة إشارة صفراء تصدر عن مؤشر الوقود، يرافقها صوتٍ متقطع يتردد دون توقف، صاح بعجل:

"اصعدي أكثر، بقي القليل حتى نصل إلى قريتي"

"لا شأن لي في قريتك اللعينة، أريد مكانا مستويا صالحا للهبوط"

مع ذلك ارتفعت الطائرة حتى بلغت منتصف الجبل، أخذت الفتاة تتلفت بارتباك باحثة عن موضع مناسب للهبوط، وهي تقول بحيرة:

"أظنك تعرف الجبل، دلني على موضع مستو للهبوط، ستسقط الطائرة الآن"

تحول مؤشر الوقود إلى اللون الأحمر، وهو الأمر الذي يعني أن الطائرة آخذة بالسقوط، أشار بيده إلى طريق السيارات، كان ثمة خط مستو قليلا ينتهي بانعطافة صاعدة، انبرى صائحا: "اهبطي هناك" اتجهت حيث أشار قبل أن تلمح المكان الذي أشار إليه، بعد لحظات وضح الطريق، ولكن الطائرة صارت تتمايل في الهواء، والفتاة تصارعها محاولة أن تحافظ على توازنها لتهبط بثبات، هبطت الطائرة بشكل مائل، فتحطم جناحها الأيسر على الأرض، وانزلقت بشكل حاد حتى اصطدمت على حائط رملي يقف على جانب الطريق، أحس رعد بتمزق على كتفه، مكث قليلا دائخ الجسد، كان قريبا من النافذة، نظر إلى جواره، كانت الفتاة مكومة يسيل الدم على خادعها الأيمن، سمعها تئن بألم، سحبها حتى أخرجها من النافذة، رمقها بخوف، فتحت عينيها بلا شعور وقالت بوهن:

"أخشى أن أموت هنا، عليك أن تطلب المساعدة"

أجاب بألم:

" لن تموتي، أنت بخير، سأعود بعد قليل، كوني على يقين"

أخذ يسير دائخا حتى وقف على ذلك المنحدر، لمح طريق سيارات فرعي يقود إلى قرية على بطن الجبل تبعد بضع مئات من الأمتار، تهللت أساريره، عاد إلى الفتاة الغريبة، قائلا بصوت متفائل:

"تعالي، سوف آخذك إلى قرية قريبة، سأعتني بجروحك هناك".

ردت بفتور:

"اتركني هنا وحسب"

تقدم إليها، كانت الدماء تسيل من رأسها بشدة، أخرج خنجره، شق بواسطته سترتها حتى ظهرت بطنها الناصعة، قالت بضعف:

"ماذا تفعل؟"

شدّ رأسها بالقطعة التي قصها من السترة دون أن يجيب، رفع الفتاة على كتفه الممزق، شعر أنه يوشك أن ينخلع، تركها مرة أخرى، تلفت حوله، لمح قطعة عريضة من الجناح مرمية جانبا وسط الإسفلت، وضع الفتاة عليها، وأخرج من الطائرة المحطمة شبكة من الأسلاك لفها حول بعضها بسرعة، شد الفتاة على الجناح المقصوص بالأسلاك، وثقب الجناح من الجانبين قرب رأس الفتاة، وعقد الأسلاك المتبقية في الثقبين مؤلفا مقبضا قويا، أمسك هذا المقبض، وأخذ يجر الجناح خلفه، حتى وصل إلى القرية، بدت مهجورة، تتناثر حولها أشجار ذات براعم خضراء نامية، بضعة هياكل للعراة انتشرت بعيدا حول المنازل، سيارة مقفصة واقفة على الباحة عليها رسوم دواء أموكسيل وفيتامين فيوليت من منتجات شركة شفاكو، حمل الفتاة إلى مكان ظليل، وفي روحه أمل كبير، كانت السيارة مقفلة، فحصها جيدا، حطم زجاجها ملقيا نظرة إلى المقود، لم يجد المفتاح، اقتحم المنازل العشرة منزلا تلو آخر، في أحدها صورة شخص يلبس مريلة بيضاء كما يفعل الممرضون أو الأطباء، بحث في كل مكان، وجد خزانة صغيرة تحوي

على مطهرات وعطب ولفافات من الشاش الذي يستخدم للف الجروح، كما عثر فوق رفٍ صغير على مفتاح غريب يشبه مفاتيح السيارات، أخذها جميعها، كانت الفتاة في حال سيء، مازال الدم يتسرب من رأسها، خلع القطعة التي على رأسها، وسكب قدرا من المعقمات على جرحها، ندت عنها صرخة ألم خافتة، وضع مزيدا من الضمادات على رأسها، حثها على التفاؤل، وذهب إلى السيارة، كشف عن غطاء البنزين، صعب عليه تحريكه بسبب الصدأ، استعان بخنجره، فتحه في النهاية، تصاعد بخار البنزين ورائحته، أعاد الغطاء، وصعد على السيارة، لم يصدق أن تعمل، صرخ بفرح حين اشتغلت، حمل الفتاة إلى السيارة، وضعها إلى جانبه بالمقعد الأمامي، كان رأسها مائلا بشكل مخيف، لم يكترث، قاد سيارة الأدوية بسرعة، بدا واثقا من مهارته، لم تعد الفتاة قادرة على فتح عينيها أو الكلام، بين لحظة وأخرى يضع يده على صدرها ليتأكد من أنفاسها، قاد بسرعة كبيرة، حتى وصل إلى قريته، سحب الفتاة بواسطة جناح الطائرة صوب منزله المعزول، رأى باب المنزل محطما، والفضلات تملأ الغرف، كل شيء في بيت النار محطما، والطحين منثورا على الأرضية وكذلك الحبوب، الحيوانات شاردة بين الحقول، من بوسعه أن يفعل ذلك؟ فكر بحيرة، لا دليل على أن العراة اقتحموا الحاجز، لحسن الحظ أن هناك حبوب كثيرة في المخزن، ترك الفتاة في ظل الحائط خارج المنزل، جلب قطعة فراش نظيفة وضعها عليها، سد أنفه بشال، نزع أغطية الفراش الملوثة بالفضلات، رماها بعيدا حتى تجف، خمن أن الفاعل اقترف هذا العمل القبيح في وقت مبكر بعد رحيله، ذهب إلى بيت النار، صنع شوربة ذرة،

وعجينة تمر، فتح ثغر الفتاة الجاف، سقاها بعض الحساء، أطعمها التمر معتقدا إن هذه الثمار تعوض الدماء النازفة، لم تعد جروحها تنزف، لكنها بدت متعبة ضعيفة لا تشعر بأي شيء يجري حولها، كان الغروب يوشك أن يحل، بدا التل مخيفا، تذكر كلبه برق، رغم إزعاجه يظل حارسا صنديدا لا غنى عنه، جمع شمل الحيوانات الشاردة، عرف أن هناك عدو خطير يتربص به، فكر في سنبلة، هي الشخص الوحيد الذي يدرك موقع الممر السري خارج السياج، أخرج سلاحا ناريا، لم يعد يحوي سوى رصاصات محدودة، قام بتهوية الغرف ليطرد الروائح الكريهة، أضاء سراجا يعمل على الكيروسين، ذهب إلى السياج، سد المدخل السري بكتل من الخشب والحجارة وفروع شجر التين الشوكي، قضى وقتا كبيرا قرب الفتاة يتحسس جسدها، اكتشف أن هناك أكثر من جرح في جسدها، كلما وضع أنامله تئن وتتوجع، نشر فوقها غطاءً خفيفا أبيض ، نزع ملابسها بتهيب، كانت هناك شظايا زجاج صغيرة مغروزة في أماكن متفرقة، نزعها واحدة تلو أخرى ساكبا فوق الخدوش مطهرا، مازالت الفتاة تتحرك بألم، زجر نفسه عن تأمل نهديها الصغيرين وعريها المغري، لكنه لم يستطع أن يمنع عضوه عن الانتصاب، لف منشفة ثقيلة حول وسطه، أخذ المصباح اليدوي، وخرج ليقوم بجولة حراسة حول المنزل، سمع حركة على سطح المنزل، عاد مسرعا إلى الدهليز ، توقف مندهشا، جمدت سنبلة على الجزء الأسفل من السلالم، بدت متنمرة مكشرة تصدر صوتا رهيبا، وقفا لوهلة من الزمن يراقبان بعضهما، سقطت منشفته إثر انتصاب عضوه المفاجئ، مازال يطمع بقضاء ليال حميمة فوق جسدها الوحشي المهتاج، لكنها لا

تبدو مرحبة، قال بصوت واهٍ: سنبلة.. هاجمته في لمح البصر، سددت إليه ضربة أطاحت به بضعة أمتار، سقط سلاحه إلى جواره، رآها تدخل الغرفة المضاءة، سمع صوت اختناق الفتاة، قفز إلى سلاحه وأطلق النار بشكل هستيري، هربت الفتاة العارية في لمح البصر، وجد الفتاة تصيح بضعف ممسكة على عنقها، حاول أن يواسيها، اقترب منها، دفعته بضعف قائلة: "ابتعد، ماذا تريد مني؟"

انتصب قربها محتارا قائلا:

"اطمئني، لقد هربت الفتاة العارية.."

مضت تقول بصوت متذبذب باكٍ:

" لا تكذب، ماذا فعلت بي؟"

أخذت تئن بارتعاش وتأثر، تسمرت عيناها على منتصف جسده، بدت تتفرس إلى شيء ما، نظر إلى وسطه، كان عضوه في حالة صحو جزئي، ما يلقي حوله ظلالا من الظنون، شعر أن الفتاة تظن أنه اقترف فعلا سيئا أثناء غيبوبتها، ستر وسطه بالمنشفة، وقال بصوت مضطرب:

"أتظنين أني عديم الرحمة لأقوم بمهاجمة فتاة جريحة؟! أرجوك، لا تفكري على هذا النحو، هناك فتاة عارية سكنت في المنزل، بوسعي أن أحكي له عنها لاحقا إن شئت"

قالت بصوت مخنوق:

"لا تقل شيئا، اخبرني فقط لماذا قمت بتعرية جسدي؟"

رد بصوت حاد:

"ألا ترين أني نزعت شظايا كثيرة من الزجاج عن جسدك؟ كيف بوسعي أن أنزعها دون أن أخلع عنك ملابسك، إنك تبدين مثل فتاة عربية متزمتة " تبسمت بصعوبة، ذهب حانقا، أقفل باب السلالم، طفق يطرق الباب الحديدي بالمطرقة ليصلح من مزلاجه المحطم، أخذ يدير ضوء المصباح طويلا في أرجاء التل، لاحظ أن زريبة المواشي خالية، وبابها مفتوح، كيف نسي أن يغلق الباب؟ أراد أن يذهب خلف الحيوانات ليعيدها إلى مأواها، ثم تراجع، تذكر أنه أغلق الباب دون شك، صاح بصوت غاضب:

"ماذا تريدين يا سنبلة؟ لم أقصد أن أقتل شقيقك، أرجوك، توقفي عن أفعالك المشؤومة بحق الشيطان"

فكر أن المجانين ليسوا أغبياء كما يظن المرء، لن تصدقه هذه الفتاة الحرون الغريبة، لا ريب أن سنبلة تود أن تخطف روحها لتنتقم منه، ترك الحيوانات، وأوصد الأبواب، ذهب إلى بيت النار، أعد بعض خبز الطاولة، والشاي، إضافة إلى حليب مسحوق قام بتسخينه وأضاف له بعض السمن، قدم الوجبة المحلية للفتاة دون تعليق، وغادر واجما، كان مدينا لها بالاعتذار أو كانت مدينة له بذلك عن سوء الفهم، شعر أنها تتصرف بعجرفة شديدة منذ أن قابلها عند المتنزه، لا يعرف عنها شيئا بعد، حتى اسمها مازال مجهولا، لقد أنقذته من العراة، وهو أنقذها من موت محتوم، إنهما متكافئان الآن، لا تدرك أنه لم يجد الفرصة لمداواة جروحه الخاصة، كتفه مخلوع، وجرحه مهدد بالالتهاب، إنه يعتني بها ولا يود أن يمسها أي

سوء، ينبغي على الأقل أن يلمس بعض العرفان، فكر الشاب بحنق، إنها أول فتاة يصادفها تملك عقلا، كاد أن يجن من الفرح، في حين يرى إن الثقة يجب أن تسود بين الطرفين، ظل الشاب واجما، مكث خارج المنزل متدثرا بغطاء صوفي، فجأة سمع نباحا خارج السياج، ذهب ليستطلع، رأى كلبه برق، وإلى جانبه أنثاه الجديدة ليزا، فتح لهما الممر السري، هرعا إلى الداخل، وقفا على باب المنزل، دخلت ليزا على صاحبتها لأنهما اعتادتا أن تعيشا معا في حجرة واحدة، بينما مكث رفيقها يتحرك بقلق في الخارج، دخل رعد حجرة الجريحة، متفاديا النظر إليها، سمعها تهتف بفرح: "عادت ليزا يا.. ما اسمك؟ أليس غريبا أن نمضي كل هذا الوقت دون أن نتعارف بعد" قالت ذلك بلهجة مرحة.

رد متحاشيا النظر إليها:

"اسمي رعد، عاد كلبي أيضا ويدعى برق"

لمحها تحتضن كلبتها بحدب وفرح وكأنها تعانق أعز صديقاتها.

قالت بارتباك:

"آسفة على سوء تصرفي، اسمي مارتا، أظنك سوف تعذرني حين تعرف ما عانيته"

مارتا

نشأت تحمل جينات وأفكار قارتين، حضارتين، ثقافتين، سبب لها ذلك بعض الاضطراب في شخصيتها، ناهيك أن زواج والديها لم يكتب له الاستمرار، انفصلا بعد ثلاث سنين من الارتباط في كنيسة القديس بطرس في بيروت، التقى والدها بأمها هناك أثناء جولة توثيق نقوش الممالك القديمة في جنوب الجزيرة العربية، كانت جوليا طبيبة حُميات، ارتاد انطونيو عيادتها إثر إصابته بالكوليرا بعد عودته من صحاري الجوف، تعرفت بمريضها بشكل جيد في شارع الحمراء، ثم انتقلا للعيش في صقلية لمدة عام، ما لبث الزوج المؤرخ أن تعاقد مع ناشونال جوغرفيك لإعداد فيلم وثائقي عن اللغات السامية القديمة، تاركا امرأته تضع المولودة الصغيرة بعيدا عن ناظريه، وهذا يفسر سبب إتقانها اللغة العربية، تربت الفتاة في منزل تحيط به هكتارات من المزارع، وحظيرة ماشية، إضافة إلى بضعة خيول حافظ عليها الجدان الكبيران كنوع من تقاليد العائلة التي تمتد إلى فرع عريق من حكام الجزيرة الأوائل، وهم أولئك السلاطين الذين قاوموا الفاتحين المسلمين الذين غزوا الجزيرة ذات يوم طالبين أن يعتنق السكان دينهم الجديد، لذا كان السيد سانتوس وزوجته مارينا يمقتان المرأة العربية رغم أنها مسيحية شرقية، إذ ارتبط العرب في أذهانهم على أنهم مجموعات من البرابرة وقطاع الطرق، وسرعان ما أحست جوليا بهذه الكراهية المستورة، وطالبت من أنطونيو أن يتخذ موقفا مما يجري، غير أن زوجها كان يملك خططا وآراء أخرى، فالأبوان العجوزان لن يعيشا إلى

الأبد، ومخالفتهما قد تفضي بالمزارع والممتلكات إلى الجمعيات الخيرية أو لأقارب آخرين أو حتى تباع للغرباء بثمن بخس، أفصح بأن بعض الصبر يفي بالغرض، لكن امرأته لم يطب لها العيش مع رجل هاوٍ للتوثيق والدراسات، تريد رجلا يعيش إلى جانبها يشاركها مسئولية تربية الفتاة، أخذت ابنتها مارتا إلى بيروت، لقنتها اللغة العربية لمدة سبع سنوات، ثم قام الأب بتقديم طلبا إلى محكمة بيروت بأحقيته في حضانة مارتا، أخذها تحت نظر القاضي بعد عام من تقديم الطلب، كانت جوليا حزينة، وعدها أنطونيو أن يجلبها في رحلاته إلى الشرق لتراها، بعد ذلك قضت الفتاة الصغيرة حياتها بين صقلية وبيروت وجنوب شبه الجزيرة العربية، حيث النقوش والآثار القديمة، فوجئ والدها أن ابنته صارت تتقن نطق حروف المسند بمجرد سماع تعليقاته على صور النقوش أثناء حواره مع الناس الذين يقابلهم، كان مفتونا بهذه الكتابات والطقوس الدينية التي كان يقيمها السبئيون والقتبانيون والمعينيون في معابدهم، يتحدث عنها لمن هب ودب من معارفه وأصدقائه، وهي إلى جواره تصغي بوعي تام، حين سمعها ذات يوم تردد هذه الحروف والكلمات، أدرك أنها فتاة حاذقة ومميزة تفهم ما يقال بسرعة، لذا علمها الكثير من الجمل والألفاظ والأسرار القديمة لممالك جنوب شبه الجزيرة العربية. شرعت تقرأ النقوش في عمر العاشرة، حتى نشرت إحدى الصحف هذا الخبر على صفحتها الأولى، مارتا ابنة عالم الآثار أنطونيو سانتوس في عمر العاشرة تفك رموز لغات قديمة مندثرة انتشرت في ممالك جنوب جزيرة العرب قبل الميلاد، وهكذا اعتبرت منذ ذلك التاريخ طفلة مميزة، تفك شفرات النقوش القديمة.

وفي صقلية مكثت بعض الوقت، تربي قطيع من الخنازير، وتذهب وجديها إلى القداس بتلك الأبهة الوقورة، كان القس يبدو شابا ورعا، يشرف على توزيع الصدقات ووجبات الإحسان على المهاجرين غير الشرعيين الذين ترمي بهم القوارب في سواحل الجزيرة، غالبيتهم من العرب الفارين من قسوة العيش وبطش السلطات السياسية والدينية، دعاها القس اتلانتس إلى تقديم العون للمهاجرين المساكين من أجل الرب، ونصحها ألا تكترث بأن يكونوا عرب ومسلمين متعصبين، لأن رحمة الرب تنزل على جميع الكائنات حتى الشياطين يصلها نزر من هذه الرأفة كما قال، اختارها لأنها تستطيع أن تتكلم العربية، وزعم أنها الأنسب لرعايتهم لأن جسدها يحوي على بعض سماتهم، لم تشك أن القس ظل يلاحقها في ظلمات الملاجئ وممرات الكنيسة لأمر خبيث يدور في رأسه، أكثر من مرة يحاول أن ينفرد بها في الردهات البعيدة، استمر يتعقبها حتى أوصد عليها باب غرفة الصومعة العالية التي يسكنها، اقترب شاخصا إليها دون حشمة قارئا إحدى النصوص الدينية التي تشير إلى أن الرب يجعل من الناس خدما لشهواتهم، وسرعان ما يمنحهم الغفران، رأت شيئا يهز سطح مئزره، اكتشفت بذهول أن لأنصار الرب أعضاء متوترة مكبوتة، كانت تظنهم لا يملكون شيئا، قفزت إلى حافة النافذة المفتوحة، مهددة أن ترمي جسدها إلى الأسفل، تراجع القس الوقور شاهقا بندم كأنما ارتد إليه وعيه، ثم تركها تذهب، لكنها لم تعد إلى الكنيسة مرة أخرى، صارت تقضي أيام الآحاد برفقة كلبتها ليزا التي تتعقبها أينما ذهبت، لقد هجرت الشرق ورحلاته المرهقة واستقرت مع الجدين، تذهب أحيانا في جولات بين المزارع في البلدة، وغالبا ما تعتني

بالخيول والماشية التي يملكونها، ارتبطت بالمزارع، وتوثقت علاقتها بفتى في عمرها يدعى رافيليو تالوني، والده صاحب أكبر شركة نقل بحري في الجزيرة، كانا يلتقيان بضع مرات في الشهر حين تجد مارتا فسحة من أعمال المزرعة والحظائر، يأخذان الحصان زاك والفرس سيرج ويذهبان في نزهة إلى مزارع الأرز أو الكروم القريبة، أو حتى إلى كوخ يطل على الغابة، أحيانا يسرق الفتى المشاكس طائرة والده الصغيرة مستغلا غيابه، ويقودها باتجاه الجبال البعيدة المطلة على البحر، وهناك يقضيان وقتا ممتعا، في ذروة الموسم السياحي كانا يقومان بنزهات بحرية بواسطة قارب سريع أو مركب شراعي، أو يشاركان في مسابقات الزوارق أو المراكب الشراعية التي تجريها بلدية الجزيرة في عرض البحر بمحاذاة الميناء، ارتبطا مؤخرا بعلاقة قوية ما جعلها ترفض مغادرة الجزيرة نحو بيروت أو الشرق رغم شغفها بمعرفة الاكتشافات الجديدة التي حققها والدها في معابد براقش وصرواح، اكتفت بالتواصل بأمها عبر الرسائل والمكالمات الهاتفية، بعد عام من علاقتها ورافيليو شرعت تلاحظ أن زياراته باتت تتباعد، لم يكن ذكيا بقدر شقائه ومرحه، بل يحب أن يبدو مزهوا أمامها موحيا إلى فارق الثراء بين العائلتين، كان يفعل ذلك عن سذاجة وليس عن خبث كما ظنت، أوشكت أن تموت شوقا وكمدا، مكثت تتحرق شوقا للقائه بعض الوقت، ثم استبدلت اغتمامها بخصام ووجوم، حتى أنها شعرت بعد أيام أن غيابه لم يعد يزعزع خلية في جسدها، انشغلت بالمزارع والماشية، ارتدت ملابس فلاحة أو بالأصح رداء راعية بقر أمريكية، اعتمرت قبعة عريضة نوع بلايد، وحملت بندقية صيد، وركبت حصانها زاك، واصطادت بعض طيور الأوز

المهاجر القادم من أوروبا الشرقية صوب الجزر الإيطالية في المتوسط، كما قادت آلة الحراثة، وقلبت الأرض، وأطعمت المواشي، ورغم انغماسها في العمل ظل شوق لقاء حبيبها متقدا في روحها، ظلت تنتظره ليأتي حاملا ذريعة مقبولة لاختفائه المفاجئ وعدم اتصاله، سمعت أنه قابل بعض أصدقائه وأنهم يمارسون رياضة التزلج فوق الأمواج، ويقيمون حفلات شواء جماعية على الشواطئ الجنوبية، ألم يكن من اللائق أن يخبرها بدلا عن صمته وتجاهله؟ أيكون عثر على فتاة أخرى؟ أخذ قلبها يلح عليها أن تبدأ بالاتصال به لتسأل عما جرى له، أو تقطع نصف ساعة من السير الحثيث على الحصان للسؤال عنه في منزل والده، لكنها قررت ألا تفعل، ولفرط سخطها حطمت جوالها المحمول على الجدار، واقتنت جوالا جديدا خالٍ من الأرقام، أخذت تقود مركبتها المكشوفة حاملة السماد للمزرعة والملح للخنازير في الحظيرة المجاورة، عمل روتيني تقوم به في كل موسم زراعي، تأخذ هذا الخليط من الرماد المحروق ومخلفات الحيوانات وبعض المواد العضوية النباتية، وهي المواد التي تقوم بمعالجتها ومزجها بنسب متفاوتة، ترميها تحت نبات القطن أو قصب السكر، ساعدها كتيب سميك عثرت عليه في مستودع الأدوات الزراعية، أعطي لها شرحا تفصيليا عن صناعة هذه الأسمدة يدويا لتغذية المزروعات، بواسطة مواد تشكل عبئا على المزارعين كالمخلفات الحيوانية في الحظائر، والمخلفات العضوية في المزارع، وبقايا الرماد المخصب المعرض للشمس، بهذا تمكنت من صنع أسمدة جيدة، متخلصة من مخلفات المزرعة والحظائر، علاوة على أن محصول القطن صار أكثر جودة وكثافة ويبشر بمحصول وفير، كانت

مخلفات الخنازير والأبقار والخيول مكدسة دون جدوى، يكلف نقلها بعيدا عن البلدة كثيرا من المال كل شهر، في العامين الأخيرين جنوا دخلا وفيرا من بيع القطن وقطب السكر، وارتفعت منتجات الحيوانات كالحليب والزبدة، لأجل جهودها كافأها جدها ببضعة آلاف من الدولارات دخلت إلى رصيدها، وقد فكرت أن تقيم مشروعها الخاص، أن تبتاع المزيد من الخنازير والخيول، ومن ثم يكون بوسعها في المسابقات الوطنية للخيول التي تقام في روما أن تجني عشرات الآلاف من الدولارات، لا يهم، يجب أن تكون المحاصيل جيدة هذا العام حتى تحصل على قدر جيد من المال، لأن جديها وعداها بزيادة في مكافأتها عند زيادة المحصول، كانت تفكر بهذا وهي تقود عربة السماد والملح صوب الحظائر والمزارع، في تلك الأثناء حدث أمر غريب جدا، لمحت أدخنة صفراء تحلق في الهواء، أركنت العربة جانبا، وأخذت تحدِّق في الأفق، ظنت أن أحد المزارعين يحرق بعض المواد العضوية ليتخلص منها، تبسمت بغرور، يا لهم من كسالى، لا يدركون أنها تستثمر هذه المواد، باذلة الكثير من العمل الشاق، اتجهت أولا إلى حظيرة الخنازير، وضعت غذاء الحيوانات في الأحواض الخاصة للتغذية، فتحت أبواب الحظيرة للحيوانات، كانت متعجلة لتكشف طبيعة هذه الأدخنة المزعجة، تريد أن تقدم تحذيرا لجيرانها أن يكفوا عن حرق فضلات مزارعهم لأنها تلوث الجو، وقد تؤذي السكان الذين يستنشقونها، حملت كيس الملح على كتفها لتوزعه على الغذاء، بدت الخنازير ثائرة للغاية، كما سمعت صهيل الخيول تخرج قوية من حظيرتها، أصيبت بالعجب ثم الغضب، هل تزعج الأدخنة الحيوانات أيضا؟ فجأة هجمت عليها الخنازير وأوقعتها أرضا،

اختلطت ذرات الملح في شعر رأسها وملابسها، وتمرغت على أرضية الحظيرة الموحلة، قامت غاضبة، لم تسمح لها الخنازير بالتقدم نحو الأحواض، خرجت محتدة صوب الدار لتغتسل وتذهب لتعاتب جيرانها على تلويث الأجواء، لاح الأفق مغطى بالأدخنة الصفراء التي بدت برتقالية وأرجوانية لاختلاطها بألوان الشفق، ثارت فوق رأسها غيمة صفراء صغيرة، أخذت ترافقها وتتحرك بتحركها، أصابها الذهول، صاحت بسخط: "ابتعدي أيتها السحابة اللعينة، ألا ترين جسدي كيف أصبح ملوثا!" أصبحت ملابسها المبللة رمادية وبيضاء بفعل المواد العضوية كالرماد والملح، رأت شخصين يركضان عاريين على الباحة القريبة من المزرعة، دعكت عينيها، دققت النظر، هل يخدعها بصرها؟ سألت نفسها بدهشة، اقتربت من الباحة، رأت الجدّين يقفزان مثل طفلين شقيين، لا يسترهما أي شيء، أوقفت العربة، نزلت واقتربت منهما صارخة بسخط:

"هيه، هل أصابكما الجنون؟ ماذا تفعلا..."

قطعت عبارتها حين قذفها جدها أرضا، ثم مزق سترتها في لمح البصر، ثم قفزت جدتها ناحيتها جاذبة بنطالها الجينز لتجردها منه، لحسن الحظ، أقبلت الخيول والخنازير راكضة بذعر في الباحة، صاهلة بصوت قوي، نهض الجدان متطلعين إلى الحيوانات، أتاح لها ذلك أن تهرب وتقفل باب الدار خلفها، هل جُنّت الحيوانات أيضا؟ كيف حطمت السياج الخشبي؟ ماذا يجري؟ أسئلة كثيرة لم تجد لها جوابا، صعدت إلى غرفتها التي بدت معتمة مع اقتراب الغروب، لاحظت أن شيئا يتحرك فوق رأسها، أضاءت السراج، رأت الغيمة الصفراء تحلق قرب السقف، اقشعر جسدها بفعل

الخوف، هل أصيبت هي أيضا بالجنون؟ أخذت البندقية خاصتها، وصوبتها عاليا وأطلقت النار بهوس، اختفت الغيمة من سماء الغرفة، وبقي الرعب محلقا، خرجت إلى الشرفة بحذر، لمحت جديها يصعدان الجدار كالسحالي وهما يصدران صوتا فظيعا، كانت عيونهما تشعان غضبا وعنفا، داهمها خوف جرار، صوبت البندقية إليهما، وأردتهما بالرصاص، سقطا إلى الأرض، أوصدت جميع النوافذ والأبواب، وانكبت على فراشها تبكي بمرارة، سألت نفسها: "هل قتلتهما حقا أم هيئ لي؟ اختفت أصوات الحيوانات بعد قليل، سمعت كلبتها ليزا تنبح في الخارج بشدة، أخذت كل ذخيرتها من الرصاص وخرجت متنمرة، صارت ليزا تدخل بين ساقيها وهي ترتعش، اقتربت من جدار المنزل، وقفت فوق جثتي جديها، انخرطت في بكاء شديد، لقد قتلت جديها حقا، أخرجت جوالها وضغطت على رقم الطوارئ، لم يرد عليها أحد، وهذا أمر لم يسبق أن حدث، عرفت أنها لا تستطيع أن تبيت في الدار، هناك جثتان مستلقيتان تحت جدار غرفتها، أحست بعوز شديد إلى شخص يقف إلى جوارها، خطر في رأسها حبيبها السابق المتواري رافيليو، لم يعد للخصام والمكابرة أهمية في هذا الوقت، سيساعدها دون شك، منزلهم قريب، ثلث ساعة بالسيارة، قالت متشجعة:

"اتبعيني يا ليزا"

قادت سيارة جدها، وانطلقت في الطريق العام بسرعة رهيبة، كانت صنوف من الحيوانات الأليفة تنتشر في الطريق المستقيم كأنها قررت الهجرة عن الجزيرة، لم تر أي سيارة على الطريق، وهذا أمر غير مألوف أيضا، رأت أشخاصا عراة يفرون من أضواء السيارة، فكرت أن عينيها مصرتان على

خداعها، اقتربت من المنزل الكبير الجاثم قرب غابة صغيرة، لمحت البوابة مفتوحة والأضواء منتشرة في المكان كالعادة، لكن البوابة الكبرى تكون مقفلة، لا تفتح سوى عند قدوم زائر مرموق، عرفت ذلك من عشيقها قبل أن ينقطع عن زيارتها، كان والده يقوم بجولات في دول أوروبا لدراسة الوضع الاقتصادي هناك، باحثا عن فرص للاستثمار في قطاع الأسماك، استغربت مارتا من الهدوء في المكان، دخلت بتهيب إلى الفناء العريض، دارت في الحديقة دون أن تبصر أحدا، دخلت المنزل، هدوء مخيف، لا همسة ولا حركة، نبحت كلبتها ليزا بشكل مفاجئ، خرجت الفتاة خلف كلبتها مصوبة بندقيتها، مالا ناحية بقعة في الفناء خافتة الضوء، ظهر شبح شخص عارٍ يركض ناحيتها يتبعه شخص آخر، أطلقت النار مرتين، لم تخطئ في التصويب، صرعت المهاجم ورفيقته، عرفت رافيليو، رأته يطلق تشنجات الموت الأخيرة قبل أن يخمد، جثت فوق جسده منتحبة بقوة، ذرفت الكثير من الدموع، نبحت ليزا ثانية وهرولت ناحية البوابة، هرولت خلفها توقفت برهة مندهشة ومرعوبة، كان هناك عراة كثر قادمين من جهة الغابة، راكضين بسرعة الأرانب، رفعت بندقيتها لتطلق النار، ثم توقفت بيأس، أسرعت هاربة نحو الداخل، سارت باتجاه موقف السيارات الذي يمتد خلف المنزل الضخم، فهمت أن البحث عن سيارة صالحة للقيادة لا يجدي، ندمت أنها لم تهرب إلى سيارة جدها المتوقفة خارج البوابة، لمحت المدرج الصغير المجاور، كان باب الطائرة مفتوحا، أخذت تعدو صوب الطائرة، والعراة خلفها يركضون كالعدائين الأولمبيين في سباق الثلاثمائة متر، صعدت الطائرة وأوصدت الباب، تشبثوا بالطائرة، حطموا

الزجاج بالأحجار التي كانت تسقط كالقذائف القوية، استطاعت أن تشغل الطائرة، امتدت أيديهم إلى عنقها، كادت أنفاسها أن تنقطع، فجأة ومضت عينا ليزا اللطيفة بشكل مخيف، وقفزت مثل الإعصار، قضمت أطرافهم بقسوة، صوبت البندقية ناحية بعض المتشبثين بالأبواب، أطاحت طلقاتها بالعراة، وهرب الآخرون، صرعت السيد رافو والد حبيبها أيضا بطلقة وقعت على جبينه، سرقت طائرته وقادتها بعيدا في الجو، لقد أعطاها رافيليو دروسا إجبارية في التحليق بالطائرة، كانت تقاومه ضاحكة متذرعة أن الطيران لا يعجبها، وليس هناك أي مبرر يدعوها لقيادة طائرة صغيرة أو كبيرة، كان يلح عليها بشكل غريب، أرغمها أن تجلس أمام المقود، أراها مفتاح التشغيل والمكابح، تركها تشد مقبض الإقلاع وتصعد بالطائرة، وكأنه يدرك أنها ستتعرض لمثل هذا الظرف السيئ، كان فتى شجاعا ولطيفا رغم انصرافه عنها في الفترة الأخيرة، قتلته بدم بارد، لا تعرف بعد ما جعله يغيب عنها، وما إذا كانت تلك الفتاة الشقراء هي حبيبته الجديدة، أخذت تبكي وهي تقود الطائرة الصغيرة فوق الجزيرة، اكتشفت أخيرا إن أهالي الجزيرة أصبحوا عراة مجانين، وأنها بطريقة ما نجت من هذا المصير البغيض، سألت نفسها عن السبب، عبرت بطائرتها البحر الأبيض المتوسط، وصلت إلى بلد تحيط به بعض الغابات الجافة القاسية، أوشك وقود طائرتها على النفاد، كان المؤشر يومض باستمرار، هبطت على ميدان كبير وسط مدينة كبيرة، كان هبوطا اضطراريا، أوقفت الطائرة بمعجزة، لأن ما تعلمته لا يصل إلى مرحلة الهبوط الاضطراري، رغم ذلك ضغطت المكابح قبل أن تصطدم بنصب تذكاري كبير وسط الساحة الكبيرة المقفرة،

عرفت صورة عمر المختار الشيخ الليبي الذي دوخ ورفاقه الايطاليين في حقبة الاستعمار، ركبت سيارة مفتوحة، خرجت من المدينة برفقة ليزا، حوصرت في الريف، رجال ضخام الأجساد هشموا سيارتها، استطاعت أن تهرب، طاردوها مطلقين صيحات وحشية، تعطلت سيارتها، هربت إلى قرية مجهولة تحيط بها حقول، وجدت مخزنا مقفلا، عثرت على حبوب وثمار جافة وبعض الماء، كان العراة هائمين حول القرية، مكثت بضع شهور، اضطرت أخيرا أن تخرج بجسد عار، سارت بين أولئك العراة، فيما ابتعدت ليزا عنهم، رأتهم ينكحون النساء بطريقة مزرية، كالحيوانات، هجم عليها رجل ضخم، أمسكها لينكحها من الخلف، هجم عليها شخص آخر شاهرا عضوه الضخم، تقدم معتوه ثالث ورابع، ازدحمت الأعضاء والعضلات حول جسدها المرتجف، اشتبكوا في قتال شرس، أفلتت منهم، فرحت حين لمحت ليزا تنتظرها بعيدا قرب سيارة عتيقة مفتوحة، ما لبثت أن قادتها بضعة كيلومترات، حتى نفد منها الوقود، حوصرت مرة أخرى بالعراة، هربت منهم، فتبعوها راكضين، لكن ليزا هجمت عليهم بقوة، ما أتاح لها أن تبتعد، عثرت على مركبة مليئة بالوقود قادتها إلى حدود منطقة قاحلة خالية من الحياة، استقلت سيارة أخرى، طوردت واختبأت بضع شهور أخرى، لا يمكن سرد كل ما عانته من ويلات في قصة واحدة، يتكرر الأمر، عراة، سيارات، هروب، ليزا تتبعها إلى كل مكان بشكل غريب، تغيب وتظهر بشكل مفاجئ، تدافع عنها بشراسة في أغلب الأوقات، أمضت بضعة أيام بلا طعام أو شراب، حتى أكلت من جثة متعفنة لحيوان نافق، وجدت طائرة صغيرة تابعة لقوات الحدود الليبية، قادتها واجتازت صحراء طويلة،

ثم ظهرت بعض المدن الصحراوية الكبيرة، رأت نهرا يشق الأرض كأفعى طويلة بلا نهاية، لمحت العراة كالنمل منتشرين حول المياه، تعرفت على البلد حين رأت الأهرامات، بازغة من الأرض كأسنان التماسيح، اقتربت من الأرض لتتفرج على معابد مهيبة قائمة وسط الصحراء، شرعت طائرتها تتذبذب في الهواء، كانت تصدر صوتا مزعجا ودخانا، هبطت قرب معبد الملكة حتشبسوت على باحة تقف عندها بعض السيارات السياحية التابعة للشركات المحلية، عرفت مارتا المكان ببساطة لارتباطها بالشرق والآثار، ناهيكم أن مثل هذه المعابد لا يوجد أحد في الأرض لم يرها على غلاف جريدة، أو عبر شاشة تلفاز، أو حتى في أفلام الكارتون الأمريكية التي يشاهدها الأطفال، دخلت المعبد، كان الجو حارا للغاية، بدت جولتها هادئة، استمتعت بمشاهد الأعمدة الضخمة، والرموز الهيروغريفية المنقوشة على جدران المعبد، لم يعد لهذه الآثار الخالدة أي قيمة الآن، خاطبت نفسها بأسف، ترى ما دار في هذا المكان من طقوس وأحداث غريبة، وكيف كان شكل ملكة مصر التي كانت ترتدي ملابس الرجال، وتضع لحية زائفة على ذقنها لتوهم أتباعها أنها ليست امرأة كما يظنون، كانت صورتها على جدار المعبد تشير بوضوح إلى لحيتها المصطنعة وهيئتها الذكورية، أخذت إحدى السيارات من الموقف، وراحت تبحث عن الماء، نزلت قرب النهر، انبطحت وشربت الكثير من الماء، نبحت كلبتها باتجاه المياه اللامعة، ظهرت في الماء عينان حادتان ورأسا مفرطحا ذو تجاعيد تبدو خشنة، هربت في الوقت المناسب من التمساح الضخم، حوصرت بالمئات من العراة، لم تشأ أن تجازف بالمرور عارية بين أولئك الأشخاص

الضخام المغتصبين، إنهم أحفاد بناة تلك الأهرامات والمعابد، جميع العراة مغتصبون لأنهم حيوانات بلا عقول أو آداب، ليس لهم هدف سوى الطعام والتزاوج، أغلقت نوافذ السيارة، وانطلقت بأقصى سرعة، سحقت بعضهم تحت العجلات، وصدمت البعض الآخر، أثارت الغبار في وجوههم، طاردوها مطلقين أصواتهم الرهيبة، هربت طويلا، دخلت المدينة، وجدت مركزا تجاريا، وحصلت في محل السوبر على قناني الماء، وكراتين من علب الفول المدمس، شحنتها داخل السيارة، اكتفت بشورت داخلي مناسب وسترة وبنطال جينز، ملابس خفيفة داكنة أخذتها دون عناية من محل لبيع الملابس الحديثة، عندما أرادت مغادرة المركز التجاري رأت العراة يتدفقون في الشوارع باحثين عنها، عادت إلى المبنى، حوصرت هناك، راحت تراقبهم عبر النوافذ، لحسن حظها أن هناك ما تأكله وتشربه، ظلوا بضع شهور يحاصرون المركز دون ملل، في يوم من الأيام، سمعتهم يصرخون ويفرون، قفزت إلى السيارة، وابتعدت، سمعت هديرا قويا يصدر من الفراغ، لمحت المرآة الجانبية في قلق، انعكست لناظرها كتل بيضاء متحركة تندفع من الشوارع، لقد قرأت أن نهر النيل يفيض في مثل ذلك الفصل من العام، وأن الحكومات المصرية المتعاقبة كانت تنشئ السدود الضخمة في طريق هذا الأفعوان الخطير لامتصاص المياه الفائضة وانتاج الطاقة الكهربائية، إضافة إلى أنها شقت قنوات وشرايين وترَعا كثيرة صوب الأراضي الزراعية البعيدة للتخفيف من آثار الفيضانات المفاجئة، يبدو أن هذه الترع مقفلة الآن، ما جعل الفيضان يزحف على المدن ويجرف كل شيء في طريقه، ضغطت على دواسة البنزين، سارت بسرعة مذهلة في طريق فرعي ممهد لا

تدرك إلى أين تقودها، أصبحت في أرض شاسعة مفتوحة محاطة بمجمعات سكنية متباعدة، كما اتسع حجم الفيضان حتى أصبحت المياه على شكل كتلة عريضة عالية تجتاح الأرض بشكل أفقي، كانت تسير باندفاع عاتي سريع ملتهمة كل شيء في طريقها، ما يعني أن ضغط المياه قوي جدا وكأن هناك تسونامي بحري يجتاح تلك البلاد، أو ربما انفجر جدار السد العالي، كان من الجميل أن يكون الطريق خاليا سوى من بعض السيارات المتوقفة على ذلك الطريق الأسفلتي العريض، لحسن الحظ أنها لا تعيق السير، حفزها ذلك أن تزيد من سرعتها بحيث شرعت اللاندروفر الحديثة تصدر إنذارا بأن السرعة وصلت إلى حدود قصوى تنذر بالخطر، تجاهلت الإنذار، لأن المياه أخذت تقترب بشدة، هديرها المرعب يكاد يزلزل الأرض، فجأة شاهدت رؤوس أهرامات الجيزة تظهر خلف بعض المباني الساكنة، عرفت مارتا أنها تسير في منطقة الجيزة، نحو أعظم الأبنية التي شيدها الإنسان القديم على الإطلاق، وهي قوية ومتينة وصامدة منذ آلاف السنين، لا شك أنها تعرضت للفيضانات الموسمية في وقت سابق، لكن الصخور الضخمة في أضرحة الملوك خوفو وخفرع ومنكارع تتصدى لكل قوى الطبيعية كافة، يبدو أنها بنيت لتعيش منتصبة إلى الأبد، خطر هذا في ذهن الفتاة المصابة بالهلع، باتت الأهرامات تكبر على الأرض، والمياه تقترب، شكلها مرعب، باندفاعها القوي وهديرها المزعج، سحب من الغبار الثائر، حجبت الأفق فوق مدينة القاهرة، وجعلت الأجواء معتمة، لاحظت أن الهدير أضحى عنيفا بشكل لا يصدق، أحست باهتزاز الأرض قويا، كما شرع

الغبار يغطي السيارة، رأت لافتة تشير بواسطة سهم أحمر إلى طريق فرعي، كتب عليها بالإنكليزية والعربية عبارة: أهرامات الجيزة.

اقتحمت السياج المعدني، وسارت باتجاه الأهرامات التي غدت مهيبة وشامخة كالجبال، كذلك أبو الهول حارس الموتى ظهر باسطا ذراعيه الحجريين على الأرض متحديا كل شيء، نافحا المكان ذلك الجلال الذي يصنعه الحُجَّاب الذين يقفون بثبات أمام بلاطات الملوك والأباطرة الأقوياء، ركنت سيارتها قرب الهرم الأكبر، وقفزت صارخة بصوت عالٍ: "ليزا، ليزا، تعالي" صعدت الفتاة عرض الهرم الأكبر، بدت مثل برغوث يصعد ساقي فيل ضخم، صارت تصعد لاهثة من الانفعال، أمست في المنتصف، التفتت، رأت المياه على بعد خمسمائة متر من الهرم، يسبقها غبار جرار، غطى المكان، لم تر كتل الماء المندفعة، سمعت فقط ذلك الهدير الذي لفرط قوته فقدت حاسة السمع والإدراك، لكنها أحست بالغريزة أن عليها الارتقاء إلى القمة، احتشدت جميع قواها وحواسها في يديها وقدميها، تحولت إلى قرد سعدان، مرتقية المزيد من الصخور بسرعة لا تستطيع تفسيرها، فعلت ذلك دون شعور، في ظروف عادية مريحة تسلقت شجرة صنوبر باسقة في صقلية بطول ستين مترا، كانوا في نزهة يخيمون في أقاصي الغابة، فوجئ جداها حين سمعا صوتها المستغيث في الأعلى، حدث هذا قبل عام تقريبا، شل الخوف جسدها وهي ترى الأرض في الأسفل، اتصل جداها بالطوارئ، وبعد قليل أتى رجل شجاع من حراس الغابة وأنزلها بسهولة بواسطة حبال التسلق، بعدها لم تفكر في تسلق أي شجرة، أما في هذا الظرف، لم تطمع أن ينقذها أحد، تركت جسدها

وغريزتها ليتحركا في سبيل النجاة، متخلية عن كلبتها الحبيبة ليزا في الأسفل، لم يعد هناك سوى بضع صفوف من الصخور إلى قمة الهرم، هدها التعب بشكل رهيب، تيبست يداها وقدماها، قرفصت متشبثة عرض الصخور، خائفة من النظر إلى الكتل الثائرة، شرعت قطرات كثيرة ترشها، أحست بالكتلة الأولى تضرب قاعدة الهرم، تتالت كتل أخرى قوية، صفعتها موجة طائرة من الماء، التفتت بحذر، لمحت وسط الغبار كتل بيضاء قادمة مرتفعة، قفزت متشبثة بالفجوات التي نحتتها الدهور على الصخور التي غدت أصغر حجما، تسلقت في لمح البصر، حتى توقفت على آخر صف من الأحجار، لمست آخر صخرة في القمة، التفتت إلى الخلف باطمئنان أو باستسلام، لم يعد بمقدورها الارتقاء أكثر. حين ذلك صفعت الكتل المتتالية الهرم بقوة، آخر كتلة وقعت على الصخور الجاثمة تحت قدميها، بعض الأمور المجنونة لا يمكن للمرء أن يشاهدها سوى في الأفلام الأمريكية التي لم يعد لها أثر اليوم، بعد انطفاء العقول وتبخر الأخيلة وسقوط اللغات والحضارات صار هذا ممكنا، أن تشاهد فلما حيا تشارك فيه كبطلة بلا جمهور أو ممثلين سوى العراة الذين يسقطون كضحايا للمياه الجارفة، رغم ذلك، أوشكت أن تسحب بفعل التيارات الخفيفة التي كانت تطفح عن تلك الكتل الضخمة، تبللت تماما، ثم سقطت منهارة قرب القمة، غرقت في حال غريب من التبلد والضعف، ساد المكان جو رطب معتم، وشرع هدير المياه يخفت بالتدريج، ولم تدرك بحلول الليل حتى رأت ضوء النجوم متلألئا وسط الغبار والظلام، كانت الصخور باردة وتيار هواء

لاذع يهب على القمة، كان البلل يخدرها ويثقل حركتها، فاستلقت متكورة في وضع جنيني، وأغمضت عينيها.

مكثت ثلاثة أيام حتى جففت شمس الصحراء الأرض، نزلت عبر فجوات صنعها السيّاح بأقدامهم، توشك الريح الخفيفة أن تحملها لفرط ضعفها وضمورها، لاحظت أن المياه صنعت فجوة على الهرم الثالث، وشقا على هرم خفرع، أما الهرم الأكبر فلم يتغير فيه أي شيء، رأت الطيور تحلق في كل مكان، جثث عُراة متناثرة كأوراق شجر الخريف، سمك نافق، أدوات متنوعة مبعثرة هنا وهناك، سيارات مقلوبة، قوارب، طمي، سارت بحذر خائفة أن تجرح قدميها بشيء ما أو تعلق وسط الأوحال، بدت جائعة مصدومة، كانت مهددة بالانجراف وسط التيارات رغم ارتقائها إلى أعلى، اختفاء كلبتها ليزا هو الضرر الوحيد الذي أصابها، يا لها من مسكينة! في تلك الأثناء، سمعت نباحا قريبا، شاهدت ليزا تركض باتجاهها، فرحت واندهشت، حاولت أن تحضنها، لكنها ابتعدت عنها باحثة في الأرض الموحلة عن شيء تأكله، في بركة ماء ضحلة قفزت ليزا وانتزعت سمكة نهرية، أكلتها في لمح البصر، قفزت مارتا نحو سمكة أخرى، لكنها غاصت في الماء الموحل، ظلت لحظات تطاردها حتى أمسكتها من ذيلها، كان جوعها شديدا، وجدت شفرة على الأرض، شقت السمكة ونزعت أحشائها، رمت رأسها، أكلتها بشراهة، عطشانة أيضا، شفتاها جافتان، لا يوجد ماء صالح للشرب، انحنت أخيرا على حوض ممتلئ، أماطت القش والأوساخ عن سطحه، أغمضت عينيها، وشربت القليل، رشح مذاق مقيت في فمها، تصفحت السماء والجهات باحثة عن اتجاه تسلكه، وقفت مقابل الشمس الحارقة،

مولية ظهرها للغرب، مدت ذراعيها في طريقة بدائية لمعرفة الجهات، ما لبثت أن ألقت ذراعيها على جنبيها بيأس، لم يكن في ذهنها أي مكان محدد لتذهب إليه، مضت باتجاه الشرق، انتشرت الجثث في كل مكان، يومان من السير حتى خرجت من منطقة الفيضان، رأت بعض العراة يسيرون بعيدا، حاولت أن تتفاداهم، وجدت سيارة تاكسي سيئة الحال، قادتها على الطريق العام، وجدت مركزا تجاريا صغيرا قرب قرية أثرية، حصلت على كرتون من قناني المياه، وبعض البقوليات المعلبة التي لم تنظر في تاريخ صلاحيتها، نقلت مئونتها إلى سيارة مارسيدس حديثة، مازال خزانها مليئا بالوقود، قادتها بشكل جنوني على طريق مستو، شعرت بالنعاس، فتحت المذياع، تنقلت بين المحطات بلا شعور، أصدر الجهاز لغطا غامضا يوحي إلى انطفائه، ضحكت بسخط من غبائها، المذيعون والفنانون يرقصون عراة على إيقاعات أغانيهم السابقة، ضحكت هذه المرة بجذل حين دار هذا في ذهنها، أحيانا يتولد المرح في قلب المأساة، كل ما في الأمر أن نجاتها جلبت لها بعض السعادة، عرفت إن الاغتمام والتوتر لا يجديان في شيء، لا يتحتم أن تكتئب مدة طويلة، لأنها ببساطة لا تستطيع تغيير ما يجري، هكذا فكرت، كادت أن تنعس فوق المقود، أفاقت حين انحرفت سيارتها عن الطريق، صبت على وجهها بعض الماء، وواصلت السير، دخلت الحدود الأردنية، سياج عظيم بين البلدين بطول خمسمائة متر، حواجز إسمنتية عملاقة، تعجبت أن تنصب هذه العوائق بين بلدين جارين، يكفي بضع جنود ولافتات لتأمين المكان كما يحدث بين البلدان الأوروبية، أمست الكاميرات تأخذ مكان حرس الحدود، ربما تكون هناك مشاكل حدودية أو

عمليات تهريب واسعة للمخدرات، ما يبرر هذه الاحتياطات والجدران، نقلت إلى خزان سيارتها البنزين من خزانات سيارات حرس الحدود بواسطة أنبوب مطاطي، سارت في طريقها، كانت اللافتات تشير إلى العاصمة عمّان، اخترقت تلك الأراضي المنبسطة كالسهم في طريق مستقيم، بيئة جافة وهضاب وواحات صغيرة متباعدة، حرارة شديدة، العراة يعيشون قرب الواحات، وبرك الماء، تراهم يسيرون، تنشد أبصارهم حين يسمعون هدير السيارة، يشرعون بالجري باتجاهها، لكنها تمخر الطريق بسرعة مجنونة، يتراجعون غاضبين يائسين، بعد بضع ساعات توقفت فيما يشبه سوقا شعبيا، سيارات كثيرة متوقفة، بعضها عليه شعارات لشركات سياحية، قرأت لافتة كتب عليها "البتراء" ثلاثين كم مربع، كان السهم يشير إلى طريق أسفلتي ممهد، دار في ذهنها أن تزور الخزنة التي صنعها الأنباط في الجبل لأسباب غامضة، لم يتسن لها في زياراتها السابقة أن تذهب إلى هناك، هي حرّة الآن، ليس لديها أعمال أو مشاغل أو هدف، لا يوجد أحد يتحكم في تحركاتها كما كان يفعل والدها في الأعوام الماضية، ما كانت تنسجم في أي بلد حتى يدعوها للرحيل، كان جدول أعماله مكتظ بالأعمال والأبحاث، لكنها الآن تشكو من الملل والفراغ، تفتنها الآثار، إذا قدر لها أن تموت تكون قد استمتعت، وتشبعت بالمناظر المبهجة، لا يوجد وقت أنسب من هذا الميقات للفرجة على هذا العالم المنكوب، تبسمت، وجدت سيارة سياحية ذات دفع رباعي مفتوحة الأبواب، في صندوقها حقائب ومؤن عديدة، نفضت الغبار عن مقاعدها، شغلتها لتعرف قدرتها على السير ومقدار ما تحويه من وقود، كانت ممتلئة، فحصت الحقائب، وجدت بضع وثائق

شخصية لسياح من جنسيات عديدة، ملابس، شفرات حلاقة، كاميرات، شواحن جوالات، أوراق نقدية، وغير ذلك من اللوازم الشخصية التي يحملها السياح معهم، أما المؤن فقد كانت عبارة عن وجبات خفيفة، إضافة إلى كثير من زجاجات النبيذ والويسكي، سلكت تلك الطريق بسرعة رهيبة، يحفزها على ذلك إن الطرق خالية من السيارات والمارة، تسمع أقراص عديدة لأغاني أجنبية شهيرة، رفعت صوت الحاكي، وأخذت تتمايل وتغني بصوت عالٍ، مطلقة أصوات وضحكات رنانة، شعرت بالإثارة وروح المغامرة والثقة العالية، بدت مبتهجة أكثر من أي وقت مضى، اقتربت من واحة جاثمة قرب بحيرة صغيرة، نبحت ليزا بشكل مفاجئ، بدت متحفزة، فزعت مارتا، صاحت بسخط:

"ماذا دهاك يا ليزا؟ "

فجأة ظهر عدد من العُراة، قاطعين طريق السيارة، كما لاح العشرات منهم قادمين من الواحة مهرولين، كادت أن تضغط على الفرامل بقوة لتتحاشى الاصطدام بأجسادهم، ثم عدلت عن ذلك عندما انتبهت إن ضغط المكابح سيدع السيارة تنقلب وتتدحرج على الطريق مثل كرة قدم، دهست العراة بقسوة حتى تناهت إليها صيحاتهم الأخيرة، وأصوات عظامهم المهشمة، لم تجرؤ أن تنظر في المرآة الجانبية، ظلت متسمرة تحملق إلى الأمام في وجوم وذعر، أغلقت جهاز الحاكي متشائمة، جال في ذهنها إن هذه الواحات الخضراء لا تخلو من المفاجئات غير السارة، وكأنها لا تحتمل الفرح، أو تضيق ذرعا بالطروبين، بحيث تطرد كل شخص غريب يصل إليها أو تقيض لهم أمر سوء يؤدي إلى سحقهم أو نفيهم بعيدا، كانت تدرك أنها تبالغ في

شكواها، لأن ما جرى هو أمر طبيعي قام به أشخاص مجانين يكرهون أن يشاركهم أحد في واحتهم، معظم الحيوانات تدافع عن مناطقها، لعل ما جرى يوحي إلى أن الإنسان ليس كائنا سماويا كما يدعي رجال الدين، بل هو كائن متحول ومتدرج ساعدته الظروف الطبيعية على التطور الفسيولوجي حتى وصل إلى مرحلة العقل وصنع الحضارات المتعاقبة، من يدري! ربما يكون بوسع الكلاب أو القرود أن تحظ بهذه الفرصة في التطور، تبخرت في ذهنها الأفكار عند مدخل البتراء، توقفت قرب "الخزنة" كما كتب على اللافتة المثبتة قرب الجبلين الكئيبين باللغة الانكليزية، حجرة واسعة ذات عقود حجرية أنيقة نحتت عرض جبل بركاني من الجرانيت الأحمر، فجوات عديدة في الجبل لا يدرك أحد ما الهدف الذي صنعت من أجله، لقد وعدها والدها أن يأخذها إلى هنا مطلع هذا العام، ثم اعتذر لها لاحقا مدعيا أن ثمة أمر طارئ أفسد خططه، لكنه لن يخذلها في المرة القادمة، لم تسأله عن هذا الأمر الطارئ الذي يجعله يتنصل عن وعده، كانت سعيدة بالعيش قرب الجدين، تدير حياتها بنفسها، بل يمكن القول إنها كانت تدير جميع شئون الدار والمزارع والحظائر، وتحس بالاستقلالية، في العامين الأخيرين اختارت أن تكون مستقلة بعيدا عن دلال الطفولة الذي حرمت منه بعد انفصال والديها، كان والدها يأخذها إلى مدن الشرق وإلى عدد كبير من المواقع الأثرية، لأنه يشغل منصب المدير الإقليمي للمنظمة الدولية للثقافة والعلوم في الشرق الأوسط، ما يجعله في سفر دائم، وقد كانت سعيدة جدا بالتجوال برفقته من بلد إلى آخر حتى تضوعت قبل عامين رائحة علاقة سرية جادة بينه وبين امرأة جميلة مغرورة تعمل في

المنظمة تدعى ناتاليا، يبدو أنه سعى إلى توظيفها في المنظمة لترافقه في سفرياته ويقيمان علاقات حميمة دائمة، كانا يبدوان منسجمين، يحاولان أن يظهرا الود لها، ظلت المرأة تحاول بمثابرة أن تكون حنونة ناحيتها، لكن نظرات عينيها المتكلفة تفضحها، لا شيء يضاهي حنان الأم وحدبها على طفلها، لِمَ لا نكن واقعيين وصريحين؟ غضبت من والدها، وعلاقته الغريبة بهذه المرأة، لا تريد أن تقف حجر عثرة في طريقه، من حقه أن يعيش حياة سعيدة، لكن ينبغي ألا يفرض هذه المرأة على حياتها أو يتقمصان أمامها دور الإشفاق والحنان لأن ذلك يشعرها باليتم والذل أكثر من أي شيء آخر، إنها تكره المثاليات الزائفة التي تشبه تقاليد ومثاليات الشعوب البدائية التي تسكن هذه الصحاري القاحلة، لعل طول بقائه في هذه البلدان أصابه بعدوى المثالية والتصنع، تنهدت بأسف، أخذت جولة قصيرة في المكان حول الخزنة، رأت خيام كثيرة منتصبة بالباحات المفتوحة حول الجبل تحوي مقتنيات البدو الرحل، من مواقد وأدوات وجرار وفُرُش يدوية صنعت من جلود الحيوانات، كانت في الغالب مغطاة بالغبار، لكن رائحة القهوة اليمنية مازالت تفوح من الدِلَال النحاسية الموضوعة فوق المواقد التي خمد جمرها وسكنها الرماد والجمر الفاحم، كما انتشرت قرب الخيام سيارات الشركات السياحية التي كانت معظمها مفتوحة تحوي حقائب السياح ومؤنهم، لكن المكان بدا خاليا محاطا بالسكون والوحشة، تمنت مارتا لو يكون بوسعها المبيت في الخيام لما تتميز به من البساطة، إذ ترى أن العيش فيها يعني الاقتراب من الفطرة البشرية الأولى، ستشعر أيضا أنها قريبة من الأرض لا يفصلها عنها سوى بساط بدوي منسوج من جلود

الحيوانات، يختلف الأمر لدى سكان المدن الذين ابتعدوا عن جوهر الحياة وبساطتها، إذ يتعالون عن حياة الأشخاص الذين يعيشون وسط الطبيعة، بل لقد شعرت في العامين الأخيرين أن سكان مركز الجزيرة الذين يعيشون بعيدا عن الضواحي والأرياف ينظرون إليها بازدراء، كلما ذهبت إلى الأسواق للتبضع أو لابتياع الروايات من المكتبات، يتصفح المتسوقون والمارة ملابسها الريفية بدهشة وكأنها مخلوق فضائي، لكنها لا تعيرهم أي اهتمام، بل تنفخ في وجوههم دخان سيارة جدها الحديثة، وتمضي مسرعة نحو حيواناتها ومزرعتها، لا يعرفون بالشغف الذي يتملكها، وكذلك السعادة، ناهيكم أنها تعمل لأجل الأرض والحيوانات بمقابل جم، ليس فضلا أو شفقة، إنها موظفة مجتهدة لدى المزارع والخنازير والأبقار والخيول، الأرض والحظائر تدفع لها أكثر مما يدفع مدراء الشركات وأرباب العمل المتعجرفين لأولئك الأغبياء الذين يحتقرون مظهرها وعملها، تتلقى بضع ألوف من الدولارات في العام، وينال جدّاها مثل هذا المبلغ لأنهما المالكان، كثير من الجيران ظلوا يستغربون على حالها، حتى والدها بدا مستغربا وسألها في رسالته معاتبا كيف استطاعت أن تهجر المدرسة لتصير مزارعة ومربية ماشية! كيف استطاعت أن تملك ذلك الجهد اللازم لتحمل تلك الأعمال الشاقة والروائح الكريهة؟ اعتذر لها عن انصرافه عنها مؤخرا بسبب طبيعة عمله وتنقلاته، وعرض عليها أن تأتي لتعيش معه في أي مكان يسكنه، أو بوسعها أن تلتحق بأرقى مدرسة في بيروت قريبا من والدتها، ردت عليه في رسالة تبدو لطيفة في الظاهر، لكن في باطنها يندس الحنق والعتب الحادين، شكرته على اهتمامه بأمرها وعلى عرضه الجميل الذي قدمه لها

مؤخرا، لكنها الآن تظن أن الأوان قد فات على السفر إلى بيروت للدراسة والعيش قريبا من والدتها، لأنها ارتبطت بالأرض والحيوانات، اكتشفت شغفها بالمزرعة والحظائر، وهو شغف يجعلك تتحمل جميع المشقات وأرهق الأعمال في سبيل أن تعيش مع من تحب، وهذا لا يعني أنها لا تحب والديها، بل إنها صارت تحس ببعض الضجر من صحبة جميع البشر، وتجد في عملها بالمزارع كثيرا من المتعة والسعادة، أما الدراسة وروتينها اليومي فهي أكثر مللا من أي شيء آخر في الوجود، لأنك تتعلم ما يريدون لك أن تتعلمه، بوسعهم أن يحولوك إلى مجرم أو إرهابي أو عنصري بطريقة رسمية شرعية، في حين ينتظر والداك أن تصبح طبيبا أو مهندسا أو رساما، ليكتشفوا مؤخرا أنك ذهبت للانتماء إلى خلية إرهابية أو حزب ديني أو قومي متعصب، هذا ما يحدث على الدوام، أخبرته أنها تعشق الروايات التي تدور في الغابات، أو الأدغال الكثيفة، أو الجزر الخاوية من الناس، قرأت شارلوك هولمز، روايات جورج أورويل، إيزابيل الليندي، أعمال د. ف. لورانس، والكثير من الروايات القديمة والحديثة، كما تقرأ بعض الكتب الفلسفية الوجودية والمادية والنظريات التي قيلت عن النشوء والتطور، بوسع المرء أن يعلم نفسه ما يشاء، هي سعيدة على كل حال، وتتمنى له السعادة أيضا.

كان هذا أهم محتويات رسالتها إلى والدها، تبادلا بعد ذلك رسائل عديدة باردة المحتوى، مثل كل الرسائل التي يتبادلها الآباء والأبناء، تنهدت بألم وحزن، لقد فقدت كل شيء حتى رواياتها لم يتسن لها حملها، حدث كل شيء بسرعة ودون تخطيط، لا يهم، الاتصال مع الطبيعة أمر حسن، لكن

ما حدث قرب الواحة أفسد الأمر، يبدو أن العراة يقيمون في الواحات القريبة، رغم أنهم فاقدو العقل لكنهم يسيرون وفق غرائزهم الحيوانية، وبما أنهم وقفوا في طريقها ليعيقوها عن التقدم، فإن هذا يدل على أنهم يرفضون دخول أي كائن غريب إلى مناطقهم، فالسيارة من مخلفات الحضارة المنقرضة، كما أن الشخص الذي يقودها يعد دخيلا، ولا يستبعد أن يهجموا عليها كما حدث في البلدان التي اجتازتها، كان الغروب يقترب، ملونا وجه الصحراء برداء داكن، وجدت في إحدى الخيام لوحات زيتية رسمها أحد الرسّامين الهواة الذين زاروا المكان، إضافة إلى طلاء تلوين متعدد الألوان وفرشة رسم وريشات، خطرت في رأسها فكرة مجنونة، بأن تطلي زجاج جميع السيارات بالألوان، ومن ثم تبيت داخل إحداها في سكون تام، ومع بزوغ الصباح سوف تبحث لها عن مأوى أكثر أمانا أو ترحل بعيدا عن البتراء، بمجرد أن ستر الظلام الأرض شرعت تنفذ خطتها الغريبة التي تروم من خلالها خداع العراة في حال هاجموا المكان. اندست في سيارة جديدة، تركت فيها بعض الثقوب دون طلاء لتتمكن من مراقبة الأجواء في الخارج، فرشت لها لحافا أخذته من الخيام، وتدثرت بغطاء صوفي لأن الجو كان باردا قرب الخزنة على خلاف النهار، حيث لا يكاد جسدك يتوقف عن التعرق، استلقت للنوم خائرة القوى.

عوت ليزا بخفة في جزء من الليل، ووضعت إحدى قائمتيها على صدر مارتا، نهضت الفتاة مرعوبة، احتاجت برهة لتدرك أنها قرب الخزنة وسط سيارة مطلية النوافذ، سمعت حركة في الخارج، نظرت عبر الثقوب بحذر، كانت هناك أطياف لأشخاص يتحركون في المكان، مالوا ناحية السيارة وهم

يشمون الهواء، احتضنت الفتاة كلبتها مطبقة على فكيها بهدوء، انحنت جاذبة الغطاء على جسدهما الريان لتضيع رائحتهما، بدت مدركة خطورة الموقف بعد أن لمست في وقت سابق أن حاسة الشم لديهم قوية جدا، اهتزت السيارة بشدة حتى أوشكت أن تنقلب، لم تصدرا أي حركة رغم خوفهما الشديد، بعد قليل ساد السكون في المكان، تحركت الكلبة وأصدرت أنينا خافتا، قامت مارتا، ووضعت عينها على أحد الثقوب، لم تر أي طيف في الخارج، ظلت ترتعد بعض الوقت، ولم تنم حتى الصباح.

في اليوم التالي قادت سيارتها عائدة من حيث أتت، اقتربت بخوف وحذر من الواحة، فكرت أن تسير ببطء حتى تصل إلى مسافة معقولة، ثم ترفع من سرعتها وتمرق متجاوزة الخطر، لكنها ما لبثت أن وجدت الطريق مسدودا، بكتل ثقيلة مكومة من الأحجار، رأتها بوضوح، ما يعني أن عليها أن تسلك طريق الواحة، وهو مسار إجباري لمن يريد أن يعبر إلى الطريق العام، ومن ثم يسقط في قبضة العراة، لذا استدارت مارتا وعادت أدراجها إلى الخزنة، كانت هناك طرقا فرعية غير ممهدة تقود إلى المجهول، لم تشأ أن تجازف بعبورها تحت أي ظرف. أدركت أنها محاصرة في البتراء، حبذت أن تقوم بعملية جرد سريعة لما تملكه من مقومات العيش حتى تجد وسيلة للخروج من الحصار، قامت بجمع حقائب السياح وأغراضهم ومؤنهم، نقود كثيرة لا أهمية لها، ملابس مختلفة الأحجام، كاميرات، ألبومات صور، ومستلزمات رجالية ونسائية عديدة، تشمل المؤن وجبات خفيفة، قطع شوكولاتة، ومكملات غذائية أخرى كالفيتامينات الدوائية، وعلب كلور لتصفية المياه الراكدة وكأنهم يتوقعون أن يتوهوا في الصحارى أو الجبال، أثناء تفتيشها

بين حقائب المسافرين وجدت جواز سفر والدها، سقطت الوثيقة من يدها بفعل الاندهاش، أخذتها ثانية ودققت النظر في الصورة، لم تصدق، نبشت في تلك الحقيبة لتبحث عن شيء آخر، وجدت بطاقة عائلية باسم انطونيو سانتوس، وامرأته ناتاليا جيمس، الشابة التي ترافقه في عمله، وجدت وثائق تثبت أنهما قضيا شهرا في لبنان، بفندق بيلمونت في منطقة إهدن الجميلة، ثم أخذا جولة إلى البتراء لمشاهدة الخزنة، هذا يعني أنهما أصيبا بالجنون في هذا المكان، ويوحي ذلك أيضا أن والدها هائما في الواحة أو بمكان ما قريب، هل يهاجمها وامرأته الجديدة مع العراة؟ أصابها هذا السؤال بالقشعريرة، امتعضت بشدة، كيف تسنى له أن يرتبط بتلك الموظفة المغرورة دون أن يخبرها بذلك؟ لعله حين بعث لها تلك الرسالة طالبا منها القدوم إلى الشرق والدراسة في بيروت، كان يمهد سبيلا لإخبارها أو للتذرع بالرسالة في حال افتضح أمره، يا لهم من أوغاد، الناس جميعا كذلك! تبسمت أخيرا، يجب أن تضحك على نفسها، إذ تتحسر وتسخط على أشخاص فقدوا عقولهم! وعلى عالم لم يعد موجودا! التفكير في أحداث الماضي لم يعد مجديا، أما الأمر الذي يتحتم عليها أن تفكر به هو كيف تغادر هذا المكان بأسرع وقت ممكن، هناك أولويات شديدة الأهمية، لتفكر في المؤن، الماء، وسائل الدفاع عن الذات في حال هاجمها المجانين، لتستثمر عقلها بالتفكير في النجاة، لتجند قواها قاطبة في سبيل الخروج حية من البتراء، العقل مقابل الكثرة العددية، العراة لا شك يملكون قدرات من نوع ما، لقد أتوا ليلا للبحث عنها، اقتفوا رائحتها، وهي بدورها خدعتهم، اختبأت وكلبتها وسط الأغطية التي أخذتها من الخيام، أولئك

الأوغاد سدوا طريقها بالأحجار أيضا، يعرفون أنها لن تخاطر بالسير عميقا في الداخل، وأنها ستعود لتسلك الطريق الذي أتت منه، زفرت بغيظ، قررت أن تستكشف المكان قبل أن يشنوا هجومهم الليلي المرتقب، لسبب ما لا يأتون في النهار، كأنهم ينامون كالخفافيش، لكن التفسير المعقول هو أنهم يخشون حرارة الصحراء الخانقة، لا يحتملون العطش، يوفرون طاقتهم، ليسوا مجانين تماما، لذا يتحتم الحذر منهم، فكرت بذلك، جالت بالسيارة حول الجبل، وجدت مبنى عريض فوق ربوة واسعة مرتفعة، على فنائه سيارتين تابعتين للشرطة، وكذلك سارية علم الدولة الأردنية، مرسوم على جدرانه شعار الجيش، وصور لجنود أمن أردنيين، كما يتوسط الفناء مجسم ضخم لملك الأردن، تأملته بنظرات ثاقبة لترى إن كان يملك سمة بارزة تثبت عظمته، سمعت من والدها إن العرب يبجلون ملوكهم وزعماؤهم وأنبياءهم الذين لم يصنعوا هرما أو خزنة أو أثرا عظيما كما فعل ملوك مصر أو سبأ أو الأنباط القدامى، لا يهم، في جانب الفناء، لاحظت وجود مولد كهربائي يشتغل على الديزل، يظلله سقف من الزنك، دخلت المبنى بحذر، بدت تلك الثكنات رهيبة، غرف عديدة صامتة، مكتب كبير تلوح خلفه على الجدار صورة للملك مرتديا الزي العسكري، وجدت مفاتيح عديدة في الأدراج، أخذتها وواصلت البحث، في نهاية الممر عثرت على غرفة مقفلة ذات قضبان حديدية تشبه زنزانات القرون الوسطى في إيطاليا، بضع هياكل عظمية في الداخل، ثمة قيود قرب الأقدام، ما يعني أن السجناء كانوا مقيدي الأقدام حين أصيب الناس بالجنون، وقد ظلوا محبوسين حتى ماتوا، سقطت القيود حين تحللت أقدامهم، أحست

بالشفقة ناحيتهم، ماذا فعلوا ليسجنوا هنا؟ هل كانوا لصوص آثار؟ أخذت المفاتيح وأفرجت عنهم بعد فوات الأوان، إنقاذ معنوي لا جدوى منه، فتحت الأبواب المقفلة الأخرى، وجدت مئونة كاملة ستكفيها أعواما، بقوليات، فول، فاصوليا، تونا، كراتين تمور عربية، كراتين من قناني الماء، سلاح كثير، رشاشات متوسطة وخفيفة، صناديق طلقات نارية، قنابل، مصابيح كهربائية ويدوية، مناظير عسكرية، ملابس وأحذية عسكرية جديدة، قررت أن تمكث في هذا البناء قريبا من المؤن والسلاح والنور، بوسعها أن تستفيد من المولد لاسيما في النهار، لا تود أن تستخدم المولد في الليل حتى لا تلفت أنظار العراة، هناك تلفاز وثلاجة للتبريد وراديو ومسجل اسطوانات، شغلت المولد للتو، ملأت الثلاجة بعلب البقوليات، ظلت تستكشف المكان وما لديها من إمكانات، فكرت في المفتاح الذهبي الصغير الذي يلوح بين المفاتيح، لا بد أن يكون له هدف معقول، هناك باب لم تره بعد، أخيرا وجدت بابا صغيرا بالقرب من باب المكتب، كان من الألمونيوم الأبيض، يشبه لونه الجدار، فتحت الباب، لاحت غرفة نوم ذات سرير عائلي أنيق، عبقت رائحة عطر نسائي فرنسي من ماركة شانيل، وجدت دولابا يحوي عطورا وأدوات تجميل، ملابس نسائية، فساتين، سراويل داخلية، حمالات صدر، رسائل غرامية كثيرة، وصور لسائحات أجنبيات في الغالب، كما رأت صورة وحيدة للعشيق، رجل وسيم حليق الوجه في عمر والدها، هو قائد الشرطة في البتراء على ما يبدو، حين قلبت صور النساء وجدت صورة ناتاليا، وجدت هاتفا فوق تربيزة صغيرة بالغرفة، كان عاطلا على ما يبدو، وصلته إلى الشحن الكهربائي، وانتظرت بضع دقائق، يشدها

فضول عارم لتدرك سبب وجود صورة امرأة أبيها في غرفة نوم الرجل الوسيم، فتحت الجوال، وجدته مقفلا برقم سري، رمته جانبا بضجر، تبسمت بضيق، فتحت الجوال وانتزعت ذاكرة الهاتف، رمتها بعيدا، ليس لديها هاتف تضعها فيه، ما قيمة التنقيب عن فضائح الآخرين الآن؟ ما جدوى البحث عن خيانات هذه امرأة ورجل من العراة المجانين؟! الأجدر أن تبحث عن خطة للهروب من البتراء، قلبت الرسائل الورقية، كتبت بلغات عديدة، انجليزية، فرنسية، إيطالية، ألمانية، ماذا تفعل؟ لديها وقت فائض، تستطيع أن تقرأ بالإنكليزية والإيطالية والعربية فقط، وجدت قصاصة صغيرة من الورق كتب عليها بالإيطالية: "انتظرني بعد أن أفرغ من جولتي الصباحية في الجبل، سوف نحتسي كأسا من النبيذ العربي في الغرفة، سأترك لك الورقة في طرد صغير مختوم، سأضعها لدى الجندي حسن، ناتاليا" شعرت بالغضب، تأملت صورة قائد الثكنة الوسيم، الرجال الشرقيون أحيانا يملكون وسامة نادرة لا تستطيع النساء الغربيات مقاومتها، وربما يكونون بارعين في السرير، لكنهم كما سمعت لا يصلحون للزواج، لأنهم في الغالب بدائيون في التعامل مع النساء، يرتابون ويغيرون مثل رجال الدين، تنبهت أن هناك نبيذ في الغرفة، نبيذ القائد وعشيقاته، فتشت في المكان دون جدوى، جلست على كنبة عريضة وثيرة تقابلها أخرى أصغر حجما يبدو أن الغرض منهما الحصول على وضعيات جنسية متنوعة، لمحت شيئا تحت السرير، عثرت على قوارير النبيذ والويسكي والبيرة، كما وجدت كأسين في الجانب الآخر، هي في السابعة عشر من عمرها، لا يهم، ليس مسموحا لها أن تشرب بالقانون الإيطالي سوى في عمر

الثامنة عشر، لكن هذا القانون يتم كسره وتجاوزه في كل مكان، المراهقون يجدون عذوبة ومتعة في التمرد لاسيما التلاميذ، كل شيء كان يحدث سرا، وقد فعلت كل شيء محظور برفقة صديقها رافيليو في الجبال والبراري التي كانا يذهبان إليها، تنهدت، شربت جرعة من البيرة، استلقت على السرير العريض، داهمتها مشاعر جنسية من أحلام اليقظة، نهضت مفزوعة، فكرت إن هذا السرير اللعين يثير أجساد النساء كما يفعل السحر، ابتعدت عنه، ليست متبتلة، ولا تحمل عقل راهبة، لكن الظرف ليس مناسبا للاستمناء فوق سرير طحنت فوقه أرداف نساء أخريات، فالعراة سوف يمزقونها بأعضائهم إن عثروا عليها، يجب أن تشغل نفسها بشيء أكثر جدوى، سارت إلى الخارج، رفعت المنظار العسكري، وتصفحت الطرقات والمناطق المحيطة بحثا عن أي شيء غريب، أوصدت باب البناء، وعادت إلى الغرفة السرية، استلقت فوق السرير لتنام، كانت متعبة، مع ذلك داهمتها تلك الخيالات مرة أخرى، لم تستطع النوم حتى فعلتها، استيقظت قبل المغيب، خرجت مهرولة إلى الفناء، أطفأت المولد الكهربائي، وأوصدت الباب بالمزلاج الكبير، كانت الممرات مخيفة، والجو مرعبا في الداخل، استخدمت المصابيح اليدوية للتخفيف من وحشة المكان، سمعت بعض الأغاني من الحاكي الذي يعمل بالبطاريات الجافة، شربت كأسا من النبيذ لتحظى بالدفء، بعد لحظات نبحت ليزا، أخذت السلاح الذي اختارته من المخزن، رشاش نوع ١١١ أمريكي الصنع، تسللت إلى حجرة مطلة على الخارج، أمعنت النظر من النافذة، كان بصيص من ضوء القمر ساطعا في الليلة الثانية عشر من الشهر، لم تر شيئا للوهلة الأولى، لكن ليزا ظلت

متوترة، قالت الفتاة بعصبية: "توقفي يا ليزا عن إثارة الضجيج، لا أحد" حين ردت بصرها للمرة التالية، رأتهم قادمين بأعداد كبيرة، بدوا يشمون الهواء باحثين عن شيء ما كما هي عادتهم، ظهروا خارج الفناء، عادت إلى الغرفة السرية، أخذت كلبتها في حضنها، وتدثرتا بملاءة على السرير لتخفي روائحهما، ظل العراة يضجون في الفناء، ويثيرون الفوضى، كما تعالت دقات أقدامهم على السطح، هزوا الباب بعنف، وقذفوا الأحجار على النوافذ، فكرت مارتا أنهم سيملون ويذهبون، لن يشموا روائحها مادامت مختبئة تحت الدثار، مرت بضع ساعات وهم واقفون على الفناء أو السطح، عشرات الأحجار سقطت داخل الغرف، ناثرة الزجاج في الأرجاء، بدوا هذه المرة واثقين من أنفسهم، كيف عرفوا أنها وصلت إلى هذا المنزل؟ هل يراقبونها؟! سألت نفسها بعجب، ظنت أنهم سيعودون إلى واحتهم بعد قليل، ساد الهدوء، مكثت بعض الوقت، ثم تسللت إلى النافذة، مازالوا واقفين على الفناء، سرعان ما نهضوا متحفزين، هزوا الباب والنوافذ، كانت مطمئنة، لأن الباب مصنوع من الحديد المصفح، أما النوافذ فإنها محصنة بقضبان غليظة من الحديد الصلب، رجعت إلى الغرفة، شربت كأسين من النبيذ، تمنت أن يغادروا في تلك الليلة، لا يهم، لديها طعام وماء، وهم سوف يصابون بالجوع ويعودون إلى واحتهم، فكرت، إنها مسألة وقت، لكنهم لم يغادروا لمدة أربعة شهور، أو بالأحرى كانوا يتناوبون، جزء منهم يذهب، والجزء الآخر يبقى ليحاصرها، لاحظت ذلك التكتيك الخبيث، لن يصدق أحد أنهم مجانين، إنهم شياطين يدب بينهم نوع من النظام أو التفاهم، رأتهم بالفناء يقضون وقتهم بالصراع على الفوز بالإناث المكتنزات،

لم يعودوا يقلقون راحتها، أو يقتربون من الباب، لا يتسلقون النوافذ، ولا يصعدون على السطح، عرفت قائد الثكنة العسكرية الوسيم بالصور، صار في حال مزرٍ، نمت على وجهه لحية ضخمة منفرة ابتلعت ملامحه، له عضو كبير يتمايل بإغراء بين فخذيه، أعضاء كثيرة ذكرية وأنثوية متهيجة، سائحات وسياح أوروبيون عراة مميزون بأشكالهم، جنود الثكنة العرب بدوا أيضا مميزين بملامحهم البدوية، جميعهم يقيمون حفلة ماجنة، ينفرد كل ذكر وأنثى في زاوية بالباحة العريضة، يمارسون أفعالهم الحيوانية جانبا، يشهقون بشكل غريب، تصدر الإناث تلك الأصوات الرخوة والأنين اللذيذ الذي يسمع في الأفلام الإباحية، عرفت امرأة أبيها، ينكحها أحد الجنود العرب، ذكر آخر كان يمارس الجنس مع أنثى أخرى، لاحظت عضوه الضئيل الذي يشبه عضو مراهق، يسله ويدفعه بتلذذ وهدوء، تشخص إليه الأنثى بامتعاض، تكشر عن أسنانها علامة عدم الرضا، فهمت مارتا إن الأنثى تريده أن يسرع، أو أن ما يفعله لا يرضيها، أصدر الرجل حشرجة وانية من صدره، دققت مارتا النظر في الرجل، إنه يبدو مثل والدها، اختفت ملامحه وسط شعر كث ملبد، بدا هزيلا ضعيف الجسد، لم تعد موقنة أنه الرجل الذي كان كامل الطول حسن الهندام، الآن تكاد روائحهم تقتلها، تصل إليها من الفناء على شكل موجات متتالية كريهة، رغم ذلك، استطاعوا أن يثيروا حيوانها الجنسي، ظلت تتفرس إليهم وهم يمارسون طقوسهم المبتذلة بشكل خبيث مدروس، يعرفون أنها فتاة في السابعة عشرة، إنه نوع من التعذيب النفسي، بل أشد ألما من الضرب بالسياط، هذا يشبه أن يأكل أحدهم وجبة شهية أمام شخص مغلول يتضور جوعا،

نحن بشر في النهاية نملك غرائز مثل باقي الحيوانات، كان بوسعها أن تدعي الفضيلة التي يحبها الرجل الشرقي وتقول بأنفة كاذبة إنها لم تتأثر أو تهتم بما يفعلونه على الفناء، لم يعد للكذب وادعاء الفضيلة أي معنى، مات الإله والشيطان ورجال الدين، لا يوجد من يحصي حسناتك وسيئاتك، قل ما تشعر به دون أن يعترض طريقك أحد، لا شيء يبدو حقيقيا، لا شك إن العالم يغط في نوم عميق، ويرى ما يدور في منامه، كلا، هذا ليس حلما، انسحبت إلى سريرها، وانخرطت في بكاء شديد، نامت بضع ساعات، رأت أعضاء العراة تتزاحم قرب مؤخرتها، وهي تصرخ على والدها أن ينقذها، لكنه يأتي مجردا عضوه الضئيل ويقترب من جسدها، تفز من نومها، تذهب لتراقب المجانين، تجدهم يكررون ألاعيبهم، يتناوبون على الإناث، تتبدل الوجوه كل يوم، ذكور وإناث جدد، يمارسون الجنس على الفناء، لا يذهبون إلى أي مكان آخر، أوشكت أن تفقد عقلها، لم تعد تحتمل العذاب، بل إنها فقدت عقلها فعلا، خلعت ملابسها ورمتها بعيدا، أمسكت في كل كف قنبلة، نزعت مفاتيح أمانها بأسنانها، وخرجت دون وعي، رمتها على العراة الغارقين في نشوتهم، فر قليل منهم، وتكومت أجساد أخرى على الفناء، فقدت شعورها، عادت إلى المخزن، أخذت رشاشين، وجعلت تطلق النار بهوس، رأت والدها يزحف جريحا كدودة، أطلقت النار على رأسه حتى رأت بياض دماغه يطير على الأرض، قائد الثكنة صبت على عضوه الكبير الذابل الكثير من الطلقات النارية، لم تترك ذكرا أو أنثى على قيد الحياة.

جثت على ركبتيها أخيرا، أطرقت إلى الأرض، بدت نائمة أو في غيبوبة، أفاقت حين سمعت الصراخ من بعيد، ارتدت ملابسها، وحملت بعض الماء

والمؤن، قادت سيارتها بعيدا عن الثكنة. سلكت طرقا ترابية وعرة مثيرة الغبار، لم تسلك طريق الواحة، لم تكترث أن تتوه، تريد أن تخرج من البتراء بأي حال، انتهى بها المطاف بعد بضعة أيام في معبر يقود إلى الأراضي السعودية، تزودت بالمؤن والبنزين من المعبر، وسارت في طريق صحراوي واسع مستوٍ، تنقلت في هذا البلد من مكان لآخر، حوصرت، طوردت، هربت جنوبا، وجدت قصرا ضخما على رابية عالية تطل على واحة عريضة في منطقة جدة، تزودت بالماء وأكلت شيئا ما، فجأة سمعت صراخ العراة، هربت إلى الفناء المترامي الأطراف، رأت طائرة صغيرة هناك، قادتها بعيدا متوغلة فوق جبال ووديان مجهولة حتى رأت البحر، طارت على امتداد البر والساحل، وفي مكان ما توغلت فوق الجبال الشاهقة باحثة عن موضع مناسب للهبوط، حتى رأت منطقة خضراء جميلة بدت مميزة، فكرت أن تهبط، لكنها كلما اقتربت من الأرض سمعت صراخ المجانين في الأسفل، ساورها الخوف أن يحاصرها العراة الذين يحبذون البقاء على الواحات، حبذت أن تبحث عن مطار لتتزود بالوقود، فجأة سمعت صوت تفجير قوي، فز قلبها من صدرها، لأن الانفجار يعني أن هناك شخصا عاقلا قام بهذا الفعل الخبيث، لأن المجانين لا يقترفون مثل هذه الحماقات، التفتت إلى الخلف، رأت الغبار أو الدخان يتصاعد، استدارت، عندما اقتربت رأت أحدهم واقفا على قمة الجبل يلوح بشيء ما في الهواء وكأنه يطلب المساعدة، دارت حوله مرتابة، ثم قررت أن تهبط مهما كلفها الثمن، أخيرا بعد بضع سنين وجدت شخصا يستطيع أن يبادلها الكلام.

المخطوطات

أثناء مرضها طلبت منه أن يمنحها كتبا وقصصا لتقضي فترة بقائها على الفراش بالقراءة، نظر إليها قائلا بأسف:

"لا أقرأ الكتب، لقد أحرقت كتب المنهج الدراسي لأنها مملة"

قالت بحيرة:

"كيف تقضي وقتك على هذا التل البغيض؟"

"انشغلت بالبحث عن أقاربي بعد جنونهم، زرعت الأرض موسمين متتاليين، قمت بإنشاء هذا الحاجز، وقاتلت العراة الذين هاجموني، كما عشت وفتاة عارية هنا لمدة عام حتى أتى أهلها وخطفوها مني، إنها قصة طويلة"

"بوسعنا أن نكتب قصتنا، ألا تشعر أن ما جرى يستحق أن يدون على الورق، أرجوك يا رعد، ابحث لي عن قصة مشوقة، لا شك أن هناك مكتبة في بلدتك وأناسا دونوا قصصهم في كتب قبل أن يصابوا بالجنون، الكتب هي الإرث الحقيقي للشعوب، اجلب لي بعض الأقلام والورق، دعنا نفعل ذلك حتى يأتي موسم الزراعة"

"كما ترين يا مارتا، مجتمعنا كان محافظا وتقليديا، المكتبات لا توجد سوى في المدن، لا أملك سوى مخطوطات ورقية كتبت باليد لم يتسن لي بعد قراءتها، إنها محفوظة في صندوق غريب بالمخزن، كتبها ساحر يدعى سعد،

لعله كتاب سحري أو ديني، لا أدري، هذه الأنواع من الكتب والمخطوطات كانت رائجة هنا قبل الجنون، لم أعد أؤمن بالكتب..."

صاحت بسخط:

"ويلك يا رعد، كيف لا تخبرني بأمر هذا المخطوط، سأذهب بنفسي إلى المخزن، ساعدني"

"لا تجهدي نفسك، سأجلبه إليك"

جلب إليها المخطوط المؤلف من ثلاثة أجزاء، رآها تجلس مستندة على الوسائد العتيقة، لم يكن متحمسا، قدمه لها قائلا بفتور:

"ها هو، لعلك تريدين إتقان التعاويذ"

ردت ضاحكة بجذل:

"إذا أعجبني المخطوط السحري سأنام وإياك على فراش واحد، وإن لم يعجبني سأحولك إلى حيوان أليف"

" أحبذ أن أتحول إلى طائر"

"عصفور الحقل"

"أحب أن أكون عصفورا، هذا جيد "

"هذا هو عنوان الكتاب الأول كما ترى، دعني وشأني للحظات، قم بالحراسة أو دع كلبك برق يقوم بواجبه واجلس قربي صامتا"

"كلبي يقيم علاقة حميمة وليزا، لا أجرؤ على مقاطعتهما الآن، نحن الوحيدان اللذان قدر لنا أن نعيش متباعدين"

ضحكت بصوت عال، وقالت مازحة:

" يا لك من غبي، لن يطاوعك عقلك أن تقيم علاقة مع فتاة مريضة، لأنك لست مجنونا، من فضلك، أوصد الباب خلفك بالمزلاج"

"لكني أوشك أن أجن، لا يهم، كوني بخير"

أوصد الباب بحنق، يكاد أن يفقد عقله فعلا، فكرت بإشفاق، لقد عاملته بطريقة غير لائقة، ارتابت من نواياه في بادئ الأمر، كانت تظنه همجيا متسلطا كما يشاع عن الرجال الشرقيين المكبوتين، دفعها إلى الاعتقاد بذلك أنها رأت جسده عاريا، كما ظل في الطائرة واضعا يديه بين فخذيه ساترا فرجه ما ينم عن الخبث والتظاهر بالفضيلة، تخشى الأشخاص الذين يكبتون غرائزهم، ندمت لأنها انتشلته من المتنزه، بعد سقوط الطائرة أخذها نحو التل، وأخذ يتصرف على سجيته بعفوية مريبة، مكث عاريا يسير أمام فتاة غريبة دون اكتراث، رأت عضوه منتصبا ذائبا بعد أن أفاقت من غيبوبتها، ظنت أنه اغتصبها دون أن تشعر، طلبت منه فيما بعد أن يستر عريه بصوت فظ، لف منشفة عريضة حول خصره، مع ذلك لمحت انتصابه مازال ساريا، سرعان ما سقطت المنشفة القذرة عن وسطه دون أن يكلف نفسه برفعها، استمر في خدمتها طويلا، يطهر جروحها ويزودها بوجبات ساخنة شهية يطهوها بنفسه، صار يلامسها دون أن تشعر أنه يفكر في جسدها، يضع أنامله في الأماكن الصحيحة المتألمة مثل

طبيب، كانت أصابعه ترتعش أحيانا، يحمر وجهه خجلا بسبب جفائها، راح يحرسها من الفتاة العارية الخطيرة التي هاجمتها، ينام خارج حجرتها، لا يدخل غرفتها سوى حين تطلبه أو تحين لحظات الاعتناء بالجروح، يأخذها إلى الحمام لتقضي حاجتها، ويظل منتظرا في الخارج بأدب جم، باتت رائحتها منفرة لأنها لم تغتسل بسبب جروحها، لم تشعر بتأففه أو نفوره، كانت رائحته طيبة لأنه يغتسل كل يوم، بات يحلق عارضيه لأن ذلك يعجبها، كان وسيما ورقيقا، يعاني من الكبت والحرمان إلى درجة لا تصدق، بات يتصرف بشكل راقٍ، أخذت تنظر إليه كصديق جيد، طلبت منه أن يروي قصته، عاش مثلها محروما من حنان والدته، امتلك أبا غاشما أقسى من والدها، كان مميزا في طفولته، صلبا وقويا ومكابرا، يحب الحيوانات والحقول، إنهما يحملان صفات مشتركة، لم تكن صدفة أن يكونا الناجيين الوحيدين، راحت تعتاد على لمساته وأنامله، طلبت منه أن ينام داخل الحجرة بدلا من النوم خارجها، صارت تمسك بيده فلا يمنعها، تدعه يحملها إلى النافذة لتطل على الحقول والحظائر، يحدثها حين تشعر بالملل، يصبح مرحا للغاية، ويجيد قول الأشياء التي تعجبها، أخذت علاقتهما تنفرج، زالت تلك الكلفة والريبة، حياتها ورافيليو لا تساوي لحظة واحدة في هذا التل، ظلت بضعة أيام متضايقة وحزينة، حتى فتحت قلبها لهذا الشاب، تنازلت عن كبريائها كله لهذا الدخيل الذي لم يكن همجيا أو انتهازيا كما يوحي عريه المشين، سألته يوما بسخط:

"لِمَ لا ترتدي شيئا من الملابس كما يليق بشخص محترم يقابل فتاة غريبة لأول مرة؟"

رد عليها ببرود غريب:

"اعتدت على العري منذ بضع سنوات، حين أرتدي شيئا الآن يخال لي أنني أقوم بفعل مشين، كما ترين صار كل شيء عاريا مكشوفا، في الليالي الباردة أغطي جسدي بدثار صوفي في المساء"

أضاف بعد لحظة:

"ارتداء الثياب من العادات القديمة التي عرفها البشر، ربطها البعض بالدين والآداب القويمة، في حين أنها كانت مرتبطة بالطقس، فالأشخاص في المناطق الباردة كانوا يرتدون الصوف، وفي المناطق الحارة لا يرتدون شيئا"

"عجبا أيها الشرقي، صرت تدافع عن حرية الملبس، وأنتم كنتم تغطون النساء بالملابس السوداء والأحجبة والسراويل الصوفية الثقيلة في المناطق الصحراوية الحارة"

"هذا صحيح، كانوا يفعلون ذلك بدافع الحشمة والدين، الآن اختفت العادات واندثرت الأديان"

تفكرت قليلا قبل أن تقول بشرود:

"أتعرف شيئا، أظنك على صواب، لأني كنت أسمع جدي يقول خذوا الحكمة من أفواه المجانين"

انفجرا ضاحكين، كان ذلك هو المنعطف الذي التقيا عنده، بدأت تنظر إليه كشخص واقعي غير زائف، فهمت أن بوسعها الخوف من الأشخاص

المثاليين أكثر من خوفها من أمثال هذا الشاب المتمرد، بدأت تمتحن جانبه الرقيق، وتلقي أمامه الكثير من الكلمات اللطيفة والابتسامات المرحة، قابلها بألفاظ نقية عذبة، وبادل مزاحها بخفة دم عجيبة، أصبحا يمران بمرحلة التجلي الروحي والرومانسي، يخرجان أجمل ما يحملانه من جمال ولطف، ينتقيان الألفاظ المحببة، ويتحدثان عن مواقف مسلية حدثت في طفولتهما، عن الأحلام القديمة، والشقاوات والمقالب التي فعلاها للآخرين، تبادلا الاعترافات عن اللحظات الشاذة التي قاما فيها بأشياء مخجلة، حدثها عن قريته وظروف عيش الناس، وعائلته وأقاربه في السبتية، وهي تحدثت عن كل شيء في الجزيرة، كشفت له كل شيء حدث في حياتها، كان ذلك تعارفا شاملا صريحا.

حين شرعت في قراءة الكتاب الأول "عصفور الحقل" مكث خارج المنزل، انتظر أن تناديه لترمي الأوراق في وجهه، معبرة عن خيبة أملها الشديدة، انشغل بتدعيم بوابة الحظيرة، كانت الحيوانات ترتع داخل التل، هناك الكثير من الحشائش حول الحقول، انتقل إلى أحواض الماء، أخذ يرفع الأحجار التي ألقيت هناك، سنبله فعلت ذلك، لم يعد يراها بعد وصول برق وليزا، لكن الأخيرين مشغولان بأيام العسل، يبتعدان إلى أطراف التل، هذا هو موسم تزاوج الكلاب، في هذه الفترة، ممكن أن يحصل أي اختراق للمكان، شيء ما يتدفق في صدره، سر جميل، تنهد بشرود، مال إلى شجرة رمان وارفة مزهرة، قطف أكبر زهرة متفتحة، ضمها بين أنامله مثل كنز نفيس، عاد مسرعا إلى المنزل، طرق الباب بلطف قائلا:

"مارتا، هل أنت بخير؟"

جاء صوتها حادا:

"أنا بخير، أرجوك لا تقاطعني الآن يا رعد"

انسحب إلى الباب، جلس على العتبة شاعرا بالضجر، يبدو أن هذه المخطوطات البغيضة سوف تفصله عن الفتاة، لا يعلم ما تحويه من هراء حتى تنصرف عنه، قلبه مفعم بالمحبة، لا يستطيع أن يبتعد عنها لحظة واحدة، أمست الأرض جنة وارفة بعد مجيئها، لا يعوزه أي شيء بعد، لكنه لا يطيق الابتعاد عنها، ولا يمل الحديث معها، لن يقاطعها عن القراءة، ليس الوقت مناسبا ليقدم لها الزهرة الحمراء، لا مانع أن تقرأ تلك الأوراق الغريبة، مادامت مستمتعة، فهذا أمر حسن، لكن قلبه يكاد يتبخر في صدره، الشوق سلطان قاهر ليس بوسعه أن يقاومه، دخل الغرفة متبسما بخجل ضاما الزهرة بين أصابعه، حاول أن يخفيها، جلس قريبا منها يتأملها بإعجاب، رآها تبتسم ثم تضحك، شعر أنها تقرأ شيئا مسليا، بعد لحظات زفرت بغيظ، تنهدت، كشرت، ارتفع حاجباها في الهواء بعجب، تبسمت ثانية، شهقت بدهشة، هكذا ظلت ملامحها تتقلب مع مرور الوقت، تنتقل من صفحة إلى أخرى دون أن ترفع بصرها، بقيت منهمكة لا تصرف بصرها عن الأوراق، شعر بالتعب والضجر، توشك زهرته أن تذبل، أطلق زفرة ضيق من صدره خرجت مثل دخان محترق، رفعت بصرها أخيرا، وقالت بشيء من الأسف:

"أعتذر يا رعدي الجميل، ابتسم، أرجوك، يلوح الحزن في عينيك، شدتني قصة سرحان الطحان وابنه الصغير"

رد بصوت حاول أن يبدو طبيعيا:

"سعيد لأجلك، فقط جلبت لك زهرة رمان، خشيت أن تذبل قبل أن تصل إلى يدك"

ضحكت بمرح وصاحت:

"قدم لي الزهرة الآن، اطمئن، أنا أحبك أيها الشاب الشرقي، اقترب مني لأثبت لك "

قدم لها الزهرة الحمراء قائلا بذهول:

"حقا؟ لا أصدق ذلك!"

اقترب وهو يرتعش من التأثر والسعادة، جذبته وطبعت قبلة على شفتيه، داخ قليلا، ثم انقلب على ظهره صائحا بجذل:

"ما أجمل هذا، أنا سعيد للغاية، لم أظن أن أحصل على هذا الحظ الحسن"

قالت مازحة:

"هذا لأنك الذكر الوحيد المتوفر، لا يوجد أمامك أي منافس، لن أقولها لك مرة أخرى"

"أرجوك، لا تبددي سعادتي"

" تقبل كل ما أقول لك برحابة، لقد أحرزت تقدما كبيرا للوصول إليّ، لأنك تصرفت بعفوية تحسد عليها"

"حين التقيت بك كنت صعبة المراس، قلت لنفسي إن هذه الفتاة الغربية تحتقرك أيها الفتى الشرقي القروي، تظنك حيوانا مكبوتا يبحث عن أنثى يغتصبها"

"لا تكن سخيفا، الأمور هكذا تبدأ بين الأشخاص الغرباء، وأنت من الصنف الذي أحبه، ولو أني التقيت بك في جزيرتنا قبل الجنون سأقابلك بهذا القدر من الإعجاب"

"أتسمحين لي أن أقترب منك أكثر"

تبسمت ونكست رأسها، قالت في سرها: "ماذا تنتظر أيها الغبي؟ هذا الأمر لا يعوزه الاستئذان" نهض بوجه متورد عازما على الانسحاب قائلا في سره: "لا تكن متطلبا، يكفي ما حصلت عليه اليوم"، قالت أخيرا بصوت هادئ:

"رائحتي كريهة لأني لم أغتسل بعد، هذا كل ما في الأمر"

"ليست كذلك عندي، رائحتك كالورد الصقلي"

ضحكت، اقترب منها، احتضنها، قبلها في شفتيها قائلا:

"لو تغتسلين سوف تزول روائحك الزكية"

" كيف تعرف الورد الصقلي أيها الماكر؟"

" لا أعرف سوى مارتا الجميلة، لا شك أن الورد جميلا في جزيرتك"

"توقف عن الغزل الآن، أريد أن أكمل هذه المخطوطات الشيطانية الممتعة"

"يبدو أنها نالت إعجابك، رأيتك تبتسمين وتتجهمين وتعقدين حاجبيك بذهول، حتى خشيت أن تصابي بالجنون"

ضحكت وصاحت بمرح:

"فعلا إنها تصيبني بالجنون لاسيما شخصية سرحان الطحان، ذلك الرجل الشبق، يبدو أنك ستنال المكافأة أيها الشرير، لذا أنصحك ألا تقاطعني"

أوصد الباب بالمزلاج، وانصرف متفائلا، أحس بقوة الحب والأمل اللذين إذا اجتمعا في جسد واحد يمنحانه طاقة عجيبة عاصفة من النشاط والمرح، أخذ يردد الأغاني القديمة، مطلقا لحنا شعبيا عاليا في الفراغ، صار بمنتهى السعادة والارتياح، في تلك الأثناء، وقف عند ركن المنزل متطلعا في الأفق بوله وهيام، فجأة طلعت سنبلة من ناحية النوافذ ممسكة بحجر بحجم حبة بطاطا كبيرة، توقف عن الغناء، تجمد في مكانه قائلا:

"سنبلة، ماذا تفعلين؟"

كان الشرر يطير من عينيها، قذفت الحجر صوبه بقوة، مطلقة صرخة مرعبة، حاول عبثا أن يتفاداه، لكنه وقع على خادعه، انبثق الدم غزيرا، سقط دائخا قائلا بصوت ضعيف:

"برق، برق"

جثمت على صدره، قبضت على عنقه بيدين قاسيتين فولاذيتين، أصبح الجو مظلما في عينيه، اختنقت أنفاسه، رأى أمه وأبيه وخاله وأقاربه يلوحون له بأيديهم، اختفوا فجأة حين دوى طلق ناري، ارتخت قبضتي

الفتاة العارية، وسقطت على الأرض تسيل منها الدماء، تراءى له طيف شخص يقفز فوق صدره، شهق أخيرا، فتح عينيه على وجه مارتا، كانت عارية إلا من شورت مثلث قصير، كانت راحتاها على صدره، استلقت فوق جسده باكية من الفرح، سمعها تقول بصوت متعب:

"كنت ستتركني وحيدة أيها الأحمق"

دخلا مترنحين إلى المنزل، يستندان على بعضهما، غسلت جرحه ثم وضعت له معقم جروح، أصرت أن تشد رأسه بالشاش الأبيض، وقع في دوار مباغت، بدا شاحبا مصفر الوجه يرتجف بشدة، اكتشفت أنه فقد كمية كبيرة من الدماء، ويوشك أن يصاب بحمى شديدة، غطت جسده بالدثار، ذهبت إلى المخزن وبيت النار، جلبت له عجينة تمر، كما صنعت له حساء البر، وأخذت تطعمه وهي تقول متبسمة:

"هاأنذا أعيد إليك الوجبات التي قدمتها لي أثناء مرضي، لعلها تنفع"

تبسم بصعوبة وقال بصوت واهٍ:

"أنا بخير"

"حقا؟ بالكاد استطعت أن أسترد روحك من كف الموت"

"بوسعك أن تستمري في القراءة الآن، سأنام"

ضحكت قائلة بضيق:

"هل تظنني آلة أيها الأحمق؟"

غرق في النوم، ثارت في جسدها غريزة الأمومة، كأن طفلها الذي لم تنجبه سقط مريضا، كل لحظة تجس صدغيه وصدره، تراقب أنفاسه ونبضه ودرجة حرارته، تحولت إلى جهاز متحرك من رقة وحنان ومحبة، هكذا كانت مارتا، لكن كل العلامات كانت توحي أنه يتعافى، اعتدلت حرارته وصفت ملامحه وانتظمت دقات قلبه، عرفت ذلك بسهولة، أخذت القصة، وشرعت تقرأ، في المساء أفاق بحال جيد، نهض متوعكا شاعرا بالقلق على مريضته، سألها عن حالها، أجابت أنها بخير، بات كل منهما يحاول أن يبدو بحال جيد ليعتني بالآخر، تماثلا للشفاء سويا، جلسا يأكلان وجبة العشاء التي أعدتها مارتا، أخذ يعتذر لأنه استغرق في السبات بحيث غفل عن إعداد الوجبة، طلبت منه أن يمسك رأسه، حين ذلك تذكر ما جرى، شرد قليلا ثم قال بارتباك:

"أتظنين المجانين يملكون شيئا من الأحاسيس والمشاعر؟"

"لم أفهم ما ترمي إليه!"

"تعرفين أني قتلت الشقيق التوأم لهذه الفتاة، وبقيت زمنا أعتقد أنها ناقمة عليّ من أجل ذلك، لكني أخشى أن يكون لديها سبب آخر لمهاجمتي!"

"لقد هاجمتني أيضا، لا تنس ذلك، إنها مجرد مجنونة تريد أن تهاجم الأشخاص الذين لا ينتمون إلى عالمهم، هذا كل شيء"

"ألا ترين إن الحيوانات تهاجم الكائنات الأخرى لأسباب ما، إما للحصول على الطعام أو للذود عن نفسها أو مناطقها؟"

"اخبرني عما يدور في ذهنك عن دافعها لمهاجمتنا، هل سيطرنا على منطقتها؟"

"كلا، لقد كلمتك أنها عاشت برفقتي بعض الوقت، أخذت أعلمها بعض الأشياء، لا أعرف، أشعر أن نوعا من الألفة سرت بيننا.."

"تظن أنها أحبتك، ولفرط حبها تريد أن تقتلك بحجر"

صاح بسخط:

"أرجوك يا مارتا، إنها أنثى رغم كل شيء، حين رأتك انتابتها الغيرة، وقد حاولت أن تكسر عنقك، أظنها رأتني هذا الصباح أعانقك، لقد كانت تتنصت علينا، حين خرجت رأيتها قرب النوافذ، قبل أن تهاجمني بشراسة وحقد.."

"هذا غريب فعلا، لأن الحيوانات والأشخاص العراة فقدوا اللغة والكثير من ميزات العقل البشري، لا أعرف إن كانوا يملكون مشاعر مثل الانتقام أو الغيرة!"

"لا يهم، دعيني أتخلص من الجثة"

نقل رعد جثة الفتاة العارية إلى حفرة الجثث التي أقامها سابقا عند أطراف الحقول، أهال عليها التراب، وعاد بجسد خائر إلى مارتا، وجدها تقرأ في المخطوط دون كلل، جلس يتأملها باستمتاع، كان يدرك أن مراقبة الآخرين والنظر إليهم طويلا من العادات القبيحة والتصرفات الخرقاء التي تبعث على الغضب والحرج، لكن في حالته وجد مبررا وجيها، وهو الحب، هذا

يشبه أن يتأمل هواة الفن لوحة فنية بديعة لكبار الرسّامين العالميين، أمور كهذه كانت تحدث حين كانت الحضارة الإنسانية في كامل رقيها وازدهارها، كان أهالي قريته يقيمون ساعات طويلة خاشعين أمام محراب عتيق، أو ينتحبون أثناء الصلوات دون سبب واضح، أو حتى تراهم يعبدون إلها خفيا أو يقذفون مجسم الشيطان دون أن يروا شيطانا حقيقيا، كذلك في جميع المعابد والديانات تجد أشخاصا يتأملون خاشعين صورا وأيقونات غريبة في وقفات طويلة مجنونة، بل إن بعضهم كانوا يقدمون أضاحي من أجمل الأطفال لآلهتهم، لا يهم، لقد تغيرت القواعد والأنظمة الآن، ذهب الفن والجمال في الأرض إلى وجه هذه الفتاة الشقية، كانت ترفع طرفها من حين لآخر متبسمة فيصرف بصره عنها متبسما متظاهرا بالبراءة، حتى قالت بجذل:

" لا تصرف بصرك عني أيها الغبي، أشعر بالنشوة حين تتأملني بخشوع مثل متعبد بوذي"

"كما ترين ليس لدي ما أعمله"

"أتوق أن أتأملك وأحدثك، لكني أيضا أشعر إن هذا المخطوط جزء من قصتنا، في بداية القصة هناك ما يوحي إلى ما جرى للناس من جنون، لاسيما التميمة الحارسة التي عثرت عليها المرأة التي رزقت بالفتى الذي يعيد الناس إلى رحم الطبيعة عرايا... لا يهم.. هذا سابق لأوانه...

سكتت حين أدركت أنها لا تستطيع أن تجزم بشيء قبل أن تنهي قراءة الكتب الثلاثة، أردفت بانقباض:

"لا تهتم، دعني أقرأ، تأملني وحسب"

"لا بأس"

مضت تقرأ، ظل يتأملها حتى نام، سبعة أيام كاملة عكفت على قراءتها، في آخر يوم مارسا الجنس دون أن يتكلما عن أحداثها، خرجا إلى ظل شجرة القرنبيط القريبة، جلسا يحتسيان الشاي، ويلتهمان بعض المكسرات، قالت الفتاة بانسجام:

"كما توقعت نحن جزء هام من هذه القصة، بل أهم جزء فيها"

رد باحتجاج:

"لكني لا أفهم شيئا بعد يا مارتا"

" لا بأس، يمكنك سماع موجز عن كل مخطوط"

روت له ملخص عما جرى في كل كتاب من الكتب الثلاثة، قاطعها قائلا باحتجاج:

"هذه القصص كانت تدور في أفواه الناس، سمعتها من القرويين، حكايات تشبه الأساطير، البعض يظنها كذلك، أما البعض الآخر فيدعون أنهم رأوا الأمير سعد والأميرة كاملة يوم زفافهما الذي لم يسبق أن حدث مثيلا له بالبلد، كثير من الناس حضروا هذه المناسبة بأوامر أميرية كما قيل، ثم اتضح فيما بعد إن ذلك العرس كان فخا نصبته الأميرة للشاب الساحر الذي ينتمي إلى عائلة وضيعة، لكنه كان يملك تميمة تمنحه قدرات خارقة، وتجعله محميا ومميزا عن جميع البشر... "

قاطعته قائلة بصوت حاد:

"نحن جزء من القصة، يتحتم أن نبدأ بكتابة المخطوط الرابع الذي يخصنا، لكن قبل ذلك بوسعنا أن نتحقق من الأماكن التي وردت في القصة، قاع الحقل، الرباط، الهضبة الكبيرة، شجرة التالق العملاقة، قرية سرحان، مزنة، قتاب، مدينة يريم وغيرها من المناطق"

"قاع الحقل ليس بعيدا، خمسة عشر كيلو متر، الطريق آمن، أظن أن العراة هلكوا في هذه المناطق بسبب الوباء، مع ذلك بوسعنا استخدام المركبة تحوطا"

"لا يستحسن أن نركب أي شيء، دعنا نسير على أقدامنا، ونتمتع بمشاهدة المناظر الطبيعية، ألا يروق لك أن نسير سويا على الأقدام؟"

"بالطبع، يعجبني كثيرا، بوسعنا أن نأخذ سلاحا ناريا لنحتمي من العراة"

"بل نتسلح بعصي على شكل رماح، وقوسين وبضع سهام من فروع الشجر"

"بوسعي صنع عصي وسهام من سيقان شجر المعس وقوسين من اليراع"

"سننطلق صباح الغد، هل نسينا شيئا آخر؟"

"هل ستخرجين بملابسك؟"

"كلا، لقد رأيت أعضائي البغيضة، لا شيء أخجل منه، هيا بنا نبدأ بالعمل"

خلعت ملابسها بسرعة ورمتها بعيدا، كان هذا يبدو غريبا، خرجت إلى الهواء الطلق خلفه، وسرعان ما قالت بصوت حاد:

"لا تتقدم يا رعد، أنا القائد هنا"

ضحك وقال:

"لا أحبذ أن يكون أحدنا قائدا، لأن بوسعنا أن نتفاهم، أظن أن هذا المنصب يعوزه حشد من الناس، نحن فردان متحابان"

قالت بحرن:

"انتهت اللعبة الذكورية وتغيرت القواعد أيها المتحاذق، الفطرة الطبيعية والكونية جعلت من الأنثى قائدا لجميع الكائنات، لكن الذكور الماكرين احتالوا على سنن الحياة وقواعدها، إذ قدموا أنفسهم للمجتمع على أنهم أنبياء ورجال صالحون مبعوثون من الإله ليقيموا العدالة في الأرض ويحاربوا الشرور أو الكائنات الشريرة التي أطلقوا عليها اسم الشياطين، وهكذا بسبب غباء الإناث وعواطفهن اللعينة انطلت عليهن الحيل، فآمنت كثير منهن بالإله المقدس وبالشيطان ذاته، إثر ذلك سقطن في الحضيض واستعبدن من الذكور الذين استعبدوا جميع الكائنات الحية، وجعلوا من العبودية منهجا قويما يقودهم إلى الخلود والنعيم المنتظرين، هذا هو ما حدث، لا تحاول أن تنكر يا رعد، اخبرني إن كنت ترفض قاعدة الأنثى هي القائدة في المجتمع، سأدع الغناء والرقص والمتع نهجا لسلالتي الجديدة.."

كانت مارتا تبتسم حينا وتكشر حينا آخر وهي تصب خطبتها النارية في وجهه، لكن وجهها صار بلون الطماطم، ونبرات صوتها بدت جادة أكثر مما يتوقع، سكت للحظات يفكر في الأمر، أخيرا قال بتلعثم:

"أرجوك، لا تصرخي في وجهي، أقبل بأي قاعدة جديدة تريدين طرحها، أعرف إن هناك خلل في المجتمعات البشرية التي فقدت عقلها، لذا أوافقك الرأي أن نقوم بتغيير القواعد"

"الأنثى هي القائدة ليست جديدة أيها الأحمق، إنها شرارة الوجود الأولى، في الغرب حيث ترعرعت منحت المرأة بعض الحقوق الهامة، فانتعشت الحياة وازدهرت قليلا هناك، رغم ذلك ظل الذكور يسيطرون على كل شيء، أما في مجتمعك الشرقي لاسيما المسلم فإن المرأة عاشت في عبودية مطلقة، يسترون جسدها بقطع سوداء تشبه أكياس النفايات، كأنها في حِداد دائم. أليس هذا صحيحا؟"

"أوافقك الرأي أيتها القائدة، اخبريني فقط كيف اكتشفت أمر الاحتيال على القاعدة الكونية الأولى"

" كثير من النساء في مجتمعي يطالبن دوما بالمشاركة في صنع القرار وفرص العمل وغير ذلك، لكن مخطوطاتك الشيطانية لفتت انتباهي أن نبدأ باستعادة نواميس الكون لننجو من الانقراض"

جثم رعد على ركبتيه مبديا طاعته لأوامرها قائلا باحترام:

" أنا طوع أمرك أيتها القائدة"

"لا تتصرف بكلفة كالخادم، بوسعك أن تبتسم، وتتبعني لننفذ القواعد الجديدة دون أي تردد"

نهض قائلا بعفوية:

"ماذا نفعل الآن يا مارتا؟"

"أحسنت، سنحرق السياج، ونطلق الحيوانات الأليفة في البرية، ثم نصنع أسلحتنا اليدوية ونعيش من اليوم في العراء"

هز رأسه بجدية مفرطة، وذهبا لتنفيذ الأعمال اللازمة قبل السفر.

قواعد جديدة

سارا خارج من التل في حال من الوداد والانسجام، بدا كل شيء واضحا ومخططا له، ظهر الكلبان خلفهما، برق وليزا، قال رعد بعجب:

"يظهران في الوقت الذي لا نريدهما الحضور، لم يحضر برق لنجدتي حين هاجمتني الفتاة العارية، لقد سرقته ليزا مني"

"أنا أيضا سرقتك منه، هكذا تدور الحياة، لا يتحتم أن نكون استحواذيين، تعرف إنني قررت أن ندعهما يرحلان إلى البرية مثل الحيوانات الأليفة الأخرى"

" بوسعنا أن نأكل البقوليات ومنتجات الأرض الزراعية"

" لا يجب أن نكون وحوشا لاحمة مادام بمقدورنا أن نكون نباتيين، أهذا ما تريد أن تقوله؟"

"هذا صحيح، أنت تجيدين التعبير عما أريد قوله يا مارتا"

أضاف بشرود:

"المشكلة تكمن أن برق وليزا لن يتركانا مطلقا"

"هل ترفض أن تتخل عن كلبك؟"

"كلا، بل أخشى أن يرفضا التخلي عنّا، تعرفين أن الكلاب أكثر الحيوانات ارتباطا بالإنسان"

"بل أظن أن كلبك حيوان مريب، انظر كيف تومض عيناه حين يغضب"

"ليزا أيضا تومض عيناها، ألم تلاحظي ذلك؟"

"بلى، لذا يجب أن ندعهما يرحلان ليعيشا بسلام"

"هذا صعب جدا، أليس كذلك؟"

"القرارات الجيدة دائما ما تبدو قاسية ومُرّة في البداية"

هز رأسه موافقا، أعقبت باهتمام:

"هل تظن أن بوسع السحرة أن يجمعوا الشياطين بواسطة الكتب السحرية؟"

صاح باحتجاج:

"بالطبع، سمعت أمي وأبي يتحدثون عن سحرة الرباط، وأنهم خاضوا حروبا مع الجنود الذين حاولوا أن يقبضوا عليهم، السحرة استخدموا التعاويذ، لكن معظمهم أعدموا حرقا، هذا ما سمعته"

رأوا الحيوانات التي أطلقوها سارحة في أحد المنحدرات تأكل العشب الجاف، ابتعدت عن طريقهم، حيوانات أخرى رأوها على التلال، كأن ذلك القرار بعثها من مخابئها، لم تعد خائفة أو مرعوبة من العراة، فقد أصبحوا مجرد هياكل عظمية غير متماسكة، باتت الطيور أكثر من ذي قبل، زقزقة العصافير تملأ الأماكن، لاحظوا أن اختفاء البشر يساعد الكائنات الأخرى على الظهور، لم تعد الأرض ملكا للإنسان كما كانت، أضحى وجودهما أمرا استثنائيا وشاذا، قال رعد بشكل مفاجئ:

"انظري يا مارتا، كيف يتفرس إلينا ذلك الغراب بعجب كما لو كنا دخيلين!"

"هذا صحيح، إننا دخيلان"

"أظن أن الكائنات تنظر إلى برق وليزا كخائنين"

ضحكت وقالت بنبرات فاترة:

"كم هو صعب أن تكون غريبا أو شاذا!"

شرع قاع الحقل بالظهور، أصبح مرتعا للحيوانات، غطت حقوله صنوف عديدة من النباتات والحشائش، تطير العصافير في الجو، ترسو على أسنمة النوق والجمال، لتصطاد الحشرات التي تختبئ بين وبرها الكث، وقفت مارتا مندهشة من مظهر هذه الحيوانات العربية، كانت تظن أنها لا تعيش سوى في صحاري الجوف، رأتها هناك قرب خيام البدو الرحل وحول الكثبان وأشجار الطلح الصحراوي، لكنها أيضا تعيش في القيعان الخصبة، الأبقار والمواشي والخرفان والحمير جنبا إلى جنب، أعدادها كبيرة، عرف رعد أن الحيوانات تهاجر إلى الأماكن الخصيبة، بدأ يحك رأسه في حيرة شديدة، ما لبث أن قال بخجل:

"أجهل الطريق إلى قرية الرباط يا مارتا"

ردت بثقة كبيرة:

"بوسعك أن ترشدني إلى مدينة يريم"

"إنها هناك، ألا ترين المنازل"

أشار بيده ناحية الشمال، ردت عليه بثقة وتصميم:

"سوف نجد على مدخل المدينة معسكرا ومدافع مصوبة نحو الرباط، سوف تشير لنا المدافع إليها"

"مارتا، مهلا، لقد انقضى عهد الأمراء، وحل عهد الجمهورية، لن نجد معسكرا أو مدافع، لأن الأمور تغيرت"

"هل تراهنني على المعسكر والمدافع؟"

"ما يدعوك للظن بأنها مازالت قائمة عند مدخل المدينة؟"

"لقد سكنت في مناطق كثيرة في الشرق الأوسط، وفي كل زيارة لم ألحظ أي تغير ملموس في سلوك الناس وعاداتهم ومنشئاتهم"

"أوافقك الرأي، لذا لا أجرؤ على مراهنتك، لعلك زرتِ المكان بطائرتك أو رأيتِ المعسكر والمدافع من الجو"

ضحكت وقالت:

"بل قرأت ذلك في المخطوط، لا أعرف كيف بوسعي الاعتماد على ما قيل في قصة شرقية تتحدث عن الشياطين! في الحقيقة، استطاع الراوي أن يطبع صورة المعسكر والمدافع في ذهني، أظننا سوف نتوه حين لا نجد شيئا عند مدخل المدينة"

اتجها نحو المدينة، لاحت لافتة تقول "هنا يريم"، ظهر هناك مفترق طرق، ومعسكر صغير تلوح عليه شعارات الجيش ورسوم لمعدات ثقيلة، دهشت مارتا على دقة الوصف، رأت المعسكر ذاته الذي رسمته في خيالها بمجرد

أن قرأت أوصافه بالمخطوط، بل إن المدافع نفسها ذات الإطارات والأعناق الطويلة كانت واقفة على أطرافه، أفواهها تتجه نحو الجنوب الغربي، عثرا على هياكل بشرية كثيرة حول البئر الذي يحيط بفناء المعسكر، أدليا الدلو وجذباه، كان دافئا، شربا واغتسلا، ثم سلكا الطريق الذي تشير إليه أعناق المدافع الكبيرة، بعد قليل لمحا لوحة مائلة كتب عليها اسم "قاع الحقل"، سارا بنشاط بعد الاستحمام، ظلت مارتا تتخيل مقدار المسافة التي قطعتها بغلة الإقطاعي نجيم صوب المدينة حين أصيب سرحان الطحان بالمرض المجهول، لكن البغلة لم تسلك الطريق المألوف، بل اقتحمت حقول الفلاحين، لذا ظل طريق عبورها مجهولا، لحسن الحظ انتصبت على مدخل طريق فرعي لافتة صغيرة نقشت عليها كلمتان هما "قرية سرحان"، حرص صاحبها الإقطاعي أن تنصب هناك لإرشاد الناس إلى قريته الجديدة.

سارا على ذلك الدرب المترب متشحين بالسكون، لأن هياكل البشر الجافة كانت تخيفهم لاسيما أنهم يظنون أن أصحابها من السحرة، وكأنهم يخشون أن يصابوا بأية لعنة أو داهية، وكلما اقتربوا نحو الهضاب الثلاث التي تحيط بقرية الرباط يزيد وجيف قلوبهم، لأن في ذلك المكان اجتمع الشياطين، ومنها تبخروا وأحرقوا عقول البشر كما زعم صاحب المخطوط، إن الشعور بأنك توشك أن تفقد عقلك يجعلك مرعوبا، لكن أولئك الأشخاص المساكين لم يدركوا شيئا عن الأمر، وفقدوا عقولهم دون أن يعوا شيئا، أصرت مارتا أن تبدأ بقرية الرباط، بدت المنازل مهجورة محطمة تنتشر فوق حطامها الشجيرات السامة والتين الشوكي، عرفت أنقاض منزل الكبير سرحان بسهولة من أحجاره الملساء المصقولة، كما

لاحظت بقايا البيت المحترق من أحجاره المحروقة، لمحت الحي اليهودي بواسطة بقايا خشب متناثر نُقش عليه نجمة داوود، سارت إلى البئر القديم، ثمة هياكل بشرية كثيرة هناك، شربت من المياه، كانت فائقة العذوبة، رغم أن الأحجار ردمت البئر والعشب غطى فوهته، خشب الدلاء كان محطما مرميا جانبا، كانت المياه تطفح عن سطحه على شكل خيوط صافية تسيل وسط شجيرات كثيفة خضراء متنوعة، لاحت شجرة التالق العملاقة جاثمة على الهضبة الكبرى، استمرا في الصعود صوب الشجرة، تسلقت مارتا الشجرة وراحت تسير على فروعها الضخمة بنشوة غير عادية، هتف رعد من الأسفل قائلا بصوت ضاحك:

"احترسي من السقوط يا حبيبتي"

صاحت بنشوة:

"هذه أجمل كلمة أسمعها منك، هنا جلست الأميرة كاملة في شكل راعية غنم، إلى جوارها جلس سعد، جدها الساحر البغيض جثم في موضعك على حجر عريض ، هيا، اصعد يا رعد لنمثّل ما جرى على الشجرة"

جلسا على فرع عريض في الشجرة وأدليا قدميهما في الفراغ، أخذ يجاريها دون أن يدرك سوى أنه يقوم بتمثيل دور سعد، قالت بأسف:

"مؤسف أن كاملة كانت مجبرة على خديعته وانتزاع التميمة منه، كان بوسع خالها الأمير الأكبر البغيض أن يقتلها بدم بارد لو لم تفعل، كما ترى، الذكور فشلوا في إدارة هذا الكوكب، أتمنى أن ننجب ذكرا واحدا والكثير من الإناث"

"لكنك يا أميرتي لست مجبرة على خديعتي، أنت فقط متأثرة بالقصة، وأتيت إلى هنا لتقفي في المكان الذي عاش فيه أبطالك المميزين"

"بالطبع، لن أخدعك، إننا نعيش الآن تلك اللحظة التي عاشاها باستثناء أننا نسير بمحض إرادتنا، بل بوسعك القول إني الأنثى القائدة الأولى في الأرض، وأنت مستشاري ومساعدي وحبيبي الوحيد"

" هذا أمر طيب، لكن هذا المكان مخيف جدا يا غاليتي، والغروب على وشك القدوم"

قالت بحماس:

"سنبيت على هذه الشجرة، نحن بأمان حين نكون معا"

"لا بأس، لكن الطقس بارد على هذه الهضبة، ونحن لا نملك الفراء كالحيوانات، كما أن الجوع سيهلكنا"

"ستقدم لنا قرية سرحان بعض الأغطية وشيئا من الطعام، دعنا نذهب إلى هناك، سنوقد نارا لنتدفأ ونقضي ليلتنا هنا"

لاحظا أن برق وليزا غائبين، ربما يبحثان لهما عن طعام أو يقومان بنزهة في الهضبة الكبيرة، في قرية سرحان بدت المساكن مدمرة يلفها السكون والوحشة، لم يجدا طعاما كما خططا، عثرا على بقايا أغطية معفرة بالتراب وفُرُش ممزقة، لملموا تلك القطع التي رأوا أنها قد تجدي نفعا، قالت مارتا شاكية:

"أشعر بالجوع، لن أستطيع النوم دون أن آكل شيئا"

عرج الشاب على شجرة دوم مثمرة، تكسوها حبوب صفراء وحمراء، كان كثير منها يفترش الأرض، أخذ يلم تلك الحبوب اليابسة بخفة عجيبة، ثم صعد على الشجرة متفاديا شوكها الحاد الذي يملأ الفروع والأغصان، أخذ يهز الفروع بقوة ومثابرة متشبثا بالفروع القوية، سرعان ما سقطت كثير من الثمار الحمراء الناضجة الطرية كما تنهمر حبيبات البرد، نزل بسرعة ليضعها في طرف الدثار الذي شرع يخرج منه انتفاخ يشبه كرة كبيرة من النسيج، في حين انشغلت مارتا بتجميع عيدان الحطب اليابسة على طول الدرب الذي يسلكانه باتجاه الهضبة الكبرى، كانت تكسو الهضبة بعض أشجار الدوم والقرظ والعرعر، وكلها تترك بقايا جافة وفروع متيبسة، رمت مارتا ما تحمله في يديها حين أشار إليها رعد أن محيط شجرة التالق يحوي الكثير من الحطب، وأن بوسعه أن يجلب قدرا كبيرا من الفروع والسيقان الجافة، أسرعا في السير ليستفيدا من الضوء المتبقي من النهار، كان الظلام قد داهم الهضبة بثوبه الأسود، فرشا القطع تحت تجويف الشجرة، وأشعلا النار، أخرجا ثمار الدوم الصغيرة وأخذا يأكلان، أول ثمرة كادت أن تكسر ثنية مارتا، صاحت بألم، قائلة بغضب:

"ما هذه الثمار اللعينة؟"

تبسم رعد قائلا بأسف:

"أوه، نسيت أن أحذرك من النوى الصلبة التي تسكنها"

"يا لك من حبيب غافل! أوشكت أن أكسر ثنيتي بسبب نسيانك"

"احذري من الآن وصاعدا، الغريب أن بعض الثمار الطيبة تحمل نوى أو شوك!"

"أتظن أن بوسعي الشبع حين ابتلع مئات من هذه الثمار الصغيرة؟!"

"لا أعرف، هذا المتوفر لدينا هذه الليلة"

"سنهلك جوعا إن بقينا نأكل هذه الثمار البرية"

همس بصوت حائر:

"مارتا، ألا تلاحظين غياب برق وليزا؟"

"أظنهما رحلا للبحث عن طعام ومأوى"

"لا أدري"

اقتربا من بعضهما تلمسا للدفء، كانت النار تخبو فيزودونها بالحطب، ضمها إلى صدره بحنو، كانت لينة مثل قطعة عطب، ناعمة كقطعة صابون، مارسا الجنس بكل ما أوتيا من شغف، بعد أن انتهيا تثاءبت مارتا، وأغمضت عينيها وخلدت للنوم، بقي متيقظا نشيطا، سعادة عجيبة انهمرت عليه من مكان مجهول، لمح أربع عيون تلمع بعيدا عنهما بمائتي متر، أخذ عصا الرمح والقوس والنبال، وتناول عودا مشتعلا واقترب من العيون اللامعة، لكنها اختفت وسط الظلام. زود النار بالأعواد، واستلقى قرب أنثاه ونام غير مكترث بالعيون. في الصباح أفاقا في وقت مبكر قبل الشروق، ضوء ساكن يملأ الهضبة، دارا حول الشجرة، عثرا على معول ملقى على الأرض يكسو نصله الصدأ، لمحا برق وليزا جالسين بعيدا، أحست الشابة

بالحنين إلى ليزا رغم رغبتها أن تهجرها، نادت عليها بصوت منتشٍ، لكنها لم تتحرك من مكانها، قالت مارتا بعجب:

"ليزا لا ترد النداء!"

"لا يقتربان من الشجرة!"

"اتبعني يا رعد، خطرت في رأسي فكرة"

تناولت الفأس من الأرض، واقتربت من الشجرة وهي تزمجر:

"أخبرني يا رعد، إذا أراد شخص ما أن يخفي شيئا تحت الشجرة، فأي موضع تراه يختاره؟ "

"في قاع التجويف، حيث نمنا"

"احفر أيها الذكر القوي"

حفر رعد دون أن يسأل عما يدور في ذهنها من أسرار، مضى يزيح التراب جانبا بصبر غريب، من عمر العاشرة وهو يلبي أوامر أشخاص أجلاف في عائلته دون أن تند عنه أي شكوى، لكنه الآن يبدو سعيدا يضحك بنشوة، قالت مارتا بعجب:

"ماذا دهاك لتضحك كالمجنون؟"

"في الحقيقة، لم أتوقع أن أمارس الجنس تحت تجويف شجرة عملاقة"

"لا تكن سخيفا يا رعد، هذا الأمر لا يدعو للضحك"

"لكني سعيد جدا، أحبذ أن نبيت هنا ليلة أخرى، أشعر بسخف العيش خلف الجدران بينما بوسع المرء أن يعيش في هذا الامتداد الساحر للطبيعة"

"هكذا فكر سعد حين صعد على هذه الشجرة المعمرة"

"إنه شعور مريح حقا"

لاحت مخلاة في الحفرة، أمسكتها مارتا بيدين راجفتين، نفضت ما علق بها من الغبار والتراب، أحست بخشونة الكتب، قالت بخوف:

"مخلاة الشيخ رعدان التي تحوي كتبه!"

في تلك الأثناء هرول برق وليزا ناحيتهما وهما ينبحان بغضب، نظرا يمنة ويسرة، لا شيء يدعوهما للنباح، كانت عيناهما وامضتين قاسيتين، لسبب ما بدا الحيوانان غاضبين منهما، تقدما مكشرين، صاح رعد:

"برق، ماذا دهاك؟"

توقف الحيوانان عن الاقتراب، لكنهما ظلا يزمجران، قالت مارتا:

"هل اقترفنا أي خطأ؟"

"لا أظن"

"أتعرف ما يدور في ذهني بشأن هذين الكلبين؟"

"لا أعرف للأسف"

"لا يجب أن أخبرك عن كل شيء يدور في ذهني، إن شئت أن تعرف ما خفي عنك أنصحك أن تقرأ القصة المدونة في المخطوط"

ضحك رعد بسبب لهجة مارتا الحادة، ثم توقف عندما لاحظها مكدرة وغاضبة فعلا، قال أخيرا بصوت هادئ:

"لا بأس، لا شك أن لديك أسباب وجيهة للامتعاض والتكتم"

" أظنك شرعت تفهم كيف تسير الأمور"

"كان أبي الوحيد الذي يظن أنني صبي غير مميز"

" لا بأس، والدي كان غائبا طوال الوقت، تلك مرحلة بائدة، أحاول ألا أتذكرها"

في تلك الأثناء بينما كانا سائرين على الهضبة لمحت مارتا شيئا لامعا على شجيرة صغيرة، انحنت وتناولت سلسلة ذهبية انتهت بتميمة قديمة، صاحت بدهشة:

" انظر ما وجدت، تميمة أطفال، أظنها تميمة سعد"

قال مازحا:

" أتمنى أن نعثر على سلة فواكه بدلا عن التمائم والكتب السحرية"

"بقي هناك تميمة أخرى"

عثرا على التميمة الأخرى على بعد بضع خطوات، توقفا عن السير بسبب الجوع، قال رعد بصوت جاف:

"بوسعنا الصيد للمحافظة على البقاء، نحن الحيوانان العاقلان الوحيدان المهددان بالانقراض"

"بوسعك أن تستخدم قوسك"

"سنتشارك في الصيد، أليس هذا منصفا؟"

"وفي الشواء أيضا؟"

"لنكن معا في كل شيء"

أخذا يتدربا على تسديد السهام، حفرت مارتا دائرة صغيرة على جذع الشجرة العملاقة، قاما بالرماية على هذا الهدف الثابت، مع مرور الوقت، صارت سهامهما تقع قرب الدائرة الصغيرة، في الأخير أصاباها بضع مرات، شاهدا قرب البئر بضع حيوانات أليفة سائمة تشرب الماء، تسللا خلف الشجيرات، أطلقا السهام، اصطادا خروفا، حمله رعد على كاهله منتشيا بالانتصار الأول في الصيد بالقوس، ضحكا بمرح وهما يسلخانه ويشويانه بالطريقة التقليدية على النار، إذ إن الأغنام من الحيوانات الأليفة، لم يتصور أحدهما أنه في يوم من الأيام سوف يصطاد خروفا، لكن جميع الحيوانات التي كانت أليفة باتت شاردة في العراء، تهرب من أي كائن غريب، اتفقا أن يقيمان في الهضبة الكبيرة قرب شجرة التالق المعمرة، ويقومان بالصيد حتى يجلبا البذور من منزل التل، سيزرعان الأرض حول البئر القديم، ويشجران الهضبة الكبيرة والهضاب المجاورة، ولن يعودا لتناول اللحم ثانية إلا عند الحاجة الملحة، يكفي أن يفعلا ذلك في حياتهما، أما مسألة الإنجاب فهي قضية جوهرية، شعرت مارتا أن شيئا يتكون في

أحشائها بعد انقطاع دورتها الشهرية، ظل رعد يغني ويصيح بفرح شديد، سيغدو أبا بعد بضع شهور، أصبح يعامل مارتا بحرص وحذر، يطلب منها أن تسير ببطء، وتمكث مرتاحة في التجويف، لكنها تخرج وتركض في الأرجاء دون اكتراث، لا تهتم بأمر التناسل أو استمرار الجنس البشري، لأن هذه الأرض لن تموت لانقراض أي كائن حي، فقد اختفت عن ظهرها الآلاف من الكائنات الحية والنباتات، كما ظهرت آلاف أخرى من شتى الأنواع والأجناس الحية، لكنها رغم لامبالاتها كانت تجيد التفكير معتمدة على ثقافتها الإيطالية وأيضا على قراءتها للمخطوط، وجدت آثار حوض الماء في الهضبة الكبرى، ليس بعيدا عن الشجرة العملاقة، طلبت من رعد أن يحفر في ذلك المكان، فخرج إصبع صغير من الماء، عندما قاما بترميم الحوض وتنظيفه من الأتربة والطمي الجاف ارتفع حتى سال عن الحوض، ظلا يعملان ويعيشان بانشراح حتى لمع برق بعيد في السماء، في تلك الليلة، رأى رعد نجوم الثريا تتلألأ في الأفق، قال بقلق:

"نجم نيسان ظهر يا مارتا، الثريا طلعت هذه الليلة"

" ماذا يعني ذلك؟ أنت تخاطبني وكأني امرأة من قريتك!"

ضحك قائلا بأسف:

"أوه، آسف، أقصد إن علامات موسم البذر طلعت، نيسان هو موسم الزراعة في تقاليدنا الزراعية"

"لا بأس، لنجلب البذور ونزرع"

"هل نجلبها بواسطة السيارة، هناك كمية كبيرة من البذور"

"بالطبع، المسافة طويلة نوعا ما، بوسعنا أحيانا أن نتجاوز القواعد"

"أحسب أن المركبات ليست ضمن التجاوزات التي ارتكبها البشر في حق الأرض"

"المركبات تنفث الكربون الذي يتصاعد عاليا، يؤدي ذلك إلى توسع في قشرة الغلاف الجوي، ألم تدرسوا هذا في كتب العلوم؟"

"كلا، درسنا الكثير من الفقه والدين وغزوات النبي ورجال حول الرسول، والقليل عن العلوم والأحياء"

"يبدو أن مشاكلكم كانت جمة"

"لا أعرف، كان الجميع يعانون، وفي الوقت ذاته يمدحون الدين كثيرا، كانوا يتحدثون كثيرا عن الخوارق والسحر والعين الشريرة، يستخدمون آيات من القرآن في صناعة السحر، وآيات أخرى لإزالة بعض السحر أو العوارض الشيطانية، كما ترين، كان الدين والسحر حاضرين في وجدان الناس"

"هذا ما تحدث عنه سعد في مخطوطاته القصصية، يشير إلى أن الساحر ورجل الدين يطلبان منك أن تؤمن مسبقا بكل ما يقولان أو يفعلان"

" سأقرأ هذا المخطوط رغم كراهيتي للكتب"

صاحت بجذل"

"حقا؟ هذا خبر بهيج"

"لنقرأ المخطوط سويا، هل بوسعك أن تتصفحي معي بعض الفصول؟ "

"بالطبع، سنجد متسعا من الوقت بعد موسم البذر"

"سنكون سعيدين يا مارتا"

"أعرف، لكني أخشى أن أضع طفلي قريبا"

"لا بأس، سنكون أكثر سعادة "

أمست بطنها كبيرة، لم يمنعها ذلك عن الفلاحة والقفز على فروع الشجرة العملاقة بمرح، كانت تبدو مشتاقة للأمومة، وفي الوقت عينه غير مبالية بخوف رفيقها، ظل رعد يتوقع سقوط الجنين على الأرض، على ضوء النار أخذا يقرآن الأجزاء الثلاثة وهما يحتسيان الشاي الذي جلباه من التل، يستضيئان في المساء بضوء النار، كانا سعيدين بذلك الجو المريح الدافئ تحت التجويف، ذلك الهدوء والصفاء في الليالي المتعاقبة التي يقضياها على الهواء الطلق، غير أن السعادة لا تكون جلية وملموسة إذا لم تتخللها بعض المتاعب، فالحيوانان برق وليزا مازالا يقومان بالنباح والتلويح بالهجوم على الزوجين السعيدين، يأتيان في اللحظات الأكثر إثارة في القصة ويثيران الصخب، فيتوقفان عن القراءة، ويقول رعد بسخط:

"لِمَ لا يهتمان بشئونهما الخاصة، ألم نطردهما إلى البرية؟"

"أخبرتني إن الكلاب أكثر الحيوانات التصاقا بالإنسان، ولا يتخليان عنه بسهولة، لا يجدان قيمة لحياتهما بعيدا عن أقدام البشر، لكنهما لا يعرفان أننا نحررهما من العبودية والتسلط البشري "

رد بصوت فاتر:

"بالتأكيد، لكني أظنهما عدوين بغيضين يا مارتا، إن برق يناصبني العداء، ينقذني حينا وأحيانا يريدني أن أقع خانعا تحت قدميه، كثيرا ما تومض عيناه بشكل غريب حين يغضب، أليس هذا غريبا؟"

"هذا صحيح نوعا ما، ليزا تتصرف مثل طفلة مدللة غالبا، وميض عينيها لم يحدث سوى بعد حادث الجنون الكبير، لعلهما رأيا الشياطين الذين يفترسون عقول البشر، ومن ثم أصيبا بهذه الحال"

" ربما، كان برق كلبا شرسا يحرس المحاصيل التي يملكها أحد الفلاحين، ثم عثرت عليه بعد الحادث على الجبل القريب من التل، بدت عيناه تومضان بشكل مخيف"

" بوسعك أن توفر هذا التوضيح إلى حين كتابة الجزء الرابع الخاص بنا"

رد بتشاؤم مفاجئ:

"أهناك جدوى من كتابة قصتنا؟"

"لا تكن سخيفا يا رعد، ألا ترى الملل الذي يصيبنا حين نكون بلا عمل؟"

" أنت على صواب، لدينا فسحة من الوقت يجب أن نقضيه في عمل شيء ما "

" ثم إن أبناءنا بعوز لمعرفة كثير من الأمور التي حدثت، القصص رغم أنها أحيانا تكون حزينة بوسعها أن تصنع أفكارا جيدة تقود إلى السعادة، لا يوجد شيء في الحياة دون قصة"

"فعلا، الحياة هي مجموعة من القصص، لم انتبه إلى ذلك"

"في وقت مبكر من الصباح سأذهب لأجلب البذور والمخطوطات، لو كانت أمي حية كنت سأطلب منها أن تقرأ لي قصة قبل النوم"

ضحكت مارتا واستلقت إلى جانبه وهي تتصفح نجوم الثريا في السماء، وتفكر في ما دعا الفلاحين المحليين لكي يعتقدوا أنها من علامات موسم البذار.

في الصباح حين استيقظت لم تجد رعد إلى جانبها، بدا الجو ساكنا، خفق قلبها بمشاعر الحنين، ندمت أنها لم ترافقه إلى التل، لقد أصرت أن يذهب وحيدا ليجلب الحبوب والمخطوط، موحية إلى ارتباطها بالمكان الذي دارت فيه أحداث قصصها المفضلة، اكتشفت حينئذٍ إن الرفقة أيضا لها قيمتها النفيسة التي لا تقدر بثمن، حتى الجنة يمكن أن تكون مملة دون حبيب أو رفيق، هناك حيوانات وطيور تجول في الأرجاء، أيضا هناك برق وليزا في الجوار، مازالا يحتفظان بتلك المسافة، لا يقتربان من الشجرة العملاقة ولا يبتعدان عن الهضبة الكبرى، يعيشان في الأطراف يصطادان الفئران والزواحف والأرانب، لم تشعر بالأمان لوجودهما هناك، صارا متوحشين غاضبين، عندما طلبت من رعد أن يذهب ليطردهما بعيدا عن الهضبة قال بقلق وتوتر:

"حبيبتي مارتا، اخبريني دون مواربة، أمازلت تريدين أن أعيش إلى جوارك هنا؟"

ردت بحنق:

"بالطبع، كيف تشك في ذلك؟"

"لا أشك، لكن طلبك هذا سوف يعجل في نهايتي"

"ما تقصد؟ أتعجز عن طرد حيوانين بغيضين؟"

"لا أريد أن أقترب منهما، إنهما متوحشان لاسيما كلبي برق"

"لن يجرؤ على مهاجمتك"

"لقد جرحني من قبل، أتصرين أن أذهب إليه؟"

"كلا، لا تذهب"

قالتها بصوت حاد ينم عن ضيقها، ربما قالت في سرها إنه رعديد إذ يخاف من كلبه، إنه مجرد كلب يريد أن يظل مستعبدا، وهي تحبذ تغيير القواعد القديمة بسرعة ودون تردد، أمّا هذه المرة، فقد شعرت بملل شديد من البقاء جامدة في انتظار عودة رفيقها الغائب، فتحت المخلاة وأخرجت الكتب السحرية بحذر وتهيب، لا تؤمن بمثل هذه الترهات، إنها فتاة غربية تربت على الماديات والفنون، ولا تفقه شيئا عن السحر والخوارق، مع ذلك أمسكت الكتب بتهيب، مجلدات غريبة غليظة كتبت باللغة الجنوبية القديمة المُسْند، قرأت العنوان الأول "مقارعة الشياطين" والثاني "التعاويذ"، كانت تجلس على فرع عريض تدلي قدميها في الفراغ، فجأة

جذبها شيء ما من قدمها، تناثرت الكتب من يدها إلى الأسفل، وسقطت عن الفرع، صدمت قدميها ويديها على الأرض الصلبة بالأسفل، في تلك الأثناء، قفز برق صوب عنقها، وهاجمتها ليزا أيضا، لكنهما انتفضا صارخين بشكل مباغت وتلاشيا كالبخار، داخت للحظات قلائل، ثم استفاقت، زحفت لتستلقي على التجويف، مكثت ساعة من الزمن ريثما استردت بعض قواها، جست بطنها متوقعة أن تكون خسرت جنينها أو في طريقها لتخسره، نهضت ببطء، انتظرت أن يتسرب الكائن الحي على شكل ماء ودم وقطعة لحم صغيرة، لم يحدث شيء، أخذت تسير مترنحة لتجمع الكتب المتناثرة قبل أن تفرقها الريح، تذكرت الحيوانين اللذين هاجماها وتبخرا في الفراغ، أخذت تحشر الكتب في المخلاة، وجدت كتاب التعاويذ مفتوحا على باب يسمى تعويذة صرف الشياطين الكبرى، فكرت أن الكلبين ليسا حيوانين عاديين، بل هما شيطانان، لا أحد يؤمن بالشياطين في الغرب، لكنها توجد في الشرق، هذا أمر مؤكد، يبدو أن رحيل رعد عن الهضبة أغرى الحيوانين على الاقتراب من الشجرة بشكل جريء، قد يكون اقترابها من الكتب السحرية الخطيرة هو السبب، لا تدري حقا! حين عاد رعد وجدها مصابة بالتواء في إحدى قدميها، أخبرته قائلة بصوت واثق:

" لا تتركني وحيدة مرة أخرى"

جلس يفرك قدمها المصابة، لقد جلب بعض الأدوية والمؤن، وهذا مخالف للقواعد التي سنتها مارتا، ينبغي أن يكسبوا قوتهم من الصيد فقط، حتى يزرعوا ويحصدوا من غلال الأرض، لكنها مجرد قواعد مازالت في طور التجريب، لذا لم تمتعض من حديثه، رأت أن يرتاحا بضعة أيام، ويأكلان

من الحبوب التي جلبها من مخزن التل، بعد أيام من شفائها، سارعا إلى تقليب الأرض وبذرها، هاجمت طيور الحجل البذور، وأخذت تنبشها وتلتهمها، لم يحاولا أن يمنعاها أو يحرسا البذور، لأن هذا جزء من الدورة الطبيعية للحياة، وليس بوسع أحد أن يمنعها، حدثها رعد أن الفلاحين الجشعين في قريته كانوا يضربون الطبول على مشارف الحقول ليخيفوا الطيور، لكنها تأتي في الساعات المبكرة من الصباح لتنبش الحقول، وتأخذ حصتها من البذور وهم يغطون في النوم، والغريب أن المحصول كان يأتي وفيرا، ضحكت مارتا بمرح، لا يهم، لتأخذ الطيور حصتها، هناك فسحة من الفراغ بعد البذر، ينبغي أن يفعلا شيئا مثمرا، ذهبت ذرائع رعد أدراج الريح، أفصحت مارتا أن صحتها جيدة، ولا يحق له أن يتذرع بسقوط الجنين الذي يبدو أنه متشبث بالرحم بكل قواه، وسقوطها عن الشجرة يثبت ذلك، لذا أصرت أن يقوما بتشجير الهضبة الكبرى والهضاب المجاورة أيضا، بدا رعد يميل إلى الاستقرار والارتياح بعض الوقت، لكنها قالت بصوت حاسم:

"سندخل المدينة لنبحث عن الفسائل والغرس"

رد متعللا بصوت هادئ:

"أظن أن العراة أكلوا كل شيء منذ سنوات" بعيدة"

"كلا أيها الكسول، لا أحد بوسعه أن يجتث الغطاء النباتي، الطبيعة تقوم دوما بتجديد مكوناتها واستعادة رمقها، مازالت هناك فسائل تنبت على الأشجار"

" أخشى عليك من الإجهاد وحسب"

" بل أنا أكثر جلدا منك"

حك رعد رأسه قائلا بقلق:

"أظن أن برق وأنثاه يضمران شرا، إنهما يختفيان ويظهران بشكل مفاجئ"

"كلبك اللعين، لا أعلم ما دهاه ليهاجمني، كنت أتصفح أغلفة الكتب السحرية بلا اكتراث"

"ليس كلبا، إنه شيطان دون شك، لكنك لا تؤمنين بالشياطين"

" لا يهم الإيمان، دعنا نكتب نسختين من التعويذة، ثم نضعهما وسط التمائم التي نعلقها على أعناقنا، أظنها سوف تعمل"

ضحك رعد قائلا باستفزاز:

"هذا يعني أنك تؤمنين بالشياطين أيتها الفتاة الغربية"

" لا تضحك يا رعد، أنا جادة، كلبك هاجمني سواء كان شيطانا أو حيوانا، لا يهم، دعنا نجرب ترهاتكم السحرية، لا بأس، لنجرب، أنا خائفة جدا"

"لا تهتمي، سأجلب الورق"

نقشت مارتا الرموز بشيء من التهيب، صنعت نسختين مطابقتين للتعويذة، ثم توقفت، كانت بعض الرموز غريبة لكائنات أسطورية، ثم كتبت على هامش الورق بعض آيات من القرآن "لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله" "إن كيد الشيطان كان

ضعيفا"، ومقاطع من أسماء شياطين منقرضين وجُمل غير متماسكة وكلمات غامضة، هتف رعد قائلا بارتياب:

" هناك آيات من القرآن"

"حقا؟ هذا غريب"

"لا يعقل، إنه كتاب مقدس!"

"لا يهم، الكتب المقدسة تحوي على كثير من الأساطير والخوارق"

"هل ستكفل القواعد الجديدة حرية المعتقد؟"

"يا عزيزي، الأديان ساهمت بشكل كبير في صنع القواعد القديمة المجحفة، لن يرضخ رجال الدين لقواعدنا الجديدة، لذا لا أريدك أن تخبر أطفالنا شيئا عن الدين أو السحر"

" هل يجب أن ينشأ أحفادنا دون دين؟!"

" لم لا؟ هناك الكثير من الأمور التي يجب أن يفكروا فيها، سيكون على عاتقهم أن يصححوا الأخطاء، ويزيلوا الفضلات التي خلفها البشر خلفهم، هذا عمل جد شاق لن ينتهوا منه سوى بعد آلاف السنين، لنبدأ من الآن بالتشجير حتى تستعيد الأرض بعض رمقها، ربما تضيق الفتحة السوداء التي صنعتها الحضارة البشرية على الغلاف الجوي"

"لا أعرف الكثير عن مشاكل الطبيعة، لكني أشعر بذلك، ألا يكفي هذا؟"

"يكفي أنك تستطيع أن تصغي جيدا"

"بالتأكيد، أنا أثق بك"

أصبح لديهما هدفا كبيرا، أمسى الحصول على الطعام أمر ممكن في ظل الانتقال من مكان إلى آخر، لا شك أن هناك حبوب في مخازن التجار والفلاحين، لاسيما مع انقراض العراة في يريم وما جاورها، تحدثا عن المغامرة التي سيحظيان بها، بوسعهما أن يأخذا سيارة من أي مكان، ويجولان في المدن والأرياف الخالية من المجانين، الاستكشاف أمر مشوق، كذلك الحصول على معلومات عن سوء الحادث الذي أصاب البشر والكوكب، البقاء في مكان واحد يشبه الاستسلام للملل والخراب الذي حدث، العقل البشري النقي من الأوهام لا يحتمل اليأس والقبول بالهزيمة، مازال الأمر مفتوحا للأمل بمستقبل أفضل للحياة والكائنات التي تعيش على الأرض، لن يخلو الأمر من المرح، سيمارسان الحب في كل مكان، ويضحكان بصوت عال، لن يوقظا طفلا أو يزعجا شخصا حزينا، هما وحيدان في هذا الكوكب، ملكان ضالان لا يعرفان أين يضعان عرشهما.

في يريم كانت الأرض ساكنة، تعجبت مارتا على أشكال المساكن، عمارات متفاوتة الطول، رأت عمارات شاهقة إلى جانب بيوت وضيعة تشبه الأقبية، شوارع قذرة غير ممهدة، نفايات، خردة، سيارات عتيقة، سألت إن كانت هنالك حدائق أو بساتين أو ساحات عامة، ضحك رعد، قادها إلى بعض منازل المدينة القديمة، كانت على الأفنية بعض الأشجار المثمرة، والقليل من أشجار الزينة والورود، حصلت على توليفة متنوعة من الفسائل التي نزعتها عن الأشجار، وجدا شاحنة مكشوفة طويلة تتسع لكثير من الشتلات والفسائل، قاداها وتوغلا في خط أسفلتي ممتد على قاع

جهران، وجدا آلاف الجثث منتشرة في كل الأرجاء، لم يعد هناك سوى القليل من العراة يسيرون مترنحين أو زاحفين على مشارف مدينة ذمار، يبدو عليهم المرض والقروح المتقيحة، الأعراض ذاتها التي رآها في طريق السبتية، الوباء عينه الذي أفترس الآلاف في لواء إب، خافوا من الإصابة بالوباء، سدت مارتا أنفها بأصابعها، اقتدى رعد بها، واستدار بالشاحنة، فتحا الحاكي ليستمعا إلى أغاني شعبية محلية، عرض عليها أن يتوغلا باتجاه مدن أثرية قديمة تقع شرق مدينة يريم، قالت بيقين:

"أرض سبأ وذي ريدان"

"تعرفين الكثير يا مارتا"

"بالطبع، لكن حظ العارفات بالأغبياء، هذا يحدث كثيرا في الشرق"

ضحك قائلا:

"أنا الوحيد المتوفر"

"لا بأس، يجب أن أقدم تضحية من أجل البشرية"

"كيف تظنين أن يكون نسلنا؟ "

"لا أعرف، أتمنى ألا يأخذوا منك شيئا سوى القوة، ألا ترى كيف كان مستواك الدراسي متدنيا!"

" يا لك من مغرورة يا مارتا! هل أكون غبيا لأني أحبك؟"

" هذا الشيء الذكي الوحيد الذي اقترفته دون وعي"

كانا يضحكان بمرح، كانت تعشقه بجنون، لكن النساء في الظروف الهادئة يبتعدن عن التصريح بالحب، الشرقيات أكثر تحفظا، وهي بطبيعة الحال ذات دماء شرقية، وفي كل الأحوال، لا فرق في هذا الجانب بين شرقية وغربية، جميع النساء يدركن أن البوح الدائم بذلك هو ادعاء فارغ، بل إن الكثيرات يساورهن الشك في الرجال الذين يعبرون عن عشقهم على الدوام، بمناسبة أو دون مناسبة، لعل ذلك يكون مغريا أكثر عند ممارسة الحب، أما في هذا الظرف الكارثي فإن التصريح عن الحب يعد خروجا عن اللياقة، يظن رعد إنه لا يستحق هذه الفتاة الإيطالية الجميلة، وأن الحظ منحة هبة استثنائية لقاء صبره وكفاحه المرير، لكن الغريب أن يحدث هذا عقب حادث الجنون، وكأن سعادته لا تأتي إلا في ظل شقاء الآخرين، قال ذلك دون أن يتوقف عن الضحك، بدا ساحرا، تأملته متبسمة، بعد لحظات من الشرود قالت هازة رأسها:

"لا بأس، أنت ساحر خطير، تملك الكثير من التعاويذ، وقد أصابتني إحداها في قلبي"

" لا أدري من أصاب الآخر بالسحر، أنت الوحيدة التي بوسعها قراءة كتب التعاويذ، لكنك ساحرة دون تعاويذ"

وصلا إلى قرية ظفار التي بنيت على أنقاض عاصمة مملكة حِمْيَر، قرية كابية اللون خالية من الغطاء النباتي، قامت على رأس تل كبير، في قمتها أنقاض قصر ضخم، وهناك أكوام من جذوع الشجر والحطب قرب المنازل، ما يعني أنهم كانوا يعيشون حياة رعوية زراعية، يلوح مبنى متهالك لمدرسة

تلوح على فنائها سارية علم ممزق، ثمة متحف صغير وسط القرية، يحوي فاترينات زجاجية تضم قطع حجارة صغيرة عليها رسوم وعول وثيران، أما باقي المنازل فكانت عبارة عن دور قديمة مهجورة، بالطبع لم يروا هياكل عظام بشرية لأن العراة على ما يبدو هجروا المكان القاحل باحثين عن القوت والماء، قالت مارتا بدهشة:

"لا يعقل أن يكون هذا كل ما تركه الحميريون وراءهم من آثار!"

"لا أدري، سمعت إن قادة الأمن كانوا يهربون الآثار إلى متاحف الغرب"

" هناك قطع كثيرة شرقية في متحف روما"

ساد الصمت وهلة، حتى أضافت:

"أظن أن هذه القرية البائسة بنيت فوق المعابد والقصور القديمة"

"لا بأس، سوف نترك هذا في قصتنا للأجيال القادمة ليقوموا بتصحيح الأخطاء"

"هل لديك مانع أن نشجر هذه التلال؟"

"يستحسن ألا نضعها فوق مواقع أثرية"

"بالطبع"

"والليل نقضيه بالارتياح"

"بل نقضي جزءا منه في كتابة قصتنا"

"لا أعرف إن كانت الفوانيس هنا مازالت صالحة للاشتعال"

"لا يهم، انظر، هناك الكثير من الحطب، سنكتب على أضواء النيران، سيكون هذا أكثر رومانسية من إضاءة الشموع"

كان البرق يلمع في الأفق، وهذا حمل لهم نُذرا جيدة حول ضرورة غرس الفسائل في ذلك النهار، غرسا كل الشجيرات على التلال القريبة، لا يعرفان سببا لاختيارهما لهذه المناطق للقيام بالغرس، ربما خوفا على الفسائل من الذبول، أو إشفاقا على ذلك المكان الخالي من الأشجار، لا شك أنه كان في يوم من الأيام مكللا بالشجر والنبات، مازالت أساسات السدود باقية عند مضايق الوديان القريبة، كان الأمل للحبيبين أن يهطل المطر ليروي الغرس الجديد أو يكون مصيره الاضمحلال والموت، اقترب المطر في آخر النهار، فاضطرا أن ينقلا الحطب إلى كهف يقع تحت القرية، كان الجو باردا بعد ذلك الانهمار السريع للمطر، لكن دفء النار صار كافيا، أفصحت مارتا إن ما نزل من مطر سيدع الغرس يصمد بعض الوقت، مضى يكتب قصته بخط ركيك سريع، اتفقا أن تكون القصة بالعربية لأنها لغة المخطوطات السابقة وحسب، وهذا يعني أنه مجبر على الكتابة، مضى يكتب دون رضا، بالكاد انتهى من بضع صفحات حتى اتضح عجزه عن المتابعة، قالت مارتا ضاحكة:

"لن ينتهي الجزء الرابع حتى تكرهني"

رد مبتسما:

"لن انتظر حتى النهاية"

ضحكت قائلة:

"حقا؟ "

"لكني لا أستطيع أن أكرهك"

"سنكتب هذه القصة بأي حال، بضع صفحات في الليلة لن تجعلك تكرهني أيها الكسول"

"لا بأس، هل تسمحين لي بالنوم؟"

قالت ضاحكة بنشوة الشباب:

"مازال لديك عمل آخر الآن"

قفز عليها ضاحكا:

"أوه، هذا عمل ممتع أريده كل يوم"

" لا، أنا أمزح، احترس على الجنين"

"سأفعل"

كان الإرهاق الذي يعتريهما في النهار أو الليل يختتم باللقاء الحميم الذي يشحنهما بطاقة جديدة من الحماس والانتشاء، ومن ثم يغطان في نوم عميق مريح، في الصباح انتقلا إلى طريق ممهد باحثين عن الواحات والشجر، تعثرا بمنازل ذات حدائق واسعة كان يملكها أشخاص وجهاء فوق تلال مطلة على الطريق الأسفلتي، لاحت بعض أشجار الفاكهة المثمرة كالخوخ والرمان والموز، إضافة إلى أشجار الصنوبر الباسقة والبايوباي، حصلا على ثمار وفسائل مميزة، في الطريق قرأا لافتة على منعطف تشير

إلى منطقة وادي بَنَا، قادا الشاحنة الكبيرة على طريق فرعي وعر، حتى أطلا على قرى خضراء تقف على حواف الهُوّات ومجاري الماء حيث تنمو أشجار نهرية عالية، أوراقها صغيرة، وأخشابها تبدو ملساء صلبة، لكن موقعها على مشارف القمم الحجرية جعلها بعيدة عن أيدي الحطابين والبنّائِين، أوقفت مارتا الشاحنة في مكان واسع لتتمكن من الاستدارة لاحقا، سارا راجلين نحو شلال يثير هديرا كبيرا، كان لون مياهه غبراء بفعل السيول التي صنعتها الأمطار في المناطق العليا، لم تكن مارتا مندهشة كما توقع، قال رعد ليثير انتباهها:

"هذا مكان يقصده الناس للفرجة على الطبيعة الخضراء والمياه لاسيما في الصيف، ألا ترين كم هو جميل؟"

ردت دون اكتراث:

"لا بأس، خذني إلى القرى والآثار القديمة حتى إن كانت في منطقة قاحلة"

"رباه، انظري إلى هذه العظام"

كانت العظام والجماجم مرمية على جوانب مجارى السيول، جلبتها تيارات الماء من المناطق العليا البعيدة، تعثروا بالعظام البشرية والحيوانية في كل مكان حول الأشجار ووسط الغطاء النباتي، وهذا يوحي أن العراة والمواشي التقوا هنا، وأكل أحدهم الآخر، لا شك أن العراة أبادوا الحيوانات، ثم أتى الوباء إلى أولئك المتنمرين الذين أكلوا كل شيء حي نباتي أو حيواني استطاعوا العثور عليه، وأهلكهم في بضع أسابيع من المعاناة والمرض، جمعا الكثير من الفسائل والبذور، كانت بعض بذور الأشجار تنبت على

شكل براعم صغيرة تلوح على رؤوس الأغصان، وأحيانا تسقط على الأرض وتنبت من جديد، كانا يأخذان كل شيء يعتقدان أنه صالح للنمو، أخذا ينقلان ما جمعاه إلى الشاحنة، في المرة الأخيرة، وقفا مندهشين حين ظهر برق وليزا فجأة قرب الشاحنة، لم يستطيعا الفرار، أفلتا ما بأيديهما من فسائل حين هاجمهما الحيوانان، كل حيوان هجم على صاحبه، ارتميا أرضا في الوقت ذاته، أنشب برق أنيابه في عنق رعد، وكذلك فعلت ليزا في عنق مارتا، احتكت أسنانهما بالتعويذتين الحارستين القديمتين، نتج عن الاحتكاك ضوء أبيض حاد يكاد يخطف البصر، سقط الحيوانان جانبا بشكل مفاجئ، خرج من رأسيهما دخان أصفر صعد في الجو ثم اختفى، نهض الحيوانان بخوف، ابتعدا قليلا، نظرا إلى الشخصين المذعورين اللذين قفزا إلى مقدمة الشاحنة على عجل، شعرت مارتا أن القيادة تجهدها وتضغط على بطنها البارزة، كانت ترتعد بسبب ما حدث، رغم ذلك، أفسحت المقعد لرعد قائلة بعصبية:

"خذ دورك في القيادة، هيا، أسرع"

قاد رعد الشاحنة مبتعدا، رأت مارتا ليزا تهرول خلف السيارة وهي تنبح بشدة، يتبعها برق بخطوات واثبة، كان شكلاهما يدعو للشفقة، مثل طفلين يتركهما والداهما في مكان مقفر، قالت بصوت حاد:

" هل رأيت الدخان الأصفر الذي خرج من جسديهما؟"

أجاب بشرود:

" بالتأكيد، إضافة إلى الضوء الأبيض الخاطف، كيف تفسرين ذلك؟"

" قرأت في المخطوط إن الشياطين كانت تتحول إلى دخان أصفر ثم تدخل إلى رؤوس الناس، أظنهما كانا مسكونين!"

تابعت بعد لحظة من التأمل:

"هذا يعني أن الشياطين خرجت من جسديهما، وأن التعويذة أنقذتنا من موت محتوم"

" لا أفهم شيئا مما يجري"

"لن تفهم لأنك لم تقرأ المخطوط حتى نهايته، ألم تعدني أن تقرأه؟"

"أوه، صحيح"

"أوقف الشاحنة لأرى ليزا"

"ألم نتفق أن ندع الحيوانات الأليفة في البرية؟"

"هذا صحيح، لا تتوقف"

تنهدت بلا ارتياح، وأشاحت بصرها عن المرآة الجانبية، تحدثا عن حمولتهما من الفسائل والبذور والشجيرات، اتفقا أن يغرساها على التلال الجافة القريبة قبل حلول الغروب، قطعا بضعة كيلومترات، توقفا قرب تل كبير، قالت مارتا:

"سنبيت في أي تجويف مناسب"

"إنه مكان مجهول"

" لا يهم"

شرع رعد يحفر على التل حفرا صغيرة بواسطة المعول، تاركا مسافة متر أو مترين كحد أقصى بين كل حفرة وأخرى، أخذت مارتا تضع الفسائل في الحفر وتنشر التراب حول جذورها، بعد نصف ساعة انضم رعد إليها، أخذ يساعدها في الغرس، بعد أن فرغا من غرس مائتين فسيلة من الشجر مسح رعد العرق عن جبينه وصدغيه، ونظر إلى مارتا قائلا بضيق:

" سوف تجف أو تأكلها المواشي"

"لا يهم، أتمنى أن يكون ذلك بعد أن تمسك جذورها بالتربة"

"ما جدوى أن نضع في كل منطقة عشرات الفسائل؟"

"حين تتمسك جذورها بالتربة لا يهم أن تلتهم الحيوانات أوراقها، لأنها ستعود للنمو في أقرب فرصة"

"أتظنين أن بوسعنا تشجير جميع التلال في هذا البلد؟ سنموت قبل أن ننتهي من محافظة واحدة"

"لا تتبرم أيها الكسول، لسنا الوحيدين اللذين نقوم بالتشجير، بعض الأشجار تنتشر بواسطة الطيور أو الرياح أو مياه المطر، عندما تصل نواتها إلى مكان مناسب تنمو في الحال، البعض تأخذ السيول فسائلها إلى مواضع بعيدة"

"هذا أمر مشجع"

عادا إلى الشاحنة، قادها رعد متلفتا باحثا في العراء عن مكان مريح للمبيت، كان الجو يزداد عتمة مع مرور الوقت، ظهر تجويف صخري خارج

قرية صغيرة مجهولة، نزلا حاملين فراشين ودثارين، ثم جلب رعد حزمة حطب كبيرة من القرية، قالت مارتا بحنق:

"أهذا فقط ما يعوز امرأة حامل؟"

"أوه، أعرف ما تحتاجين أيتها المتطلبة"

خطف قوسه وسهامه مبتسما، وخرج بيأس باحثا عن شيء يأكلانه على العشاء، كان الجوع شديدا، لم تعد القرى تملك أي مخزون للغذاء، ليس بوسعهما أن يتناولا الحبوب المخزون، ليس أمامهما سوى الصيد، اللحم المشوي بالنار، لكن الحيوانات لم تعد وافرة، كانت ساعة الغروب غير مناسبة للصيد، لم يعد هناك سوى ضوء طفيف، فجأة رأى حيوانا صغيرا يتسلل أسفل التل، ما لبث أن أطلق صوتا يشبه العواء، عواءً حادا، رماه بسهم سريع اشتبك في صدره الصغير، كان ثعلبا شابا، عرف رعد إن مارتا لن يطيب لها أن تتناول لحم الثعلب، لا أحد يأكل هذا الحيوان، لا توجد خيارات، بدا فراؤه ناعما يشبه فراء الأرانب، أخرج خنجره وحز رأسه وذيله الأصهب الطويل، وعاد حاملا صيده، أومأت مارتا ناحية الحيوان قائلة بفرح:

" حسبتك سوف تخفق"

"لا بأس، عثرت على أرنب تائه، كان الحظ جيدا هذه الليلة"

نظرت إليه وهو يسلخه، وقالت بارتياب:

"هذا حيوان ناحل الجسد لا يشبه الأرنب"

" إنه هزيل بسبب الجفاف"

"لا بأس، سيفي بالغرض"

وضعه على النار، بات يملك خبرة وافرة في الشواء، أكلا اللحم بشهية الجوع، بدا رعد يأكل بحذر، أما رفيقته فأكلت بشهية دون كلام حتى رمت آخر عظمة من يدها، قالت بارتياح:

"لحم لذيذ فعلا"

رمى ما تبقى من لحم في عظمته قائلا بتأفف:

" لكنك لا تدركين أننا أكلنا ثعلبا"

صاحت بتقزز:

"ثعلب؟"

"أنا آسف، لم أجد شيئا غيره"

"كيف تفعل بي ذلك؟"

نهضت متأففة لتتقيأ، لكنها تراجعت بخوف، أمامها لمعت ست عيون في الظلام، وصدرت أصوات حيوانات جائعة، عادت مسرعة إلى التجويف، قائلة برعب:

"هناك حيوانات ضارية بالخارج يا رعد "

شهر عصا الرمح، لكنها أخذت تقترب بجرأة شديدة، مستغلة تفوقها العددي، رمى رعد سهما طائشا، سدد سهما آخر وقع على جلد الضبع

السميك وسقط على الأرض دون أن يترك أثرا، نظر إلى النار، لم يكن فيها فرعا طويلا بوسعه استخدامه كمشعل يلوح به في وجوه المعتدين، كانت فروعا صغيرة هشة، قال بجزع:

" مارتا تسلحي بالعصا الأخرى"

"لا أستطيع أن أواجهها، أنا حامل في شهري الأخير كما ترى"

"لا أظنها تريد بقايا الأرنب"

"افعل شيئا"

أحاطت الضباع الثلاثة بالنار مكشرة أنيابها، صارت توشك أن تقضم أقدام مارتا التي تتوارى خلف رعد، لم يستطع الشاب أن يصد بعصاه ثلاثة ضباع جائعة، في تلك الأثناء، هجم حيوانان غريبان على الضباع بضراوة، وتشجع رعد وقذف أحدهما بحجر في رأسه مصدرا صوتا وحشيا، هربت الضباع والحيوانان خلفها ينبحان، كافأت مارتا برق وليزا ببقايا الأرنب، قالت محدقة في رفيقها اللاهث:

"ماذا نفعل بالكلبين الآن؟"

رد بصوت هادئ:

"ندعهما وشأنهما"

"إنهما يتبعاننا إلى كل مكان"

"لا يهم"

"هذا صحيح، ليظل الوضع على حاله حتى نقوم بالتشجير"

تحدثا عن شِح الغذاء، وأن الحيوانات في الأرض تحاول أن تحافظ على البقاء، أفصحت مارتا عن قلقها من حدوث نزوح للحيوانات المفترسة من براري أفريقيا، وبدلا عن مواجهة ثلاثة ضباع، سيواجهون قطعانا من الحيوانات، لذا فإن اصطحاب قطيع من الكلاب هو جزء من الحفاظ على البقاء والعقل البشري الذي يبحث عن قواعد صالحة للتعايش بين الكائنات، فالقواعد التي ينويان تأسيسها في الأرض ستعود بالنفع على جميع سكان هذا الكوكب، هذه القواعد لن تجعل الإنسان هو الكائن الأصيل في الأرض الذي لا تستقيم الحياة إلا بحضوره، بل كل الكائنات مهما كانت ضارة هي جزء من التوازن الطبيعي للحياة، لها شخصيتها وكيانها الذي لا يجب المساس به، الآن انقلبت مخالفات البشر وبالا عليهم، أضحى الإنسان مهددا بالانقراض بعد أن وصل إلى ذروة نشاطه العقلي والحضاري والطبيعي، ومازالت أسباب انقراضه قائمة، وهي بمجملها أتت بسبب سوء نشاطه، فالكوارث لم تضرب الأرض وتفني الناس، بل إن الإنسان صنع بيده أسباب فنائه، يبدو أن الأمور بدأت مُذ اعتقد أن هناك حياة أخرى تنتظره، وأنه كائن سماوي مميز عن جميع الكائنات، ومن ثم تصرف بغرور وطمأنينة بحيث لم يكترث بالكائنات الأخرى، أو لعله ظنها أتت لخدمته وسعادته، بوسعه أن يفنيها أو يبقيها على قيد الحياة، يا لها من عجرفة شديدة، جعلت من الكائن البشري يتطور عقليا بحيث فقد السيطرة على سلوكه وطموحاته، ها هي الطبيعة تثبت أن الإنسان كائن أرضي نشأ في أحشائها الدافئة، وأنه ليس أكثر نشاطا وتنظيما من النمل أو

النحل، وأن بوسع أحد الكائنات أن يتطور ويصل إلى مرحلة العقل، ولا يستبعد أن تكون هناك كائنات قديمة تطورت منذ ملايين السنين ووصلت إلى مرحلة العقل وابتنت حضارات واسعة ثم واجهتها سنن الانقراض وتلاشت في طرفة عين، لا شك أن هناك حيوات أخرى في الكون الشاسع، لأن مليارات المجرات تسبح في الفراغ العظيم، كل مجرة تحوي ما لا يحصى من الكواكب والأقمار، ما يعني أن الأرض ليست مركز الكون، والإنسان والكائنات هنا لا تشكل رقما في الحياة ومستقبلها، لذا ينبغي ابتكار قواعد جديدة تجعل من الحياة أمرا ممكنا، فالكلاب كانت حليفا قديما للبشر ، وبوسعها أن تكون كذلك، لكن لا ينبغي أن تربط بالحبال أو تسجن في الأقفاص، ليس هناك مانع أن يقيم الناس جنبا إلى جنب مع الحيوانات الأخرى مع الاحتفاظ بتلك الخصوصية والمسافات التي تفصل بين الأجناس والأنواع العديدة، فقط على الإنسان الطبيعي الجديد ألا يظن أنه كائن مختلف، لذا على التجمعات الطبيعية ألا تعتنق أي فكرة دينية، لأن هذه الأفكار هي التي تصيب معتنقيها بالغرور، وتجعلهم يصطفون للذود عن قداسة أفكارهم مستخدمين كل وسائل الدمار، حتى أن بوسعهم أن يفرزوا الكائنات إلى صالحة وشريرة، وهنا تقع المواجهات والحروب المقدسة التي يروح ضحيتها المذنبون والأبرياء على حد سواء، ومن ثم تصاب الطبيعة ومكوناتها بضرر بالغ.

نظر رعد إلى مارتا متأملا شكلها البدائي الذي لا يوحي بامتلاكها كل ذلك الهذيان المعرفي والعاطفي وقال بشيء من العجب:

"تملكين الكثير من الفلسفة حول الطبيعة والكائنات! "

ردت بحدة:

" إنها مجرد افتراضات ونظريات يرددها العلماء في الغرب"

"لكنها مجرد افتراضات تحتمل الصواب والخطأ تنم عن خيال خصب وحسب"

"لا بأس، اخبرني عن الافتراضات التي جادت بها قريحة العلماء العرب لأرى ما يملكون من خيال"

"لم يوجد علماء عرب في العصر الحديث، هناك رجال دين لم يتفقوا بعد فيما إذا كان يجوز للرجل أن يعاشر امرأته وسط الماء أو لا يجوز"

ضحكت مارتا بشدة وقالت:

"هذا سبب كافٍ لانقراض البشر"

"لا يهم، لقد اتفق الأوغاد في الشرق والغرب على تدمير الأرض"

"أنت على صواب، دعنا نكتب شيئا هذه الليلة ونخبر الأجيال القادمة بما جرى"

كتبا بضع صفحات، كان الهدوء مخيما، برق وليزا ظلا رابضين قرب النار لا يحركان ساكنا، لم يصبهما أي مكروه عند هجومهما على الضباع، لاحظ رعد أن كلبه صار مختلفا، زال الوميض المخيف عن عينيه، غدا كلبا عاديا نظراته فارغة من الغموض والخبث، ليزا على خلافه تجلس بوداعة قرب صاحبتها، لا يبدو عليها أي خبث أو نفور أيضا، لكن برق وجد نفسه مجبرا

للجلوس قرب شخصين غريبين عنه، لكنهما الوحيدان المتوفران، كما أنه يفعل ذلك لأجل أنثاه الإيطالية ليزا.

السلالة الناشئة

جمعا فسائل وشتلات من حدائق بعض المنازل في مدينة ذمار، ثم عرجوا على المزارع الحكومية في رصابة، وجدوا هناك الكثير من غرس الأشجار المثمرة التي تنمو في البيئات الباردة كالبرتقال والليمون، بعد ذلك اتجهوا صاعدين حتى وصلوا إلى مشارف آنس، أقول هنا ذهبوا قاصدا بذلك الأربعة الرفاق برق وليزا ومارتا ورعد، صيغة الجمع هنا هي تجسيد للقواعد الجديدة التي تؤكد أن جميع الكائنات ذات كيانات متساوية قابلة للتطور، كانت مارتا تكتم صيحات ألمها لتتحول إلى أنين مكتوم، أثناء السير في طريق ملتوٍ صاحت مشيرة إلى جبل مقطوع:

"توقف هنا، هذا هو جبل الشيطان المذكور في المخطوط دون شك! يا لها من بيئة جرداء"

قال رعد بضيق:

" لا تكترثي بالجبل، دعينا نصل إلى مكان مريح "

"لكنا سنقوم بتشجير محيط هذا الجبل اللعين، بوسعي أن أعتني بنفسي حتى تعود"

"ألديك قدرة على تحمل المخاض؟"

"بالطبع، ماذا بوسعك أن تفعل من أجلي؟ اذهب إلى الجبل"

" ماذا دهاك؟"

"لا تتلكأ أيها الغبي، ستكون ليزا إلى جواري، فهي أنثى"

صرخت، أصدر صوتا مكبوتا يدل على الاحتجاج، ما لبث أن قادها إلى ظل حائط صخري على جانب الطريق، أخذ عدة الحفر من الشاحنة، وصعد متوترا إلى الجبل يتبعه برق، حفر أكثر من ثلاثمائة حفرة في ساعتين من الزمن دون أن يكف عن القلق، بينما هو منهمك في الحفر أتت ليزا وهي تنبح بشدة، كانت تنظر إليه متحركة بقلق هازة ذيلها النحيل مطلقة النباح دون كلل، رفع هيكله المحني، ورمى المعول، ورجع سائرا في عجل خلف الحيوان، حين اقترب من الطريق سمع بكاء طفل صغير، قفز باتجاه مارتا المستلقية على الأرض، كانت مغسولة بالعرق، طلبت منه أن يقطع الحبل السري، فعل ذلك بخنجره الحاد، لا يعرف ما يقوم به لمساعدتها، جلب الدثار، صاحت عليه أن يرميه جانبا ويرفع الوليد إلى صدرها، ويسندها، فعل ذلك بسرعة، ما لبثت أن طلبت منه أن يحملها على مهل إلى الشاحنة، وأن يذهب ليجلب صيدا دسما لتتغذى به، أخذ قوسه وسهامه، وسار في التلال القريبة مفكرا في الصيد الدسم المناسب، تبعه برق، في حين بقيت ليزا لحراسة الشاحنة، فر أرنب سريع من أمامه، ثم توقف بعيدا، ظهرت أذناه منتصبتان في الهواء، لم يجشم نفسه عبء اللحاق بالأرنب لأنه كما يبدو ليس الصيد السهل أو الدسم الذي ترجوه مارتا. جال بعينيه في كل مكان دون جدوى، لم ير أي حيوان أو طير في ذلك الجبل الكئيب الجاف، قرر ألا يعود خائبا إلى رفيقته التي وضعت مولودة جميلة راجية أن يكافئها بشيء ذي قيمة، كان من أعراف أهالي قريته أن يجلبوا أي

شيء تطلبه العروس أو النفساء دون مماطلة، من العار أن يتم تجاهل طلب المرأتين، رغم تغير القواعد يظل هذا أمرا لائقا وحتميا، بل هو جزء من الآداب العامة التي تدعو إلى التعامل بلطف مع النساء، وإذا لم يتم تلبية طلب المرأة في لحظة زفافها أو مخاضها فمتى يكون ذلك!

في تل مجاور لمح تيسا أسود كبير مختوم، بمعنى أنه ممتلئ مشدود الجلد، هذا النوع من التيوس المحلية يكون في الغالب من أغلى المواشي وأطيبها، ويقدم كهدايا في كثير من المناسبات، رأى بعينيه الكثير من الأهالي يجرّون التيوس خلفهم في طريقهم لزيارة قريباتهم بعد الوضع، لكنهم كانوا يبتاعون التيوس من السوق ولا يصطادونها كما يجدر به أن يفعل، كما أن صيدها ليس بالأمر السهل، فكر إن مثل هذا التيس سوف يسر قلب مارتا حين تراه، أخذ يتسلل في طريقه صوب الحيوان حتى صار يزحف على بطنه وركبتيه، لأن هذه التيوس سريعة العدو، ولا يستطيع أحد الإمساك بها أو إدراكها إذا فرّت، أضحى يتحرك بخفة وبطء نملة متحاشيا إثارة انتباه الحيوان الحذر، فجأة سمع نباح برق يعلو خلف التيس، تجمد بموضعه وأخذ جسده ينتفض بغضب، أزمع أن يصوب سهمه على الكلب اللعين، لأن بوسع التيس أن يصعد إلى مرتفع جبلي أو يختبئ وسط حرش خطير أو حتى يعدو هاربا بسرعة شديدة قاطعا مسافة كبيرة، فلا يكون بوسع أي كلب مجاراته في القفز على المنحدرات الوعرة، لكن شيئا ما جعل التيس البري يغير مسار هروبه باتجاه رعد الذي ظل ساكنا مقرفصا خلف حجر بارز، ترك القوس والسهم يسقطان من يده، لم يجرب التصويب على هدف متحرك بواسطة القوس، لبد بموضعه مزمعا الإمساك بقرنيه

لإخضاعه، لكن التيس قفز عاليا فوق الحجر الذي يجلس خلفه، قفز بدوره في الهواء ليمسك بإحدى قائمتيه، بالكاد استطاع أن يقبض على ذيله القصير، تشبث بكل قواه حتى لا يفلت منه، انحرف التيس في سيره، وجرّه خلفه هابطا من المنحدر، أحس أن جلده يتمزق على الأحجار المسننة والشجيرات الشوكية، توقف التيس أخيرا حين حاصره برق من أمامه، وشرع يجاهد للهروب، زحف رعد وأمسك قوائمه الأربع بقوة، ثم رفعه على كاهله صاعدا المنحدر، لم يكترث بالدماء التي تسيل على طول جسده العاري، كان التيس ثقيلا وقويا بحيث بذل جهدا كبيرا ولاقى مشقة شديدة حتى وصل إلى الشاحنة، حز رأس التيس وانتظر حتى خمدت أنفاسه، ثم انبطح على ظهره ليرتاح، نبحت ليزا بفرح، بعد لحظات رأى مارتا تتقدم ببطء، عيناها محملقتان إلى التيس بإعجاب، صاحت بجذل:

"تستحق أن أرافقك العمر كله"

لم يستطع الرد، التفتت إليه، ثم صاحت باستنكار:

"جسدك ينزف أيها المجنون، ماذا جرى لك؟"

صاح أخيرا بصوت لاهث:

" هذا لا يعقل! كانت النساء في قريتنا لا يتزحزحن عن الفراش مدة أربعين يوما، إذا أردن شيئا كن يشرن بأصابعهن إليه، فيتهافت الحاضرون لجلبه، أحيانا يتصادمون أو يتشاجرون على من يجوز له أن يحمله إليها"

ضحكت قائلة:

" عندنا تمكث النفساء بضع ساعات وحسب"

تابعت بتهكم وقلق:

"اخبرني، عمَّا جرى لك أيها الصياد؟"

"لا بأس، لقد جرني هذا التيس اللعين خلفه على المنحدر أثناء محاولته الفرار"

" يبدو أنك نزفت دما أكثر مما نزفت أنا"

"لا تهتمي، أنا بخير"

"لكنه يستحق العناء"

ضحك رعد وقال:

"سأخبرك على الغداء بما حدث"

"أثرت فضولي، لِمَ لا تخبرني الآن؟"

عرف أنها لن تدعه يرتاح حتى تسمع التفاصيل، وهي ليست كثيرة بطبيعة الحال، كل ما في الأمر أنه تربص بالتيس ليطلق عليه السهم، لكن كلبه برق أطلق النباح وهاجم الحيوان من الجهة الأخرى، ففر باتجاهه، لم يكن بوسعه إطلاق السهم عليه، فتأهب ليمسك بقوائمه أو قرنيه، قفز التيس عاليا ليتحاشاه، فقفز هو الآخر خلفه، وبالكاد قبض على ذيله القصير، بدّل الحيوان خط سيره هابطا صوب الأسفل، لكنه ظل ممسكا بالذيل

رغم الألم الذي انتابه، هذا كل شيء.. ضحكت مارتا بشدة رغم إرهاقها الجلي، وقالت بصوت يشوبه اللوم:

"ألم تخش أن يجرَّك التيس الجبلي إلى حيد صخري؟"

"لم يخطر هذا في بالي لحسن الحظ"

"لقد جازفت بالإمساك في ذيله، كدت أن أفقدك أيها الغبي بسبب تيس بري"

لأول مرة يرى دموعها ويسمع بكائها، فقال بانفعال:

"هل يفرق الأمر إن كان الصيد ثورا؟"

"لا تسخر مني، أنت لا تقدر دموعي وقلقي عليك"

" أسف حقا يا حبيبتي، لن أفعلها ثانية، أعدك"

" لا بأس، اسلخ هذا التيس اللعين"

كان برق يتحرك قرب التيس الهامد لاهثا ولعابه يسيل على الأرض وكأنه ينتظر أن ينال حصته سريعا، لاحظ رعد أن تصرفاته تنم عن كلب حقيقي جائع، حتى حين نبح على التيس لم يقضم عنقه، أو تلمع عيناه بشكل مخيف، كلام مارتا يبدو صحيحا، الكلبان كانا مسكونين، أليس غريبا أن تؤمن الفتاة الغربية بهذا الهراء، بينما الفتى العربي – الذي يعيش في بلاد السحرة ورجال الدين - يكاد لا يصدق أن الشياطين تسكن أجساد الحيوانات؟! يجب أن يقرأ المخطوط بأي حال، لا يجوز أن يظل جاهلا لما يجري، هذا يجعله يبدو غبيا وجاهلا، كشخص لا يقرأ الكتب، لكن

الحقيقة هي إنه يعشق القصص منذ صغره، كان يجلس مقعيا أمام جدته فاطمة وهي تحكي له السُمَايات[1]، حتى القصص الدينية التي أعطيت لهم في صفوف المدرسة كانت تشده كثيرا، غير أن المنهج الدراسي المشبع بكثير من دروس الدين ضغط على عقله الصغير، أخبروه عن أهوال الحياة الأخرى حتى صار يرى الكوابيس في منامه، دارت في ذهنه كثير من الأسئلة حول الله، سأل معلم الدين ببراءة قائلا: من خلق الله يا أستاذ؟ ضحك التلاميذ، في حين رد عليه المعلم بصفعة طرحته أرضا، وطرده من الصف، في الإدارة سلموا له ملفه الدراسي مفصحين بعصبية بأنه مفصول، لم يفهم معنى ذلك، كان يبكي بفعل الصفعة المؤلمة، بلغ الخبر إلى والده في اليوم ذاته، لم يعاقبه والده الغاضب لأن أمه وقفت في وجهه متذرعة بأنه طفل لا يدرك شيئا عن المحظورات، جلبه والده في اليوم التالي إلى المدرسة معتذرا مبديا كثيرا من الخجل والخضوع أمام المعلمين، عنفه المدير بشدة أمام والده الخانع، وجعله يتعهد أن يكف عن إثارة مثل هذه الأسئلة الغبية حسب وصفه، المعلمون جعلوه يمقت القراءة والتأمل، حولوه إلى تلميذ بليد يفكر فيما وراء الموت وفي أمور كثيرة لا جدوى منها، لا يجب أن يرتاب أو يسأل حول أمور الدين، بل يتلقى كل ما يقال له بإيمان مفرط، تحول إلى آلة رغم ما يثور في أعماقه من تساؤلات، ظل يكتم كل شيء في داخله، كان هذا يرهقه كثيرا.. لذا لا ينبغي أن تتساءل مارتا عن سبب غبائه.

صاحت مارتا بشكل مباغت:

[1] جمع سُمَاية، وهي قصص وأساطير شعبية تحكي عن الأبطال القدامى

"ماذا دهاك لتحملق في الفراغ بشكل مخيف؟!"

" أوه، لا شيء، مجرد خاطر قديم دار في ذهني"

"هل ستظل هكذا بلا حراك؟"

" أوه، التيس"

سلخ التيس، ونزع أحشاءه ورماها أمام برق وليزا اللذين جعلهما الجوع يتنافسان ويكشران في وجه بعضهما، وضع اللحم في النار، وجلس منتظرا استوائه، جلب المخطوط وانغمس في قراءة صامتة، ولم يرفع عينيه حتى صاحت مارتا من الشاحنة:

" اللحم يحترق! ألا تشم رائحته"

كان اللحم طيبا، بعدها طلبت منه مارتا أن يقوم بالتشجير، نهض كارها مسرعا إلى الجبل، نقل جميع الفسائل إلى هناك، غرسها بسرعة قبيل الغروب، كانا قد فرغا من كتابة معظم أحداث الجزء الرابع الذي يحوي قصتهما التي لم تكتمل بعد، كتباها إلى اللحظة التي وصلا فيها إلى جبل الشيطان في آنس، في المساء كتبا ما جرى في ذلك اليوم، وبدأا بقراءة المخطوط سويا بصوت مسموع.

استمروا في العيش والانتقال من مكان لآخر، يشجرون ويصطادون، كان المرض يفتك بالعراة، لذا لم يهاجمهم أحد منهم، ظلوا فريسة لوباء خبيث غامض لم يكشف عنه أحد، كانت الفرق الطبية والمختبرات قد أقفلت، أضحت مجرد أبنية وأدوات وأجهزة عاطلة لا يستطيع أحد تشغيلها، كانت

السلالة البشرية الأولى في حال من الانقراض، لم يعد هناك ما يمكن قوله عن الحبيبين، لا شيء غريب حدث لهما، عاشا في تشجير وترحال بين التلال والمدن والواحات باحثين عن الغرس، أنجبت مارتا السلالة الناشئة من البشر، تسع بنات جميلات، كان يفصل بين كل فتاة والتي تليها عامين، لم تنجب ذكرا واحدا، رغم ذلك ظلت تنتظر الولد الذكر بفارغ الصبر كما انتظر سرحان الطحان أن يرزق بولد ذكر يزهو به في قرية الرباط، كانت ترجو الولد الذكر للحفاظ على سلالتهما من الانقراض، وضعت بناتها التسع، غيمة، سماء، شمس، قمر، نسمة، شجرة، زهرة، وردة، كوكب، وهي أسماء مأخوذة من الطبيعة، الفتيات الثلاث الأصغر لم يعرفن الكلبين برق وليزا، لأنهما انقرضا مخلفين مجموعة من الكلاب تم إقصائهم بعيدا عن العائلة التي ظلت في تجوال دائم في أرجاء البلد، كانا غالبا يشجران التلال والوديان القاحلة في فصل الصيف، لأن المطر يغذي الغرس ويساعده على النمو، ثم يقضيان الشتاء في ري ما تم غرسه في الصيف، لذا نجت معظم الفسائل التي غرساها في معظم المحافظات، كانت مارتا تمارس مهامها الطبيعية كأم، ترضع وتنظف فتياتها، وتقوم بالغرس والري والتعليم، تعليمهن القراءة والكتابة وفنون الطهي بأبسط الوسائل، أكثر الأمور التي حرصت على تعليمهن إياها هي القواعد الجديدة، فالطبيعة هي الأم الأولى للبشر والكائنات، الأنثى هي القائدة في المجتمع، العيش في العراء والتجاويف الطبيعية، السلالة البشرية الجديدة يجب أن تكون عارية متماثلة تقودها الإناث، الإنسان كائن أرضي، لكل كائن حي مساحته وحدوده، على الإنسان الطبيعي أن يتعايش مع الكائنات الحية، ويحافظ

على التوازن الطبيعي للحياة، الليل أكثر أُنسا وجمالا من النهار، الظلام هو أصل ومصنع الضوء، والموت أساس الحياة، الرقص والغناء صلاة الكائنات، الذكور يصطادون ويطبخون الغذاء، والإناث هن صاحبات القرارات الهامة فيما يتعلق بشئون التجمعات البشرية ومصائرها وخلافاتها، الحديد لا يستخدم في أمور أخرى غير تكسير الصخور وتقليب التربة في المواسم الزراعية، التشجير أقدس عمل يقوم به الكائن في السلالة البشرية الثانية، على الأجيال القادمة أن يقوموا بتطهير الأرض من نفايات السلالة البشرية الأولى المنقرضة، بإتلافها أو وضع منشئاتهم الصناعية خلف أسوار محكمة الإقفال، وترقيمها بعلامات تدل على خطورتها وتأثيرها السيئ على أمنا الطبيعة، على أجيال الطبيعيين القادمين أن يستخدموا الطاقة الشمسية والطاقات الأخرى المكتشفة التي لا تضر بالطبيعة، يحظر الكشف العلمي الذي يضر بحياة أي كائن حي، بوسع الطبيعيين أحيانا أن يعيشوا حسب الطقس عرايا أو بثياب تحميهم من البرد، وأن يتمتعوا بحريات واسعة عندما يتجاوزون طفولتهم، هكذا ترعرعت الفتيات التسع، كن جميلات ومطيعات يحملن مزيجا متباينا من الصفات الشرقية والغربية، كانت صلتهن بأمهن قوية بسبب الحليب والتربية، على خلاف ارتباطهن بوالدهن الذي لا يأتي سوى في وقت متأخر، يقضي معظم الوقت في التشجير أو الري أو الصيد، فالحيوانات _التي كانت في يوم ما أليفة _ انتشرت بشكل كبير، صارت تشكل خطرا كبيرا على الغرس، لذا أصبح صيدها أمرا محتوما، كانت الفتيات يتغذين على الأجزاء اللينة كالكبد والكلى والقلب والأمعاء، كما تغذوا على الفواكه والثمار من بساتين ومزارع

تقع على مشارف المدن أو حتى في بساتين المنازل الكبيرة، استفادوا من بقايا الحضارة القديمة الفانية، حصلوا على الوقود والضوء من محطات شغلوها بواسطة مولدات الطاقة الكهربائية، قادوا مركبات عديدة ، حظوا بنزهات لا تعد إلى الأرياف والقرى البعيدة في معظم المحافظات، وأقاموا بمناطق كثيرة، عندما اكتشف رعد أن الحيوانات الشاردة تأكل الغرس اقترح إضافة سياج إلى الأماكن المغروسة، كانت المستودعات بالمدن تحوي الأسلاك والألواح الخشبية والمسامير والقضبان والأوتاد الحديدية، لذا كانوا يجدون ما يعوزهم لتحصين التلال ومناطق الغرس، كانوا يسيرون بمركبتين، إحداهما واسعة قوية للإناث تقودها مارتا باستمرار، والأخرى شاحنة مكشوفة يقودها رعد، تحمل الغرس والأدوات التي تستخدم في تحصين المناطق المغروسة، كان في معظم الأوقات يعمل وحيدا لأنه الشخص الوحيد في المجموعة المؤهل للعمل، يحفر ويغرس ويصنع حواجز من الأسلاك أو الألواح الخشبية، صار يتحمل قدرا ثقيلا من المهام، وفي كل يوم كان يفقد ارتباطه بعائلته الكبيرة مقابل إنجاز أكبر قدر من الأعمال المفيدة في التشجير أو الري أو تحصين الغرس أو جلب الغذاء.

الخيار الصعب

يئست مارتا من إنجاب ولد ذكر، توقفت دورتها الشهرية، و لم تنجب، شعرت بهذا الشعور البغيض، خافت من هذا الفشل الذريع، فهي كقائدة ترى أنها ملزمة بتأمين نسلا لسلالتها، لقد وضعت قواعد جديدة للأجيال القادمة، ولا تود أن تذهب جهودها وتضحياتها سدى، صارت بناتها الثلاث غيمة، سماء، شمس يثيرن فوضى عارمة في المكان، يصيحن تحت ضغط أنوثتهن الطاغية الخالية من أي أمل أو هدف، فهمت مارتا أن بناتها الثلاث يمضين أسوأ الأوقات، ملل فظيع، وحياة بلا أي أهداف كبيرة، يساعدن في التشجير طوال اليوم، يجلبن الماء للغرس من الآبار، ينتقلن مع العائلة من مكان لآخر دون أن تقع عيونهن على وجه شاب غريب أو رجل غير والدهما الذي شرع شعر رأسه يتلون ببياض الشيب، في حين تعصف بهما نيران الرغبة الجنسية باستمرار، شبق طاغٍ تفهم مارتا ألا سبيل لإطفائه أو التخلص منه في ظل غياب الذكور، بطبيعة الحال، لم تكن الفتيات يخبرن أمهن عما ينتابهن من عذاب وفقدان للأمل، لكن مثل هذه الأمور لا تكون خافية على أمهن النبيهة، لأن النساء يفهمن جنسهن أكثر من أي شخص آخر، تيقنت أمهن أن الأمور سوف تزداد سوءا مع مرور الوقت، ومع خروج بناتها الأخريات من مرحلة الطفولة إلى المراهقة، لم تعد أمهن تستطع أن تقضي ووالدهن وقتا ممتعا، فلا شيء يسترهما في العراء، يمارسان الجنس بشكل ارتجالي وسريع، يفعلان ذلك بلا متعة، فالأنظار تحيطهما من كل جانب، وزفرات الفتيات الكبيرات تتصاعد مشحونة بالبرم

والسخط، يسيرون جميعا عراة، أجساد فتياتها الثلاث توشك أن تتكلم، يلاحقن عضو والدهن بأنظارهن الجائعة، ويوشكن أن يغتصبنه، تعرف إن هذا الأمر سيحدث عاجلا أو آجلا، وتأخيره لا يعني سوى تفاقم المتاعب، لكنها رغم ذلك تبدو متسلطة وغيورة لا تبارح القواعد القديمة التي تحظر الجنس بين المحارم، لكن القواعد الجديدة تهدف إلى تعميم الخير والسعادة على الجميع، وتقوم على أساس تغيير جذري في جميع الأعراف البشرية القديمة، لم تأخذ هذا الأمر في الحسبان، لم تتوقع ألا ترزق بولد ذكر، كانت قد فكرت أن تدع ولدها الذكر يقوم بتلقيح شقيقاته، وأن يقيم معهن عائلات عديدة، بل كانت تفكر أن ترزق بأكثر من ولد ذكر ليتوزع العبء على الجميع، ويشرعوا ببناء أولى العائلات الجديدة، لكن شاءت الظروف أن يكون الأب هو الذكر الوحيد في العائلة.

كان رعد يشعر بالجو المشحون بالإثارة والمتاعب، صار أحيانا يغطي وسطه بأوراق الشجر ليستر عضوه الذي شرع يتحرك وفقا لنداءات تلك الأعضاء المهتاجة المحيطة به، رغم موافقته على تغيير جميع القواعد البشرية الماضية إلا أنه من أعماقه يفضل انقراض البشر على أن يدس عضوه في فرج واحدة من بناته، كان هذا غريبا مجافيا لتربيته وفطرته البشرية القديمة باعتباره شخص راشد عاقل ووالد فاضل، صار يغيب ويهرب مبتعدا عن عائلته، حتى مارتا لم تعد تراه إلا فيما ندر، شعرت القائدة أن الأمور شرعت تختل، وأن رفيقها رغم طيبته وبراءته بدأ يسيء التصرف، فكرت أن عليهما أن يواجها المشاكل بالاقتراب منها وليس بالهروب، قالت له حين أتى متأخرا في المساء:

"لا يجب أن تذهب غدا للتشجير يا رعد"

رد بارتياب:

"هل هناك عمل أكثر أهمية؟"

"صحيح"

"هل ذلك بشأن الفتيات الثلاث؟"

" هو كذلك"

"أرجوك يا حبيبتي مارتا..."

قاطعته بصوت حاد:

"هذا الأمر لا يعجبني أيضا، لكنّا مجبرون على إنجازه"

"لا يعقل.."

"لا يوجد أمامنا خيار آخر"

"لا فرق بيننا وبين العراة المجانين"

"أعرف، في يوم ما كان هذا أمرا مقبولا حتى أتت بعض القواعد لتمنعه"

"لا أستطيع.."

" لدي خُطة تجعل الجميع مبتهجين"

"هل أستطيع أن أسمعها الآن؟"

" إنها مجرد طقوس مقدسة سنقوم بها وفقا للقواعد الجديدة، عليك أن تبتلع خلطة العسل الأبيض التي عثرنا عليها مؤخرا في خلية الجبل، هذا سيساعدك على الصمود"

في الصباح كانوا جميعا متأهبين للمشاركة في اللعبة المقدسة التي أخبرتهم القائدة مارتا بالاستعداد لأجلها، بدت الفتيات الثلاث محمرات الوجوه مضروبات بتهيب فطري، لكن في عيونهن يلوح جشع كبير وفرح مضمر، نظرن إلى الدائرة العملاقة المرسومة على الرمل بشيء من الشغف، هكذا بدا الأمر، انتشرن فوق نقاط تائهة على خط الدائرة لائذات بالصمت، أتى الوالدان أخيرا من التجويف بعد أن خاضا حوارا ساخنا حول ما يجب أن يحدث، أشارت مارتا إلى رفيقها أن يستلقي فوق دثار سميك ممدد على مركز الدائرة، ما لبثت أن نزعت أوراق الشجر عن عضوه، وشرعت تداعبه حتى انتصب بشكل كامل، طلبت منه أن يغمض عينيه ويتظاهر بالنوم، وأن يشير بإصبعه إلى أي ناحية بعد حفلة صاخبة من الغناء والرقص والدوران في الدائرة، كانت بناتها الثلاث يدرن حول الدائرة ويقمن بحركات راقصة منتظرات لإشارته، أثدائهن وأردافهن تتحرك بشكل مثير، يرتفع صوت غنائهن وأصواتهن الرنانة في الفراغ، تستمر هذه الرقصات الماجنة حتى ترتفع إصبعه مشيرة إلى مكان ما في الدائرة، فإذا وقعت على فتاة تسرع إليه وتثبت عضوه في فرجها حتى يصب ماء الحياة في مهبلها، وتظل ترافقه طيلة اليوم، في اليوم التالي تقام هذه الطقوس بمشاركة الفتاتين اللتين لم يحالفهما الحظ في اليوم السابق، وهكذا صار مقررا أن تستمر الطقوس بشكل يومي حتى تظهر ثمرة في أحشاء الفتيات. وبالفعل استمرت

حفلات الرقص والغناء والضحك والجنس، وبقدر متعتها تحمل قدرا كبيرا من الجهد والنشاط، لأجل هذا أعفي الجميع من التشجير أو مزاولة أي عمل آخر باستثناء الصيد الذي يضمن للعائلة الحصول على الطعام، هدأ التوتر وشع المرح بين الفتيات، لكن مارتا لم تكن سعيدة، كرهت تنظيم هذه الحفلات رغم أنها لم تعد تبالي بالجنس، شعرت أن حبيبها ابتعد عن عالمها وجسدها، باتت تكره أن تسمع ضحكات الفتيات، قررت أن تنهي الطقوس الجنسية بمجرد أن تتضخم بطون بناتها الثلاث، مع ذلك لم تستطع أن تقيم أي نوع من أنواع النظام أو الرقابة على الأمور التي تتعلق بالغرائز كالجنس والمأكل والمشرب، فهمت أن هذه شئون فطرية لا يمكن السيطرة عليها، لأن البنات صرن متمسكات بالطقوس الجنسية المقدسة، ناهيكم عن انضمام فتيات جديدات من بناتها إلى حفلات الجنس، كانت قمر قد وصلت مرحلة البلوغ قبل عامين، ولا يكاد نهداها يظهران، كان الخجل يمنعها من الانضمام لتلك الطقوس اليومية، كانت والدتها تحرص أن تقام بعيدا عن الفتيات الصغيرات حرصا على مشاعرهن من التلوث والاضطراب، في حين غضبت قمر لعدم دعوتها للانضمام إلى الدائرة، لكن خجلها منعها من الاحتجاج، ظلت تغافل شقيقاتها الصغيرات وتتسلل إلى وسط التل الذي تقام فيه الطقوس، تتوارى خلف شجرة أو صخرة لتختلس النظر، ذات يوم تبعتها أختها نسمة التي تتسم بجسد قوي ممتلئ، هي الأخرى واتاها البلوغ قبل شهور، وتضوعت رائحة ما يدور في التل، وقفت خلف أختها تبصر ما يجري، شهقت قمر بفزع وكادت أن تصرخ حين لمست نسمة كتفها، خاطبتها الأولى قائلة بنزق:

"أووه، أفزعتني أيتها الخبيثة"

سألت نسمة:

"ماذا تنظرين يا قمر؟"

"لا شيء، يمارسون طقوس غريبة، سأعود إلى المأوى"

"سأبقى لأشارك في الطقوس"

"سأخبر أمي، لن تكون مسرورة منك"

" لا يهم، لن تغضب، إنها لعبة"

عادت قمر إلى أمها لتخبرها عما يجري، كانت مارتا تجمع الفاكهة في الوادي وتستكشف المكان الذي وصلوا إليه قبل يومين، كان وادي مور يغص بالمزارع، الموز والمانجو والحبحب (البطيخ) وصنوف أخرى من الفواكه التي تعيش في البيئات الحارة، صادف أن يكون ذلك هو موسم نضج الثمار، ظلت الأم تجني الثمر تساعدها الفتيات القادرات على قطفها، وصلت قمر، وهمست في أذن أمها بما حدث، رمت مارتا ما بيدها من ثمار، وطلبت من قمر أن تحتل مكانها حتى تعود، سارت بخطوات ثابتة حازمة، وجدت ابنتها نسمة منتصبة على خط الدائرة تشاهد بجشع أختها شمس تصعد وتهبط فوق عضو والدها، نزعتها من الدائرة هامسة بحدة:

"لا تحضري هذه الطقوس مرة أخرى، لازلت صغيرة"

"أنا في الرابعة عشر يا أمي، وأفهم ما يجري"

"لكن جسدك لن يحتمل إنجاب طفل صغير أيتها الخبيثة، مازال أمامك ثلاثة أعوام"

"إنها مدة طويلة، ماذا أفعل؟"

"تساعدين أمك على توفير الغذاء"

"هذا عمل ممل"

"لكنه مفيد يا بنيتي"

كانت مارتا تعرف أن بناتها الصغيرات يردن اللعب والجري، يبحثن عن الأمور الجديدة والغريبة، يحسبن ممارسة الجنس مجرد لعبة، لا يعرفن بعد الفرق بين جميع الطقوس، كانت شمس في السادسة عشر من عمرها حين انضمت إلى الطقوس، رغم ذلك مازالت أمها تشعر بتأنيب ضميرها إذ وافقت على انضمامها لطقوس الدائرة، رأتها تسير مترنحة منتفخة البطن كضفدعة، إنها على خلافهن نحيلة ضئيلة الجسد، تخشى أن يتعسر إنجابها، بسبب ضيق مهبلها ورحمها، لكنها رغم ذلك تتحرك فوق والدها أكثر من شقيقتيها الأكبر سنا، بل تبدو كعاهرة صغيرة تتقن جميع أسرار الجنس وحركاته الماجنة، وهذا يدفعها للتخلي عن شفقتها عليها، أخيرا تنفست مارتا الصعداء حين وضعت الفتيات الثلاث مواليدهن، كانت شمس الوحيدة التي وضعت مولودا ذكرا، في تلك الأثناء، استطاعت أن تنفرد برعد ويقيمان علاقات محمومة خالية من الحماس، لكنها كانت لذيذة وهادئة حدثت بلا انفعال أو تكلف، أخذت تظهر عليهما عوارض القلق والشعور بالمسئولية مع اقترابهما من عمر الخمسين، في تلك الفترة،

بلغت الفتيات المتوسطات مرحلة الشباب، وطالبن بشكل أو بآخر بحصتهن من الطقوس الجنسية الأبوية، أصبحت المطالبة بذلك أمرا طبيعيا يشبه الحديث عن استحقاق الميراث، لذا قام رعد بواجبه في تخصيب بناته بمثابرة، غدا ذلك عملا روتينيا صالحا مفعما بالعناء والتضحية أكثر من شعور اللذة أو الابتذال، لم يعد ضميره يؤلمه كما كان يحدث في الماضي، بل صار ذلك جزءا من الأعمال المقدسة التي عكف عليها أمدا طويلا كالتشجير وري الغرس، كما انضمت الفتيات الكبيرات إلى الدائرة التي اتسعت متحديات بذلك رقابة أمهن وغيرتها الشديدة، أنجبت فتياته للمرة الثانية، أنجبن جميعا، وفي عمر الستين، أقام آخر طقوسه الجنسية مع البنات الأصغر، شجرة ووردة وكوكب، استمر ومارتا يشرفان على سير الأمور، ويواصلان التشجير برفقة البنات اللواتي غدون أكثر حماسا ونشاطا، حتى وضعت البنات الثلاث الأصغر سنا، انتقلوا في أرجاء البلاد حتى بلغوا مدينة عدن، هناك قاموا بتشجير المناطق الجرداء في المدينة والجبال المحيطة، ثم فاجأتهم مارتا بقرارها الحاسم بالسفر عبر البحر، في الميناء المحطم قامت بتنظيم آخر الطقوس الجنسية على أساس أنهم سيفترقون، أعادت تذكيرهم بالقواعد الجديدة، طالبة منهم ألا يكفوا عن تعليم الأبناء القراءة والكتابة، وأن يحرصوا على التكاثر أيضا رغم إن ذلك أمر فطري لا يحتاج إلى توصية أو نصيحة، لقد خلفت الفتيات أربعة ذكور وثمان إناث، الأكبر في الرابعة عشر من العمر، كما أن بطونهن ممتلئة بالأجنة، أخبرتهم أمهم أن فراقهم صعب للغاية، لكن السفر واستكشاف الأرض من الأمور اللازمة التي لا غنى عنها لإقامة نوع من التوازن في توزيع

النسل، أسرّت لهم أنها تنوي أن تضع في كل بلد يمرون عليها ذكرا وأنثى، ولأجل ذلك سوف تقيم قرعة لمن يبقى في هذا البلد، على أقل تقدير، يتحتم أن يقيم في كل بلد فتى وفتاة وأم قائدة، كانوا يبكون بسبب هذا القرار القاسي، لاسيما الفتيات اللواتي مارسن الطقوس الجنسية وعشن أجمل لحظات المتعة، كيف بوسعهن أن يودعن بعضهن البعض بكل بساطة؟ لا، لا، أعلنت الفتيات أنهن لن يستطعن أن يعشن بعيدا عن العائلة مهما كانت المبررات، تشبثن بجسدي أمهن ووالدهن، وذرفن كثيرا من الدموع حتى اهتاجت أمواج البحر، بحيث لزم تأجيل السفر بضع شهور أخرى. بعد أن هدأ البحر، أفصحت مارتا باكية إن هذا جزء من الثمن الذي يجب أن يدفعوه، وأن قلبها يقطر دما على فراقهن، تشبثت الفتيات بالوالدين مرة أخرى، ومنعنهم من الحركة، كان مظهرهن يدعو للرثاء، أفصحن لأمهن القائدة أنهن سيتركن والدهن لها، ولن يتصرفن بنرجسية بعد ذلك اليوم، ضحكت مارتا قائلة بحزن:

"ماذا أفعل به الآن؟ لقد صار فارغا"

ثم تابعت بصوت أقل تصميما:

" بصراحة، اشتقت إلى جزيرتي، أود أن أقضي في صقلية ما بقي من عمري، إذا كان لديكن مبررا جيدا يبقينا معا يسعدني سماعه"

اقترب رعد من مارتا قائلا بتأثر:

" سعد لم يتخل عن امرأته وجنينها في آخر لحظة، لقد ذهبا معا نحو الجنون وهما يضحكان"

سألت بتهكم:

"ماذا تقصد يا فتاي الشرقي؟"

" أظن بوسعنا جميعا أن نذهب معا إلى صقلية، لأن هذا ليس الوقت المناسب لنفترق، أعرف متى يكون ذلك"

"ما هو الميقات المناسب كما تظن؟"

"تعالي لأخبرك، لأن هذا قد يجرح مشاعر الفتيات"

أخذها جانبا وقال هامسا:

"تعرفين مازال بوسعنا أن نعيش بعض الوقت، بوسعنا الآن أن ننتقل من بلد إلى آخر ونخطط للمستقبل، يجب أن نحدد لكل ذكر وأنثى البلد الذي يناسبه، هذا لن يحدث سوى بالانتقال سويا، في النهاية نحن ملزمون بإتباع تعليماتك"

"لا بأس، سنكون معا"

مضوا نحو السفن الرابضة على الميناء، كانت في معظمها تجارية معقدة التركيب، أعلنت مارتا أنها تبحث عن زورق بخاري حديث أو مركب شراعي قديم، لأنها تعرف أن تقود هذين النقيضين من المراكب، هذا بفضل تقليد سنوي عريق كان يقام في جزيرة صقلية، وهو سباق المراكب القديمة وكذلك الزوارق السريعة، وقد شاركت أكثر من مرة في السباق دون أن يحالفها الحظ بالفوز، أما في هذا الميناء الهادئ، فقد كانت السفن تجارية كبيرة الحجم، ولا يوجد أي مركب شراعي أو زورق بخاري، أخذوا قارب

صياد، وجدّفوا على طول الشاطئ حتى وجدوا زوارق تابعة لخفر السواحل مرابطة في الميناء العسكري، صعدوا على أحدها، نفضت مارتا التراب عن شاشاته ومفاتيحه، فحصت أجهزته ومقدار الوقود الذي يحتويه، تأكدت من مؤشر الاتجاهات والخرائط، وجدت كل شيء في مكانه الصحيح، رغم ذلك قالت بارتياب:

" أخشى ألا يعمل، يلزمنا مركب شراعي"

قالت ابنتها شمس بعجب:

"لكنه يبدو جديدا"

" الصدأ يعطب المعادن، لا أثق في زورق أمضى واقفا في الماء سنوات كثيرة دون حراك"

قامت بتشغيله بلا حماس، لم يشتغل، قالت بانفعال:

"كما توقعت!"

أضافت بشيء من الاهتمام:

" سنأخذ البوصلة والخريطة ونبحر في القارب"

قادت القارب الكبير بمحاذاة الشاطئ، يغمرها خوف شديد بالتعمق وسط البحر في قارب صيد كبير مكتظ بالفتيات والأطفال، كانوا يبدون مثل المسافرين غير الشرعيين الذين كانوا يصلون إلى سواحل صقلية هاربين من سوء العيش في بلدانهم، يخاطرون بحياتهم في سبيل التسلل إلى السواحل الايطالية والأوروبية، لقد استقبلت الكثير من هؤلاء اللاجئين المساكين،

ومعظمهم من الأفارقة والعرب، فكرت مارتا بحجم المجازفة، لن تتوغل في مياه المتوسط الغادرة بقارب صيد بأي حال، ولا حتى في مياه البحر الأحمر، وجدوا سنارة صيد وشبكة، تناوبوا على التجديف، عرفت مارتا بواسطة الخريطة أنهم يتوغلون باتجاه شواطئ الخليج العربي، يسيرون ببطء بأمل الوصول إلى ميناء جدة، علهم يحصلون هناك على مركب شراعي قوي يتحمل ضربات الأمواج العاتية ويعفيهم من مشقة التجديف ومخاطر الغرق، قطعوا الليل سائرين تحت سماء مطرزة بالنجوم، يرون الجبال الصغيرة التي تظهر على الشاطئ بين فينة وأخرى، شاهدوا قمم أشجار طويلة وبضع مبان، رموا الشبكة باعتباطية محضة، وضع رعد على طرف السنارة قشرة فاكهة، أحس بارتجاف السنارة، جذبها بقوة، علقت سمكة كبيرة، حين رفعوا الشبكة استقر في قعرها أسماك كثيرة بحجم قبضة اليد، كنت الأسماك تسبح بكثافة في مياه الشاطئ الصافية، عرجوا على الشاطئ البلوري ذي الرمال الناعمة، ربطوا القارب على ساق شجرة نخل طويلة، كان المكان يعج بأشجار النخل، تظهر بالقرب بضع مبانٍ أحدها فندق صغير، كانت حبوب التمر على الأرض، لاحظ رعد رغم الظلام أن أعذاق النخيل ممتلئة بالثمار، جازف بالصعود على جذع نخلة، مكث قليلا، ثم نزل يحمل عذقا ممتلئا بالثمار الناضجة، تناولوا طعامهم، واستلقوا للنوم في العراء وسط الرمل الدافئ، في الصباح واصلوا رحلتهم المرهقة، أمضوا يومين حتى انتهوا إلى ميناء جدة الكبير، هناك وجدوا مرفأ ضخما للسفن والبواخر الكبيرة، وفي الطرف الآخر للمرفأ عثروا على صنوف عديدة من السفن الصغيرة والزوارق البخارية، كما وجدوا مركبا

شراعيا وحيدا، أعلنت مارتا إنه المركب المناسب للرحلة، وقفت أمام الدفة تقودها عميقا في البحر باتجاه قناة السويس، بعد أسبوعين بلغوا مرفأ جزيرة صقلية، لاحت الأشجار عارية كئيبة، فاحت إلى أنوفهم روائح من النتن والعفونة، بدا الجو غائما ساكنا، أشارت مارتا لأفراد عائلتها أن يبقوا بأماكنهم حتى تستكشف المكان، صعدت بهمة عالية إلى رصيف المرفأ، لمحت بقايا جثث بشرية وهياكل عظمية، لمحت رجلا عاريا ضخما يأكل من إحدى الجثث، في الجانب الآخر مجموعة أخرى من العراة ينهشون جثة رجل كبير السن مازال يتحرك ويصدر صوتا متألما، منظر رهيب يقشعر له البدن، أقبل مجموعة من العراة باتجاهها، رآهم رعد قادمين، قفز لإنقاذها، حملها وعاد سريعا إلى المركب، فروا من المرفأ عائدين باتجاه الشرق. بقيت مارتا صامتة بعض الوقت، ثم تكلمت أخيرا قائلة بصوت ضعيف:

"يأكلون بعضهم، لم أسمع بشيء كهذا "

قال رعد بارتياب:

" لكني لم أرهم يهاجمون بعضهم"

" رأيتهم يمزقون جسد رجل كبير السن "

"ماذا يعني ذلك؟"

" يعني أنهم لم يعودوا يجدون شيئا يأكلونه في الجزيرة، لذا يتخلصون من الضعفاء كالأطفال والنساء وكبار السن"

سكتوا مذهولين، لأن التخلص من الأطفال والنساء يعني أنهم في طريقهم للانقراض، لن يبق سوى الأقوى، وهؤلاء لن يظلوا طويلا دون أن يدور بينهم صراع دامٍ على البقاء، أخذت مارتا تدافع عن فكرتها بضرورة استخدام السلاح الناري لإبادة من بقي من العراة، لكنها قوبلت بمعارضة لطيفة من رعد الذي سبق له أن حارب أولئك المجانين، بالكاد استطاع أن ينجو منهم، ويفر بعيدا، لم يدعوه وشأنه، بل أتوا لمحاصرته في التل، كانوا رغم جنونهم أكثر تنظيما وشراسة، يملكون مهارات عديدة كالعدو السريع والتسلق على الجدران والقذف بالأحجار، اقترح أن ينتظروا بضع شهور أخرى حتى يبادوا، نظرت مارتا إلى الخريطة، وقالت بحزم ضاغطة طرف سبابتها على نقاط صغيرة وسط البحر:

"سنعرج على أقرب جزيرة وننتظر"

رد رعد بسرعة:

"أحبذ أن تكون أصغر الجزر"

"لا يهم حجمها، المهم أن تكون خالية من العراة"

" أظن أن فرص خلوها منهم أكبر حين تكون الجزيرة صغيرة الحجم"

"اخبرني عن سبب ذكائك المفاجئ يا عزيزي"

" لا أدري، هذا سهل الاستنتاج"

ضحكت موحية بالمزاح، مازال بوسعها أن تضحك وتمزح رغم خيبة أملها الأخيرة، نظرت إلى الخريطة باحثة عن أصغر نقطة في البحر، وضعت طرف سبابتها ثانية على تلك النقطة قائلة:

" جزيرة كريس اليونانية عدد سكانها ثلاثة آلاف"

أنذرتهم مارتا إن المسافة إلى الجزيرة ستبدو كبيرة، وأن بحر اليونان مضطرب وهائج أحيانا، لكنها بالمقابل أرض الأساطير والفلاسفة والملاحم الشعرية، وتستحق المجازفة، كانوا يسيرون على البوصلة والخريطة، تتولى مارتا قيادتهم دون أن تغفل عن أدق تفصيل يعوزهم للشعور بالأمان، كان السمك يقفز بابتهاج على سطح المياه، رأوا الدلافين تسير على جانبي المركب صادحة بأصواتها المميزة، تبدو مبتهجة ومرحة، استطاعوا أن يأخذوا طعامهم من البحر، لم يشعروا بأي مشكلة تواجههم حتى اكتشفت القائدة مارتا أن ماء الشرب العذب يوشك على النفاد، لأجل ذلك وضعت قفلا على الخزان الصغير الذي يشارف على النفاد، وخصصت لكل نفس نصف كوب في اليوم، ظل العطش رفيقهم الدائم، وقضى على متعتهم، وبدلا عن مراقبة الحياة البحرية المكتظة بالكائنات أخذوا يراقبون الجهات الأربع باحثين عن جزيرة أو ساحل يرسون عليه، كانت شفاههم جافة ووجوههم شاحبة، تكوموا حول خزان الماء متوسلين حصة مضاعفة تروي عطشهم، حاولت أن تلهيهم عن عطشهم بشتى السبل، مضت تقول إن الأحياء البحرية استعادت عافيتها وحيويتها بشكل ملموس بعد ارتفاع أيدي البشر عن البحر، أخذوا يصيحون باكين لاسيما الأطفال "نريد ماء، نريد ماء"، رفعت مارتا حصتهم إلى كوب ماء واحد لأنهم أقل قدرة على التحمل، ولا

ذنب لهم فيما حدث، في النهاية نضب الماء من الخزان، وأخذوا يلحسون فم الصنبور بألسنتهم لترطيب شفاههم الجافة، في الليلة التالية قابلهم جو ضبابي عاصف، رافقه هطول مطر غزير ورياح قوية، صارت الأمواج ترفع المركب الصغير، وتقاذفه في عرض البحر مثل قنينة فارغة، انحنت أقمشة الصواري بشكل خطير، وشرعت تتمزق، حشروا الأطفال في الحجرات السفلية، وجلسوا يفتحون أفواههم لقطرات المطر السريعة، صاحت مارتا على رعد والفتيات الفاغرات الأفواه:

"ماذا دهاكم يا رعد؟ ضعوا الخزان والأطباق على السطح لتمتلئ من ماء المطر"

جلب رعد الخزان الفارغ، والفتيات جلبن بعض الأطباق والصحون، صاروا يحاولون الحفاظ على توازنهم على السطح، كان ذلك ضرب من العبث، سرعان ما طار الخزان الفارغ والأطباق في الهواء بفعل عصف الريح، أخذ المركب يقذف الفتيات على السطح، كدن يسقطن وسط الأمواج المتلاطمة، تشبثن بأعمدة الصواري حتى غامر رعد وسحبهن واحدة تلو أخرى إلى حجرة الركاب، بقي البحر هائجا بضع ساعات، بحيث انجرف المركب بسرعة كبيرة نحو المجهول، لكن مارتا ظلت ممسكة بالدفة محاولة إيهام نفسها أنها تتحكم في خط سيره، غير أن الأمواج والرياح كانت هي القائد الحقيقي لكل شيء يطفو على سطح الماء، قرب الفجر هدأ الموج، وانقشعت الغيوم، لذا استطاعوا أن يخلدوا للنوم باستثناء مارتا التي كانت تقوم بالإمساك بالدفة بمثابرة كنوع من الالتزام المهني وحسب، لكنها لا تعلم في أي مسار يسير مركبها، أصابها اليأس أكثر من الإرهاق، عرفت أنهم

خرجوا عن مسارهم السابق، وخشت أن يكونوا قد انجرفوا باتجاه البحار الداخلية العميقة المترامية الأطراف، جثمت على الأرضية خافضة رأسها بحسرة، ندمت على قرارها بالخروج صوب صقلية، كانت بلاد رفيقها رعد خالية من المتاعب، كانوا ينتقلون فيها من مكان إلى آخر بسلام واطمئنان، لم يكدرها شيء هناك سوى الحفلات الجنسية التي كانت مجبرة على إحيائها إتباعا لسنن البقاء والقواعد الجديدة، تخشى أن يكون حدبها وغيرتها قد جلب لهم سوء الحظ، وأن الطبيعة قررت أن تتخلص من الجنس البشري الذي لم يتخل عن الجشع والأنانية والتسلط، صارت إمكانية موتهم ترتفع مع مرور الوقت، ظلت تفكر بأمور أخرى كثيرة، وكأنها تفكر في ذنوبها وتودع ماضيها، لم تجد نفسها ضعيفة وبائسة كما هي في تلك اللحظات السقيمة من الصباح، لا تحب أن يراها أحفادها الصغار خائبة منكسرة، كان الجو صافيا مشرقا، لأول مرة منذ عشرة أيام تسمع صخب النوارس وتراها محلقة في الجو بشكل كثيف، هبت واقفة متطلعة إليها بتركيز شديد، رأت دون يقين بقعة من اليابسة تلوح من بعيد كأنها ترى سرابا، دققت النظر ثانية ناحية الطيور التي تدرك أنها تتكاثف على السواحل، لم يكن سرابا، بل شيئا حقيقيا يتجلى ويتضخم مع اقتراب المركب منه، قرعت الجرس صائحة بفرح مجنون خالٍ من الوقار:

"اليابسة، اليابسة، لا أصدق! "

اقترب المركب من شاطئ جزيرة صغيرة مجهولة، كانت أشجار المانجروف تغطي المياه، مخفية الشاطئ، بالكاد نفذوا إلى اليابسة، بدت الجزيرة غير مكتشفة أو مسكونة أو أنهم وصلوا إلى جهة لا ترتادها المراكب، وجدوا

أشجار جوز الهند والبلوط والأجاص، وانتهوا إلى جدول ماء عذب رقراق، هربت القرود قافزة على الأشجار حين رأتهم، كانت الجزيرة أصغر مما توقعوا، بضعة كيلومترات، حين ارتقوا إلى قمة التل رأوا البحر على الشط الآخر، لا تذكر مارتا أنها سمعت عن جزيرة بهذا الحجم تقع على البحر الأبيض المتوسط، صادفوا في الدغل كثير من ثمار القرع بعضها غدت صفراء يانعة، طلبت من حفيدها "مطر" أن يقوم وإخوته الذكور بإفراغ حشوتها، وملأها بالماء، نقل الأحفاد الذكور أكثر من مائة ثمرة قرع كبيرة، تحوي بعضها ما يزيد عن عشرة لترات من المياه العذبة، ما لبثوا أن صعدوا إلى السفينة تطاردهم صيحات القرود، وصفير طيور غريبة تصدر من ناحية الأحراش الكثيفة، أرادت مارتا أن تعرف موقعهم على الخريطة، تفحصتها مليا دون جدوى، تأملت الشمس، وقفت بمواجهتها فاردة ذراعيها على شكل صليب ثابت حتى استطاعت تمييز الجهات الأربع، خمنت أن تكون جزر اليونان في اتجاه الشرق، أدارت الدفة يمينا مقتفية حدسها، كانت تدرك إن الاعتماد على حدسها وحده مجازفة كبيرة، حتى الركون إلى حساب الاتجاهات لا يمكن التعويل عليه لاسيما حين تكون تائها وسط بحر مجهول، رغم ارتيابها الشديد من قرارها إلا أنها لم تفعل شيئا، كان حفيدها "مطر" شابا ذكيا رغم عدم حصوله على قدر كافٍ من التعليم، ضحكت مارتا بعجب حين سمعته يخاطب خالته قمر قائلا " لا تقلقي يا أختي العزيزة"، انتاب أمه شمس الغضب، تريده على الدوام أن ينادي شقيقاتها بقوله "يا خالة"، لكنه يفعل ذلك ليغيظها ويستفزها، وما يلبث أن يقول محتجا: "أنت أمي وأختي، أعطني مبررا واحدا يمنعني من ندائك

على هذا النحو"، ردت شمس صارخة بأنفة شديدة: "لا تتماد يا مطر في استفزاز أمك وخالاتك القائدات، سوف تتعرض للعقاب" لكنه لا يبالي بالتهديدات، ويشعر بالغرور لمكانته الجديدة كذكر قوي وصل إلى مرحلة البلوغ، بل إنه أكبر ذكر بين أشقائه، ويعول عليه أن يقوم بتخصيب أكبر عدد من الإناث في العائلة، وحسب أوامر القائدة مارتا سيقوم بتلك الطقوس الجسدية عوضا عن والده الذي استنزف وحان موعد تقاعده عن الاستلقاء وسط الدائرة، لكنه مازال مبتدئا عديم الخبرة، وعلى والده أن يعلمه أساسيات الممارسة الوقورة الخالية من أمارات العهر والابتذال أو الاستهتار، وسيحدث هذا حال انقضاء محنة الضياع في البحر وعند استقرارهم في مكان ما على البر، في حين صارت جدته مارتا تعلم أحفادها القواعد الجديدة القابلة للتجديد أو التغيير كلما دعت الحاجة، كانت تخبرهم إن ما تخشى حدوثه هو أن تتحول تلك القواعد إلى عادات أو تقاليد مقدسة، لأنها تظن إن التقديس يفسد أي شيء مهما كان هاما أو ثابتا، كانت الإناث لا يقمن بأي عمل مرهق غير الولادة والرضاعة، عددهن كان ضعفي عدد الذكور في المركب، تظهر عليهن أمارات التدليل والزهو، يتم تأهيلهن للقيام بقيادة المجتمع، في أكثر من موقف كان مطر يبدي الحس الصبياني وشعور التفوق المغروس في جيناته الوراثية التي يستمدها من فحولته وعضلاته، بحيث كانت تصرفاته تبدو مثل حركة رفض أو تمرد على سلطات الإناث، لكن سرعان ما ينتهي إلى الإخفاق في تجاوز القواعد التي كانت واضحة ومقنعة بما فيه الكفاية لتؤكد بأن الطبيعة أنثى وكذلك الحياة، وعلى الإناث أن يقدن المجتمع البشري الجديد، كانت القائدة مارتا

تدرك إنها تصرفات صبيانية لا تشكل خطرا على المجتمع الجديد، وبمجرد أن يقع حفيدها في الحب سوف يتخلى عن غروره وأوهامه، ولكي تحد من غلواء كبريائه وطيشه ألقت إلى حفيدتها الفاتنة "رياح" أن تجذب الفتى المراهق إلى فردوس قلبها وجسدها ، وهذا ما حدث، صار مختلفا مطواعا بعد أن ذاق حلاوة الحب والجنس، يختليان في حجرة صغيرة صنعت لهذا الغرض السامي، ويمارسان الحب بحرية، ولعل جميع أفراد الإناث لاحظن كيف تبدلت طباعه بين ليلة وضحى، بحيث طغى عليه المرح والإشراق، وساد الارتياح في المركب، قابلوا في طريقهم جزيرة كئيبة لا متناهية الحجم، مكثوا فيها بضع شهور، لكنها كانت مستعمرة خاصة للنمل والحشرات المؤذية، وسواحلها ضحلة مكفهرة، تنمو عليها أشجار غير مثمرة كالصمغ والحناء وسنام الجمل، ماؤها عذب، وبالكاد يحصلون منها على الأسماك التي تغذيهم، سرعان ما أصيبوا بالملل وضيق الحال باستثناء العاشقين اللذين غرقا في نشوة الحب والجنس باعتباره شيئا جديدا يستكشفان أسراره، لم يكن مطر يرتاح بممارسة الجنس في الحفلات التي تقام في الجزيرة سوى مع رياح، الذكور الآخرين شرعوا يقيمون طقوسهم الخاصة، وكذلك الأب رعد صار يشارك في الطقوس باعتبار الإناث يطلبنه باستمرار لأنه يمتلك خبرة وقيمة كبيرة في العائلة، طلبت القائدة مارتا منهم أن يغادروا الجزيرة البغيضة، لأن الحشرات صارت تعذبهم كالبعوض والنمل، إضافة إلى شح الغذاء وكراهيتهم للسمك الذي لا يقتاتون غيره، أبحروا بخضوع تام، وعادت مارتا لتمسك الدفة بحرص مقتفية حدسها راجية أن يقودها إلى جزر اليونان الزاهية، كان مطر واقفا قرب مارتا حين ظهرت

"رياح" الفتاة الأجمل بين جميع الحفيدات، عند ذلك، تراجع خطوتين متبسما بخجل واحترام، فابتسمت له رغم ما يبدو عليها من كدر وتثاقل، اقتربت من الدفة مترنحة بسبب الحمل، وقالت بضيق مخاطبة القائدة مارتا:

" أخبريني الحقيقة أيتها الأم مارتا، هل نحن على الاتجاه الصحيح؟"

ردت القائدة بشيء من الحيرة:

" ليس هناك حقيقة يا بنيتي، نحن نسير في البحر باحثين عن جزر اليونان، هذا ما أعرفه"

"هذا يعني أنك غير واثقة من الاتجاه؟"

أجابت مارتا ببرود:

" هذا صحيح يا رياح"

" كنت أحبذ أن نصنع طوفا كبيرا أو اثنين نركبها عوضا عن هذا المركب المتهالك"

" ما يدعوك إلى الارتياب في هذا المركب القوي؟"

" لا أدري، أرى أنه أصيب بأضرار بليغة وتمزق جزء من قماش صواريه"

ردت مارتا بانفعال:

" لا جدوى الآن يا بنيتي، لقد كنت غارقة وسط طقوس الحب في الجزيرة بحيث لم تلفتي انتباهي إلى صناعة طوف خشبي"

تكلم مطر قائلا بصوت خفيف النبرات:

" الطقس غائم ينذر بالمطر والرياح شرعت تعصف"

" لا يهم، اهبطا إلى الحجرة ومارسا الطقوس وكأن شيئا لم يكن"

أعتم الجو قبيل الغروب، وشرع المطر يهطل غزيرا عاصفا، صارت الريح تصدر صريرا مرعبا، وتعصف من اتجاهات عديدة، سرعان ما تغير مزاج البحر بشكل حاد، وتشكلت دوامات شديدة من الأمواج أخذت تقذف المركب عاليا ثم تطرحه إلى الأسفل، يرتفع في الهواء أكثر من مرة، ثم يأتي موج عاصف ليعيده إلى وضعه السابق، لحسن الحظ أن هبوب الرياح كان متوازنا بحيث بقي المركب ثابتا ولم ينقلب، صاروا يتشبثون بأي شيء، لم يعرفوا بأي شيء يتوسلون، فقدوا إيمانهم بالإله منذ زمن طويل، فكرت مارتا إن بعض أحفادها يحملون أسماء كثير من قوى الطبيعة، وهي القوى ذاتها التي توشك أن تطيح بهم في البحر، لا يمكن لوم الطبيعة وقواها لأنها تمارس مهامها دون أن تحابي أحدا، اللوم يقع على الإنسان الذي يملك عقلا، ومع ذلك يلقي نفسه وسط الأخطار، نظرت مارتا إلى الأفق مستجدية مساعدة النجوم المتلألئة في السماء، أو لعلها تجد تعاطفا أو نورا يمنحها أملا بالنجاة، أخيرا سكن البحر قريبا من الفجر، لكن الماء شرع يتسرب إلى المركب من فتحات صغيرة في الأسفل، حاولوا أن يسدوها، لكن المياه ظلت تدخل من فتحات كثيرة أخرى، اكتشفوا إن ألواح المركب ارتخت بسبب الدوامات القوية، صعدوا إلى السطح في حال من الغم والفزع، صار بوسعهم أن يسمعوا بكاء الصغار، وأن يروا وجوه بعضهم

المصفرة، طلبت مارتا من الذكور أن يهدئوا روع أخواتهم وأخوتهم، ثم جلست بين الإناث القائدات على السطح لمناقشة الوضع الخطير المرتقب، كان رعد الذكر الوحيد في المجموعة الذي سمح له بالحضور، وسبب وجوده في اجتماع القائدات يأتي من واقع منزلته كأحد المؤسسين للقواعد الجديدة، كما يبدو رفيقا ومساعدا مخلصا للأم القائدة مارتا، وأكثر من ذلك إنه والد هذا العدد الكبير من الصغار والكبار، ولا يمكن نكران دوره في تنظيم الطقوس الجنسية، فهو من زرع الابتسامة واللذة والحياة في أجساد الإناث متخليا عن نزوعه وفطرته القديمة كأب لا يجوز له أن يتصل جنسيا ببناته، لكنه استطاع أن يلغي ذاته وآدابه ويعذب ضميره في سبيل إحياء وإسعاد المجتمع البشري الجديد، تلت مارتا هذه الخطاب بصوت متقطع لاهث قادحة الثناء على رفيقها الذي لم يخذلها يوما منذ أن رأته لأول مرة على رأس جبل (ربي) الأخضر، أكدت إنه أثبت تفانيه وتضحيته في سبيل إنشاء العائلة، وتخلى عن مبادئه وتقاليده الشرقية العتيقة لإقامة عائلة بشرية ذات قواعد جديدة كانت تسمى مبتذلة، ويمكن القول إن قيام رجل شرقي عربي بتغيير أفكاره ومبادئه لأجل الإناث من الأمور الخارقة التي تحاكي الخيال، لكن هذا الذكر القوي المثابر صنع هذه المعجزة لأجل حبيبته وعائلته، فعل ذلك لأجل إنشاء مجتمع بشري جديد يقوم على تقدير الطبيعة والكائنات الحية، أليس هذا عملا بطوليا يستحق الاحتفاء والثناء... بشكل مفاجئ قاطعها رعد قائلا وهو يحاول كبح التأثر عن صوته الغاضب:

" لكني لم أفعل ذلك لأجل المجتمع البشري اللعين يا مارتا"

ردت بصوت حاد:

"لا يهم، لقد فعلت الصواب، أرجوك، دعني أنهي حديثي..."

" أرجوك يا حبيبتي، أخبريني إن كنتِ تدركين ما دعاني لاقتراف معجزة التخلي عن قواعدي القديمة"

" أعرف هذا السبب، دعني أتكلم.."

" كما ترين، المركب يوشك أن يغرق، وأنت تريدين من الذكر العجوز أن يقدم تضحية أخيرة، أليس كذلك؟"

"هذا صحيح، المركب مزدحم بالأجساد، علينا أن نفعل شيئا يقي العائلة من الغرق أو يؤجل نهايتها على الأقل"

رد بصوت حزين:

"لا بأس، تريدين أن أضحي بنفسي من أجلكم، سأفعل، لا داعي لمزيد من الثناء والكلمات المؤثرة"

قالت مارتا شاهقة بتأثر وحنق:

" بل نضحي بأنفسنا معا يا رعد، أظن أن دورنا انتهى عند هذا الحد، لقد فعلنا ما بوسعنا لإنقاذ هذا الجنس البشري البغيض"

" هذا صحيح، ليت تضحيتنا تجدي نفعا؟"

لم تصدق الإناث ما يجري، حاولن الإمساك بالوالدين المتعانقين دون جدوى، لكنهما قفزا في الماء بسرعة دون أن يلوحا بأيديهما أو يتفوها

بكلمات الوداع المناسبة، تردد البكاء في أرجاء المركب، صعد الأحفاد والحفيدات إلى السطح هاربين من الماء المتسرب، لمحوا الجدين يصارعان الأمواج المتدفقة ويضربان بأيديهما الماء بلا طائل، فجأة أخذهما شيء ما بعيدا عن المركب الذي يوشك على الغرق. ثم رأوا الدلافين تطل برؤوسها مصدرة أصواتها المميزة كأنها تشجعهم على القفز في الماء.